دكتور حمدي شاهين
كلية دار العلوم / جامعة القاهرة

دراسات في

عصر الخلفاء الراشدين

الطبعة الأولى

سنة ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

موقع د. حمدي شاهين

www.hamdi-shahin.com

مقدمة:

يعد عصر الراشدين امتداداً للعصر النبوي الكريم في توجهاته وأساليبه وسمته وروحه، فكان ذلك العصر نقلة حضارية ضخمة نقلت العرب . بل العالم جميعه آنذاك . من مرحلة التخلف والهمجية، والانحدار الإنساني، والمظالم الاجتماعية والاقتصادية، والأخلاق النسبية المترددة، والنهج السياسي المنحاز إلى صالح الحاكم الفرد أو الطبقة المتميزة على حساب الكثرة الكاثرة من المستضعفين والمهمّشين، والتدنيّ الكهنوتي المعقد والمحرف الذي غدا صناعة بشرية لا عطاءً إلهياً، إلى مرحلة جديدة عرفت فيها البشرية عقيدة دينية متميزة فعلت فعلها في صياغة البشر وتكوين الأمة والمجتمع في جزيرة العرب، وإخراج نمط مغاير من الحكم السياسي، وكانت هذه العقيدة وما صاغته من تأثيرات واسعة ثورة هزّت العالم المتجمد الأسن وأيقظته على واقع جديد مثير..

ولأول مرة يرى العالم نوعاً من الحكام لم تنهض بهم عصبية القبيلة أو القوة العسكرية؛ ولم يتسلطوا بناءً على امتياز السلالة أو الجنس؛ بل قدمتهم قدراتهم الشخصية والتزامهم القيمي ومحبة رعيّتهم لهم والتفافها حولهم، وارتكزت زعامتهم على وافر العطاء وعظيم الإنجاز الذي يجتمع مع تاريخ ناصع وسير بيضاء، وإذا كان أمرهم عجباً في سياق حضورهم التاريخي فأمر الأمة التي قدمتهم أشدّ عجباً؛ إذ ركنت إليهم وارتضت صدارتهم مع بصيرة واعية ووعي بصير..

وإن الناظر بتجرد إلى تلك النقلة الهائلة في مسيرة التاريخ الإنساني لا يجد لها تعليلاً إلا في طروء متغير جديد كان سيد الموقف والممسك بزمام ذلك التحول الكبير؛ إنه الدين الجديد الذي عرفه العرب فحاربوه أول الأمر حيث لم تقوْ أبصارهم الكلييلة على البصر السليم في ضوئه الباهر؛ ثم تكشفت لهم حقيقته

تدرجياً فأقبلوا عليه؛ واتخذوه لهم عقيدة غيرت سلوكهم وبدلت أحوالهم وأطلقت
طموحهم..

فلم يكن للعرب قبل الإسلام وجود سياسي واحد أو حكومة مركزية تضم
شقاتهم ؛ لم يكن هنالك سوى القبيلة وحدة اجتماعية وسياسية ؛ ولم يكن سوى
التقاتل والتشردم من أجل هوى نفساني أو كلاً حيواني ، أما دويلاتهم الهشة في
جنوب الجزيرة أو شمالها فكانت كيانات ضعيفة لا قيام لها إلا برضا السادة من
الفرس والروم المجاورين ؛ وحسب تحقيقها أهدافهم وخدمتها أطماعهم ؛ ولم يمتد
بأحدها طموح إلى جمع راية العرب جميعاً ؛ ولم يكن ذلك مسموحاً لها لو امتد بها
الطموح ، وأنى لها ذلك ...

ولم يكن هؤلاء النفر الذين عرفهم التاريخ فيما بعد خلفاء راشدين وحكاماً
مهديين وقادة موهوبين وصناعاً لمسيرة العالم من حولهم؛ لم يكونوا سوى أفراد في
مجتمع آسن لا خطر لهم ولا تتجاوز همة أحدهم إلى أبعد من توفير لقمة عيش
كريمة يضرب في سبيلها أكباد الإبل في تجارة مرهقة إلى مواطن الأغنياء
المجاورين في الشام واليمن؛ أو ينحصر أمله في رعي غنيمات له وسياسة
أمورهن؛ وذلك يصدق على خلفائهم الكبار أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ؛ وعلى
قاداتهم الأمجاد كخالد وعمر وأبي عبيدة ومعاوية وسعد بن أبي وقاص والنعمان
بن مقرن...

فليس سوى ثورة الإسلام هي التي غيرت ذلك النفر فهذبت نفوسهم،
وربّت ضمائرهم، وأورثتهم رقابة صارمة من داخل النفس؛ خشية المراقبة والحساب
من إله لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وليس سوى الإسلام
الذي أطلق طموحهم ليتجاوز حدود القبيلة وإطار الجزيرة العربية إلى حدود العالم
وإطار الكون المعمور، وزكّى طاقاتهم وقدراتهم ليصبحوا سادة دول وساسة أمم
مختلفة الأعراق والأديان متباينة العادات والأجناس، وعزّز ثقافتهم ليقهروا الفرس
والروم ويصوغوا واقعاً عالمياً جديداً؛ ولم يكن ذلك يمكنهم لولا تأثير الإسلام في

مادة التغيير العظيم وهم العرب آنذاك؛ ومن دخل في دينهم من الأمم الأخرى؛ فتقبل أبناء القبيلة حكم الدولة المركزية؛ بل سعوا إليها وشاركوا فيها واستهانوا بتضحيات جليلة ليكونوا دائماً . ولعصر طويل . جنوداً في جيش دائم الحركة سريع البذل مقدم على الغمرات..

وكما كان ذلك التغيير معجزة الإسلام كان أيضاً معجزة النفس البشرية التي خلفها الله تعالى بما تمتلكه من قابلية هائلة على التغيير والارتقاء..

إن البشرية الآن في شقوتها وماديتها الطاغية ومظالمها القاتلة لفي حاجة إلى الوقوف طويلاً أمام عصر النبوة والراشدين؛ وإن المسلمين الآن لفي حاجة أشد إلى ذلك ليدركوا أن أداة التغيير الثوري للنفس والمجتمع والعالم ما زالت في أيديهم؛ وفي أيديهم وحدهم؛ فهم الذين يعرفون الإسلام، وهم الأمناء عليه، وهم حملته إلى الدنيا من حولهم، وهم المحاسبون على ذلك، وأن وسائل ذلك التغيير هي أيضاً ملك يمينهم؛ من فهم الإسلام وإخلاص الاعتقاد به ودعوة الناس إليه وتربية الضمائر عليه؛ ثم إزالة الموانع من سبيله ليعرفه العالم ويتخذ بعد معرفته قراره إزاءه..

ومن هنا كانت ضرورة استمرار دراسة تاريخ الراشدين، ليس فقط لمعرفة الجانب الوضيء الواسع في تاريخ تلك الحقبة الزمنية، وإنما أيضاً لمعرفة جوانب القصور . ولا بد في كل تاريخ من جوانب قصور . والإفادة منها؛ فلم يكن عصر الراشدين ولا غيره من عصور البشرية تاريخاً ملائكياً لا أثر فيه لنوازع النفس وأخطاء السلوك، بل هو تاريخ مجتمع متميز يحاول تسنُّم ذرى الكمال البشري، ولا بد لمن يحاول ذلك أن يكبو حيناً وتزلُّ قدم بعد ثبوتها، ولكن ذلك لا يؤثر على سلامة القصد ونبل التوجه وخطورة الغاية؛ وإن دراسة ما خلفه عصر الراشدين من نجاح باهر في طرق الحكم والإدارة وسياسة الفتح والانتشار وتطوير المجتمع والدولة لا تقل أهمية عن دراسة نماذج الاختلاف السياسي والتقاتل الداخلي الذي

حدث في الفتنة الكبرى لاستجلاء الفائدة واستهداف العبرة؛ لا لإحياء المعارك التاريخية والوقوف عندها وسفح العبرات وإراقة الحسرات...

ولن يتم ذلك بنجاح إلا بمحاولة إحياء المسرح التاريخي كما تمت فيه الحوادث وسارت فيه الوقائع في العصر الراشدي نفسه؛ وذلك عمل عسير؛ إذ لم تصلنا وقائع عصر الراشدين ولا غيره من عصور البشرية بشكل كامل دقيق؛ وتدوين أمين محايد؛ فسوف تقابلنا مشكلة التقييم التاريخي الموضوعي التي نجدها في كل دراسات التاريخ...

وزاد من خطورة ذلك . فيما يخص عصر الراشدين . أن تاريخ ذلك العصر لم يكتب في حينه، فقد أثر الخلفاء . والمسلمون في عصرهم . أن يصوغوا الأحداث الجليلة، ويبدلوا في ذلك الوسع والطاقة، ولم يولوا عناية موازية لكتابة تاريخهم وتدوين وقائعه، وليس ذلك لغفلة منهم؛ بل اتساقا مع الواقع الثقافي الذي كان معهوداً آنذاك؛ فقد كان العلم كله ينتقل شفاهة؛ بدءاً من القرآن الكريم أقدس ما لدى المسلمين؛ ومروراً بالحديث النبوي على عظيم أهميته واحتقائهم به؛ وانتهاءً بشعرهم وأدبهم ونتائجهم الثقافي، ولما انتبه الخلفاء الراشدون إلى أهمية تدوين العلم والثقافة أولوا اهتمامهم الأول لكتابة القرآن الكريم بعدما استحرّ القتل في حفاظه في حروب الردة، ولم يدونوا الحديث الشريف خشية من صرف الناس عن القرآن وفقهه ودراسته وحفظه والاحتشاد من أجله، أما أخبار الإنجاز السياسي والعسكري الضخم الذي كانوا يصنعونه فلم يولوه حقه من التحرير والتحري في الرواية؛ والدقة في النقل؛ كما كانوا يفعلون مع الحديث؛ فضلاً عن أن يهتموا بكتابته وتدوينه.. وربما شغلنتهم الأحداث الجسام عن ذلك، وربما قادهم تواضعهم الجَمِّ وإنكارهم الذات وهضمهم حظ النفس إلى الإعراض عن تسجيل عمل مجيد ظنّوه سيتواصل طالما وُجد الإسلام والمسلمون، ولم يدركوا شدة تعطش البشرية إليه في زمان تال؛ يتلفت فيه الناس إلى مواطن الأسوة والافتداء، أو يصبح همّهم فيه هو الدراسة والتتقيب في تجريد عقلي ومختبر علمي، وإن لم تصحبه رغبة التأسي والافتداء..

وقد وصلنا تاريخ الراشدين عن طريق الرواية الشفهية التي رواها المشاركون في الأحداث - وهم كثرة كثيرة - إلى من عاصروهم ممن لم يشارك فيها، وإلى من أخذ عنهم وأدركهم، فرواه هؤلاء - وهم أقل عدداً - إلى جيل تالٍ، حتى وصل إلى جماعة من الجمّاعين للأخبار المهمين بها؛ عُرفوا باسم الأخباريين، فتجمعت لديهم روايات شتى بادروا إلى جمع ما يختص منها بواقعة معينة أو حدث بذاته، فرأينا كتاباً عن وقعة الجمل أو موقعة صفين أو كتاباً عن سقيفة بني ساعدة أو حروب الردة أو فتح بلد من البلدان، ورأينا جهوداً لأناس مثل سيف بن عمر والواقدي وأبي مخنف وهشام الكلبي وغيرهم، وجاء بعد هؤلاء الأخباريين جيل من المؤرخين احتشدوا لكتابة تاريخ شامل أوسع مدى مما سبق، يضم متفرقه ويجمع شتاته، فجمع البلاذري أنساب الأشراف في كتاب؛ وجمع فتوح البلدان في كتاب آخر، وكتب الطبري تاريخ الرسل والملوك في موسوعة ضخمة، وعمل جليل، استوعب فيه كثيراً من روايات الرواة التي وصلته فيما يخص كل حادثة تعرض لها؛ وضم ذلك كله في سفر كبير بغض النظر عن صحة هذه الروايات أو ضعفها أو تلفيقها؛ فقد ترك دراسة ذلك للقارئ المثقف في عصره؛ وللدارس الواعي فيما بعد عصره؛ فحفظ لنا بذلك مادة واسعة تصلح لدراسة التاريخ وتكوين تصورٍ ما عنه؛ ولم يقصد إلى كتابة تاريخ محقق يأخذ به من يليه..

وقد كان هؤلاء الرواة الذين رويت لنا أخبارهم بشراً تتعاورهم التأثيرات المتباينة فيخضعون لها حيناً ويتجردون منها حيناً آخر، فمنهم من أثر في مروياته مذهبه الديني مثل الرواة الشيعة والمعتزلة والخوارج، ومنهم من أثر فيه ولاؤه السياسي مثلما يروي الرواية الشيعي أخبار عثمان رضي الله عنه، ويروي الرواية العباسي أخبار معاوية رضي الله عنه..

وفي عصورنا الحديثة تلقف المؤرخون هذه الروايات فصاغوها تاريخاً أثرت فيه أيضاً مذاهبهم وطرق تفكيرهم وعواطفهم؛ فرأينا تيار الاستشراق الذي قاده

جماعة من علماء الغرب اهتموا بدراسة لغات الشرق الإسلامي وعاداته وثقافته وتاريخه، وبدأ متحاملاً على الإسلام مرتبطاً بروافد الاستعمار الغربي والتبشير النصراني، ثم تحرر من ذلك تدريجياً بدرجات متفاوتة، وكان لهؤلاء المستشرقين تلاميذ من المسلمين تأثروا بمنهج تفكيرهم، وطرق بحثهم، ومختلف آرائهم، وكان من هؤلاء وأولئك من التزم بمنهج التفكير الماركسي المادي في النظر للإسلام وتاريخه؛ ففسروا الاختلاف بين بعض الصحابة في أحداث الفتنة الكبرى وما دونها على أنها صراع مادي أفرزته الفوارق بين الطبقات؛ فحاولوا بذلك تطبيق نظريات القرن التاسع عشر الميلادي التي نبتت في بيئات غريبة عن الإسلام. وتشهد الآن تراجعاً كاملاً عن أسسها الفكرية. على حوادث تاريخ سبقها عدة قرون، وأثرت فيه مؤثرات مختلفة هي بنت عصرها ونتاج تفاعلاته..

ومن هنا تبرز أهمية دراسة أحوال رواة التاريخ الإسلامي في عصر الراشدين. وفي غيره. لمعرفة أحوالهم واتجاهاتهم المذهبية والسياسية التي أثرت على تدوينهم وقائع ذلك التاريخ، وتبرز أيضاً أهمية الحذر من دراسات المستشرقين وأتباعهم التي تلون كثير منها بنزعات مصلحة ارتدت ثوب العلم..

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أفيد من روايات الحديث النبوي الشريف وشروحه، وكتابات المتكلمين المسلمين، جنباً إلى جنب مع الروايات التاريخية، حيث أولى رجال الحديث وشراحه بعض أحداث هذه الفترة عناية خاصة، فقدموا لنا مادة علمية بذلوا جهداً كبيراً في توثيقها ودرسها، وقد أهملها أو تجاوزها كثير من الباحثين المعاصرين بغير حق، إذ إن من بدهيات البحث العلمي الرصين استيعاب المادة الواردة بشأنه، وإذا كان كثير من المؤرخين يحتفي بمصادر الأدب واللغة وكتابات الرحالة والجغرافيين وغيرهم فإنه من الأولى الاحتفاء بمرويات الحديث وشروحه، وكتابات المتكلمين وما درسوه من قضايا حدثت في ذلك العصر وشغلت الأمة في زمانها وبعد زمانها.. إن التاريخ الإسلامي جزء من الدراسات

الإسلامية، وبعض هذه الدراسات قدمت مادة موثوقاً بها سنداً وممتناً، أو اجتهادات عقلية متميزة لفهم هذه المادة وقضاياها..

وجاء هذا الكتاب في تمهيد وأربعة فصول: تناول التمهيد دراسة نقدية للمصادر التاريخية الأولى لعصر الخلفاء الراشدين، وتناول الفصل الأول منها خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وفيه دراسة مستفيضة لقضية استخلافه؛ وما ورد فيها من روايات الحديث والتاريخ وآراء العلماء، ثم سيرته ومنهجه حكمه، ثم مواجهته المرتدين ومسيرة الفتوحات الإسلامية في عهده، وتناول الفصل الثاني خلافة الفاروق عمر رضي الله عنه، وبه دراسة لطريقة استخلافه، ولمنهجه في الحكم والإدارة، والفتوحات الواسعة في عصره، ثم تحليل للروايات الواردة عن استشهاده، وهل كان مؤامرة من أعداء الإسلام؟ وفي الفصل الثالث حديث عن خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكيفية استخلافه والشبهات المثارة حوله، ثم بيان لمنهجه في الحكم، والفتوحات في خلافته، ثم دراسة مسهبة للفتنة في عصره وأسبابها المزعومة والحقيقية، وطريقته في مواجهتها حتى استشهاده رضي الله عنه، وفي الفصل الرابع دراسة لخلافة علي كرم الله وجهه، وكيفية استخلافه ومن تخلف عن بيعته وحجتهم في ذلك، وأبرز المشكلات التي واجهته، ومنهجه في التعامل معها، ثم صراع علي ومعاوية، ومبررات كل منهما، مع دراسة تطورات ذلك الصراع، حتى ظهرت الدعوة للتحكيم، وما دار حولها من شبهات وشكوك، ثم ظهور الخوارج واستشهاد علي رضي الله عنه، وتنازل الحسن ابنه عن الخلافة، وبيعة معاوية رضي الله عنه، لتبدأ حقبة جديدة من التاريخ الإسلامي.. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

تمهيد

دراسة نقدية للمصادر التاريخية الأولى لعصر الراشدين

شاع بين المؤرخين أن تدوين العلوم الإسلامية قد بدأ في العصر العباسي الأول، أما قبل ذلك فكانت تنتقل بواسطة الرواية الشفوية من راو إلى راو، ومن جيل إلى جيل^(١)، وقد قال بذلك أيضًا جماعة من علمائنا الأقدمين^(٢). غير أن أدلة كثيرة تؤكد أن للتدوين بدايات مبكرة بعضها يعود إلى زمن النبي ﷺ، وشارك فيها عديد من الصحابة ومن بعدهم التابعون^(٣)، ومن ثم يجب أن نضع في اعتبارنا أن التدوين لم يحدث فجأة، وإنما حدث تدريجيًا، وتم على فترات ومراحل صاحبت تقدم القوم ورفيهم، وسبق التدوين مراحل طويلة من الكتابة^(٤)، كما يجب أن ننوه إلى عدم تمايز العلوم الإسلامية في ذلك الوقت المبكر بعضها عن بعض، فقد كان مفهوم العلم شاملًا^(٥). لقد كانت الأولوية في التدوين للحديث الشريف وأقوال الفقهاء، لكن ثمة إشارات صريحة إلى العناية بتدوين التاريخ أيضًا، من ذلك أن عبيد الله بن أبي رافع - كاتب أمير المؤمنين

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ١/ ٣٣، د. عبد المنعم ماجد: التاريخ

السياسي للدولة العربية ١/ ٢٠

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ٩٤، الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ١٥١، ٢٢٩، وانظر السيوطي: تاريخ

الخلفاء ص ٢٦١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١/ ٣٥١

(٣) أحمد بن حنبل: العلل ٢/ ٢٩٦، ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٣٧٣، ٧/ ٤٤٨، ٤٩٤، ابن قتيبة:

المعارف ٢٦٠-٢٦١، أبو نعيم: حلية الأولياء ٣/ ٣١٠، ٣٦٦، اليافعي: مرآة الجنان ١/ ٢٦١، ابن

الجوزي: صفة الصفوة ٢/ ١٣٧، أحمد محمد شاكر: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن

كثير ص ١١١-١١٢، د. شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ١/ ٩٥، د. محمد فتحي عثمان:

المدخل إلى التاريخ الإسلامي ١٢٣-١٢٦

(٤) د. عثمان موافي: منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوروبي ص ٥٣

(٥) راجع أحمد أمين: ضحى الإسلام ٢/ ٣٦١

علي عليه السلام - كتب رسالة تحت عنوان: "تسمية من شهد مع أمير المؤمنين في حروب الجمل وصفين والنهروان من الصحابة"^(١)، وبعض أخبار معاوية عليه السلام تدل على اهتمامه بتدوين المعارف التاريخية والإفادة منها^(٢)، وقد كانت لديه دفاتر فيها سير الملوك وأخبارهم، يقرأها عليه غلمان له مرتبون كل ليلة^(٣)، كما نُسب إلى زياد بن أبيه أمير العراق (ت ٥٣هـ) أنه ألف كتابًا في "المثالب"، وهو قول مشكوك فيه^(٤)، وأشار خالد القسري أمير العراق الأموي (ت ١٢٦هـ) على الزهري أن يكتب كتابًا عن قبائل العرب، فشرع فيه ولم يتمه^(٥).

وينبغي أن نذكر في هذا المقام جهود التدوين الرسمية التي قامت بها الدولة الإسلامية، وأبرزها قيام عمر عليه السلام بتدوين ديوان العطاء الذي غدا سجلًا رسميًا للمسلمين وأنسابهم وثرواتهم وأماكنهم، وما فعله معاوية من اتخاذ ديوان الخاتم لحفظ مراسلات الدولة، وحمايتها من التلاعب، ثم تعريب الدواوين وتعديلها زمن عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) وابنه الوليد (ت ٩٦هـ)..

تطور التدوين التاريخي:

وقد بدأت بواكير التدوين التاريخي على المستوى العام برواية حادثة بعينها، محدودة في نطاقها الزماني والمكاني، كرواية أحد المواقف التي جرت في غزوة من الغزوات، أو لقائد أو زعيم، وتمتاز هذه المرحلة - فضلًا عن كثرة الرواة - بسيطرة الرواية الشفوية عليها، وقلة ما تم تدوينه منها..

(١) راجع د. شاکر مصطفى: السابق ١ / ١٧٠

(٢) استقدم معاوية إليه عبيد بن شربة، وهو أخباري يماني (ابن النديم: الفهرست ١٣٢، المسعودي: مروج الذهب ٢ / ٨٥)

(٣) المسعودي: السابق ٢ / ٤١

(٤) راجع الأصفهاني: الأغاني ٢٠ / ٢١، حيث ينسب الكتاب إلى زياد

(٥) السابق ١٩ / ٥٩، أبو نعیم: حلیة الأولیاء ٣ / ٣٦٠

وفي المرحلة التالية ظهرت جماعة عرفت بالأخباريين، أي رواة الأخبار وجامعوها، وهم أقل عددًا ممن سبقهم، وكبار هؤلاء الأخباريين مشهورون في الدراسات التاريخية، وهم ينتمون إلى القرن الثاني الهجري، كمحمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦هـ) وعوانة بن الحكم (ت ١٤٧هـ) ومحمد ابن إسحاق (ت ١٥٢هـ) وأبي مخنف لوط بن يحيى (ت ١٥٧هـ)، وبعضهم ينتمي إلى القرن الثالث كهشام بن الكلبي (ت ٢٠٤هـ) والواقدي (ت ٢٠٧هـ) والمدائني علي بن محمد (ت ٢٢٥هـ)، وقد جمع هؤلاء الأخباريون أو المؤرخون المبكرون الروايات المتفرقة التي وصلتهم من الجيل السابق؛ والتي تخص موضوعًا بعينه، في كتب أو كتيبات صغيرة الحجم مثل: "حروب الردة" أو "موقعة الجمل" أو "صفين" .. وامتاز بعضهم بغزارة الإنتاج العلمي كالواقدي والمدائني^(١)، غير أن معظم هذا الفيض من الإنتاج العلمي لم يصلنا على النحو الذي خلفه عليه أصحابه، بل وصلنا من خلال ما احتفظ به المؤرخون الكبار الذين جاءوا من بعدهم كالبلاذري (ت ٢٧٩هـ) واليعقوبي (ت ٢٩٢هـ) والطبري (ت ٣١٠هـ)، ومثلوا المرحلة الثالثة من مراحل التدوين التاريخي.. وقد استطاع بعض الدارسين أن يجمعوا مرويات عدد من هؤلاء الأخباريين المتناثرة في كتب من تلاهم، مما يمكّن من دراستها، ومعرفة مناهجهم في الجمع والتوثيق، واتجاهات الرواية لديهم^(٢)، وقليل من إنتاج هؤلاء الأخباريين أو المؤرخين المبكرين وصلنا كالسيرة النبوية لابن إسحاق، ومغازي للواقدي.

وتعددت اهتمامات هؤلاء المؤرخين، فمن هذه الكتب ما اهتم بالتاريخ العام كتاريخ اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) والأخبار الطوال للدينوري (ت ٢٨٢هـ) ومنها ما اهتم

(١) سيأتي الحديث عن الواقدي لاحقًا، أما كتب المدائني فتبلغ مائتين وأربعين كتابًا (ابن النديم: الفهرست ١٤١-١٥١)

(٢) جمع عبد السلام هارون مرويات نصر بن مزاحم عن "صفين" في كتاب بذات الاسم، وجمع أحمد راتب عرموش مرويات سيف بن عمر عن "الفتنة وموقعة الجمل" من تاريخ الطبري.

بالأنساب كنسب قريش لمصعب الزبيري (ت ٢٣٦هـ) ومنها ما اهتم بالفتوح مثل "فتوح البلدان" للبلاذري (ت ٢٧٩هـ)، و"فتوح مصر والمغرب" لابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ) ومنها ما نظمت مادته حسب الطبقات ككتاب "الطبقات الكبرى" لابن سعد (ت ٢٣٠هـ).

وتوزع هؤلاء المؤرخون جغرافياً، فكان منهم من ينتمي إلى الحجاز كابن إسحاق والواقدي في بدايتهما قبل أن يذهبا إلى العراق، ومنهم من ينتمي إلى العراق كاليقوبي والبلاذري، ومصر كابن عبد الحكم، وكان لكل منهم تلاميذ ومعاصرون، مما ساعد على تكون سمات يمكن استنباطها لكل مدرسة تاريخية تنتمي إلى إقليم من هذه الأقاليم^(١).

ملاحظات عامة على عملية التدوين التاريخي:

ونلاحظ عدة ملاحظات عامة على عملية التدوين التاريخي آنذاك:

١- إن كثيراً من نتائج الأخباريين الأولين لم يصلنا، كما ألمحنا من قبل، ويعود ذلك في جانب منه إلى طريقة الانتقاء من المصادر التي اتبعتها المؤرخون الجماعون الكبار الذين جاءوا من بعدهم، وحفظوا التراث السابق عليهم، وكان نظرة العلماء وطلاب العلم آنذاك إلى الآثار المكتوبة أثرها في عدم العناية ببعضها، ثم ضياعها، إذ كانوا ينظرون إليها كعامل مساعد على التذكر والحفظ، غير أنه لا يعول عليها بشكل أساسي في التدريس أو التعليم، وقد كانوا يقللون من قيمة العلم المكتوب خوفاً مما قد يعرض له من التغيير والتبديل، أو النسخ والإزالة، أو التصحيف والتحريف^(٢)، ولذلك كانوا يقولون: "لا يفتي الناس صحفي، ولا يقرئهم مصحفي"^(٣)..

(١) راجع عن هذه المدارس التاريخية: د. شاکر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون

(٢) راجع د. عثمان موافي: منهج النقد التاريخي الإسلامي ص ٤٤

(٣) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية ص ١٦٢-١٦٣

٢- يغلب على مؤرخي هذه الفترة ضمور النقد التاريخي، ويكتفي أحدهم برواية ما وصله من أخبار مع إسنادها إلى أصحابها، ويدع أمر قبولها أو رفضها على عاتق القارئ أو السامع، وقد تكون هذه الروايات متناقضة أو مختلفة، أو مستغربة معيبة، فمهمته كما يراها تنحصر أولاً في النقل لا النقد، وفي استيعاب الأخبار والمحافظة عليها، وجمعها بشكل منظم بغض النظر عن نصيبها من الصحة والثبوت^(١)، حتى وصلت إلينا هذه التركة لا على أنها هي تاريخنا، بل على أنها مادة غزيرة للدرس والبحث يستخرج منها تاريخنا^(٢)، وقد عبر الطبري عن ذلك الاتجاه أفضل تعبير حين قال: "فما في كتابي هذا من خبر يستنكره قارئه، أو يستشعنه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهًا في الصحة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وأنه إنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا"^(٣)، ويستلزم ذلك على دارس تاريخ هذه الفترة معرفة أحوال هؤلاء الرواة الذين تذكرهم سلاسل الإسناد، صدقًا وكذبًا، وتجريبًا وتعديلًا، مع الحذر من احتمالات تدخل الوضاعين بصنع سلاسل إسناد موثوق بها ليروج الخبر، ويزيد الأمر صعوبة أن بعض المؤرخين كان يكتفي بذكر أبرز رواته في بدء كتابه، كما نجد عند اليعقوبي في تاريخه، أو يذكرهم بين حين وآخر في صفحات كتابه، مثلما يفعل أبو حنيفة الدينوري في "الأخبار الطوال"، والأمر على ذلك النحو يجعل النقد الداخلي للأخبار ودراسة متونها ومادتها أمرًا بالغ الأهمية، ولا محيص عنه..

٣- إن قصور النقد التاريخي لا يعني عدم وجوده مطلقًا، فقد كانوا يمارسونه بصورة غير ظاهرة، "فمن فيض هائل من الروايات التاريخية كان المؤرخ يمدنا بعدد منها فقط، محدود على أية حال، وكان يقوم بجهد كبير في الانتقاء للروايات

(١) راجع: عبد المنعم ماجد: السابق ٢١/١، ٢٥، شاكر مصطفى: السابق ١٧٣/١، عثمان موافي: السابق

(٢) محب الدين الخطيب: حواشيه على "العواصم من القواصم" لابن العربي، حاشية ٣٠٩ ص ١٧٩

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٨/١

ومقارنتها، ونفي ما لا يقبله منها، أو دمج بعضها في بعض، إن التدوين التاريخي الإسلامي في الحقيقة إنما يتضمن في شكله الوصفي المُعطى تلك العمليات الفكرية من استقراء ومناقشة وتفضيل رواية على أخرى، ولكن دون الإعلان أو التسجيل لكافة تلك المراحل التحضيرية السابقة للكتابة، والتي قلما يكشف عنها المؤلف، وندر جدًا من المؤرخين من كانت كتابته مجرد سرد ساذج لا يحمل ضمن السطور تأويله الخاص، وتفسيره الذاتي"^(١)..

أبرز الرواة والأخباريين:

برز في الفترة موضع البحث عدد من الرواة والأخباريين والمؤرخين كانوا المنهل الذي استقى منه من تلاهم، مما يزيد من أهميتهم، وفي الصفحات التالية دراسة عن أبرز هؤلاء، تتناول مدى صدقهم وعلاقتهم السياسية وانتماءاتهم المذهبية التي أثرت في كتاباتهم، مع عرض نماذج لمروياتهم عن عصر الخلفاء الراشدين، ومحاولة استنباط أبرز السمات المنهجية لديهم..

١- محمد بن إسحاق المطلبي:

اختلف العلماء حول ابن إسحاق^(٢) وروايته اختلافًا كبيرًا، فبعضهم يمتدحه، وبعضهم يتهمه ويكذبه.. والذي يطمئن إليه المرء من ذلك الاختلاف

(١) شاعر مصطفى: السابق ٤٥٧/١، وانظر روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين ٩٢
(٢) هو محمد بن إسحاق بن يسار مولى قيس بن مخزومة بن المطلب بن عبد مناف، ولد حوالي سنة ٧٥ هـ وتوفي حوالي سنة ١٥٢ هـ، وكان جده يسار من سبي عين التمر، ولما شب طلب العلم من شيوخ المدينة، وأخذ عن أكثر من مائة راوٍ فيها، ثم اتجه إلى العراق، واتصل بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، فأهدى إليه كتابه في المغازي، وسمع منه خلائق بالعراق، وجمع إلى روايته بعض رواياتها (راجع: ابن النديم: الفهرست ١٣٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٧ / ٣٩-٤٧، مرجليوث: دراسات عن المؤرخين العرب ص ٩٨، شاعر مصطفى: السابق ١ / ١٦٠-١٦١).

الطويل^(١) أن ابن إسحاق كان لا يسير سيرة المحققين من المحدثين، فأثار ذلك حنقهم، فكان يلجأ أحياناً إلى الإسناد الجمعي، فيروي المعنى الواحد عن طريق عدد من سلاسل الإسناد، فلا يعلم العالم المحقق ما روته كل سلسلة منها على وجه الدقة، وكان أحياناً يروي عن الضعفاء والمجهولين، وكذلك فعل عدد من المحدثين - دون تأثم - ما داموا يذكرون أسماء الرواة، وليس كل محدث يقتصر في روايته على الثقات وحدهم، كما أنه كان يفرق بين الدقة المطلوبة في أحاديث الأحكام - ولا يروي منها إلا قليلاً - وبين التساهل الجائز في رواية الأخبار والسير، وكان بعض كبار الثقات يفرق أيضاً بين هذين النوعين كابن حنبل وغيره^(٢)، إلا أن ابن إسحاق توسع في ذلك الباب؛ فكان يروي أحياناً عن اليهود والنصارى، ويسميه "أهل العلم الأول"، ولا يتورع أن يضع الأشعار المصنوعة في كتبه، حتى صار فضيحة عند رواة الشعر^(٣)، وكان يلجأ أحياناً إلى التدليس بأن يُسقط من بعض الأخبار رجالاً متهمين بالكذب؛ فيندفع بذلك من لا خبرة له

(١) ممن امتدحه ابن شهاب الزهري فقال: "لا يزال بالمدينة علم ما بقي هذا" - يعني ابن إسحاق - وقال عنه شعبة بن الحجاج: "أمير المحدثين" وقال عنه الشافعي: "من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق" .. على حين ضعفه آخرون واتهموه، ومن أشهرهم مالك بن أنس الذي قال عنه: "إنه دجال من الدجاجة"، ولما قيل لهشام بن عروة إنه يحدث عن زوجته فاطمة قال: "كذب الخبيث"، وقال: "العدو لله الكذاب، يروي عن امرأتي، من أين رأها؟" وقال عنه أحمد بن حنبل: كان رجلاً يشتبه الحديث فيأخذ كتب الناس فيضعها في كتبه! وقال: "إنه قدم إلى بغداد فكان لا يبالي بمن يحكي، عن الكلابي وغيره، وقال عنه: "كثير التدليس جداً، أحسن حديثه عندي ما قال: أخبرني وسمعت" (راجع ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ١٩١/٧-١٩٣، ابن القيسراني: تذكرة الحفاظ ١٧٢/١-١٧٤، ابن عدي: الكامل في ضعفاء الرجال ١٠٢/٦-١١٢، العقيلي: ضعفاء الرجال ٢٣/٤-٢٨، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣٣/٧-٥٥، ميزان الاعتدال ٥٦/٦-٦٢، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢١٧/١-٢٣٤، ابن الجوزي: الضعفاء والمتروكين ٤١/٢، ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير ١/٥٤-٦٧)

(٢) راجع ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢٣٧/١

(٣) راجع ابن النديم: الفهرست ص ١٣٦

بالرجال والأسانيد^(١).. وعلى ذلك فإن مرويات ابن إسحاق لا ينبغي أن تؤخذ على علاتها، بل تدرس كل رواية منها على حدة، فما صرح فيه بالسماع أو التحديث وكان رواته ثقات فهو جدير بالثقة، وما خالف ذلك وجب الحذر تجاهه.

وقد كتب ابن إسحاق - فضلاً عن كتابه في السيرة - كتاب "الخلفاء"، وتحدث فيه عن الراشدين والأمويين على الأرجح، وهناك مقتطفات منه لدى الطبري، وهي التي تهمنا في ذلك المقام بالدرجة الأولى، وتوجد في سيرته التي نقحها ابن هشام بعض المرويات عن بدايات عصر الراشدين.

من ذلك أنه يروي ما يوافق الروايات الصحيحة عند البخاري من أن النبي ﷺ أمر أبا بكر في مرض وفاته أن يصلي بالناس، وأصر على ذلك^(٢)، وأنه قُبض ولم يستخلف أحدًا صراحة^(٣)، كما تتفق روايته مع رواية البخاري عن خطبة أبي بكر المسلمين عقب وفاة النبي ﷺ يثبّتهم ويصّرهم^(٤)، وذكر ابن إسحاق أيضًا الرواية الصحيحة التي أوردها البخاري عن خطبة عمر التي شرح فيها ظروف استخلاف أبي بكر؛ وأنها كانت فلتة، وتحذيره المسلمين أن يبايع أحدًا على غير شورى من الناس، ومن فعل ذلك فلا يبايع هو ولا الذي يبايعه^(٥)، وهذا التوافق يزيد الثقة في ذلك النوع من مرويات ابن إسحاق..

وروايته عن بعض وقائع الردة أقرب إلى القبول، ومنها روايته عن قتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة، وهي تبرر قتل مالك بأنه لم يلتزم الأدب في حديثه

(١) للتدليس معان أخرى هذا أخطرهما (راجع: أحمد محمد شاکر: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير ص ٤٥-٤٧)

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٦/ ٦٨-٦٩

(٣) السابق ٦/ ٧٢، وللمقارنة انظر صحيح البخاري حديث رقم ٦٦٤، ٥٦٦٦، ٤٤٤٧، صحيح مسلم حديث رقم ٣٢٨٧

(٤) ابن هشام: السابق ٤/ ٢٢٧-٢٢٨، وقارن البخاري: السابق حديث رقم ٣٦٦٧، ٣٦٦٨، ٣٦٦٩

(٥) ابن هشام: السابق ٤/ ٢٢٩-٢٣١، وقارن البخاري: السابق حديث رقم ٦٨٣٠

عن النبي ﷺ فقتله خالد^(١)، وتخلو من مبالغات رواية سيف بن عمر عن هذه الواقعة^(٢).

وقد روى الطبري عن ابن إسحاق أخبارًا عن بدايات فتح العراق تزعم أن الخليفة أبا بكر كلف خالد بن الوليد بغزو العراق من ناحية الحيرة قرب منتصفه^(٣)، وهي تخالف الرواية المشهورة عند سيف بن عمر من أنه أمره أن يغزو العراق من أسفله، وأمر عياض بن غنم أن يغزوه من أعلاه، ثم يستبقا إلى الحيرة، فأيهما سبق إليها فهو أمير على صاحبه^(٤)، وهي الرواية الأقرب إلى التصور الصحيح للأمور، بأن ينافس الخليفة بين القائدين، وأن يشتت قوى الأعداء بينهما، وأن يحترسا فلا يدعا جيوبًا للعدو خلفهما قد تطوق قوات المسلمين، وتهدد سلامتها^(٥). أما روايته عن خطة فتح الشام وترتيب المعارك تاريخيًا فتتفق مع رواية البلاذري والواقدي، وتذكر أن أجنادين هي المعركة الأولى الكبيرة في الشام سنة ١٣هـ، بعد عدة معارك محدودة^(٦)، ثم تليها موقعة فحل، ثم فتح دمشق سنة ١٤هـ^(٧)، ثم تأتي موقعة اليرموك سنة ١٥هـ^(٨)، وهذه الروايات تخالف جميعها ترتيب سيف بن عمر - الرواية الأثير للفتوح عند الطبري - الذي يجعل المعركة الكبرى الأولى هي اليرموك، والأخيرة هي أجنادين^(٩).

(١) الطبري: السابق ٣ / ٢٧٩-٢٨٠

(٢) السابق: ٣ / ٢٧٩، وسيأتي ذكر رواية سيف عند الحديث عنه قريبًا

(٣) الطبري: السابق ٣ / ٣٤٣-٣٤٤

(٤) الطبري: السابق ٣ / ٣٤٧

(٥) راجع محمود شيت خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة ١٢١-١٢٢

(٦) الطبري: السابق ٣ / ٤١٧

(٧) السابق ٣ / ٤٤١

(٨) السابق والصفحة، وانظر روايات الواقدي عند الطبري: السابق والصفحة، فتوح الشام (المنسوب)

للواقدي ١/٨٨، ٩٣، ٢٠٤، ٢٩٦، وانظر رواية البلاذري: فتوح البلدان ص ١٢٠-١٤٢

(٩) راجع هذه المعارك عند الطبري: السابق ج ٣.

٢- الواقدي محمد بن عمر:

هو محمد بن عمر بن واقد، أحد الموالى، ولد سنة ١٣٠هـ وتوفي سنة ٢٠٧هـ، وكان معاصرًا لابن إسحاق، وأخذ العلم من شيوخ عصره بالمدينة المنورة، ثم اتجه إلى العراق، وأخذ عن رواتها، وتوثقت صلته بالعباسيين، ونال عطاياهم وهباتهم^(١).. امتدحه بعض علماء الرجال، في حين ضعفه آخرون، منهم البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي ويحيى بن معين، وقال الشافعي وأحمد عنه: "كتب الواقدي كذب"^(٢).

ويبدو من مجموع ما قيل عنه أنه كان أكثر حرصًا عند رواية أخبار المغازي لاتصالها بالنبي ﷺ^(٣)، وقد كان مع ذلك يتساهل في أمر الإسناد، فيلجأ إلى جمع الأسانيد التي تخص موضوعًا معينًا في سياق واحد، حرصًا على الاختصار، ولما عاب بعض الناس ذلك عليه غاب عنهم أسبوعًا، ثم جاءهم بالأسانيد مفردة لغزوة واحدة، فكانت واحدًا وعشرين مجلدًا، فقالوا: ردنا إلى الأمر الأول^(٤)، ويزيد على ذلك التساهل ولعه بالغرائب، وهو أكثر تساهلًا فيما تلا فترة السيرة من أحداث، فيروي عن الضعفاء والكذابين، كما يروي عن الثقات والصادقين، "وجمع فأوعى، وخلط الغث بالسمين، والخرز بالدر الثمين"^(٥)، وهو

(١) اتصل بالوزير يحيى بن خالد البرمكي، ف قضى دينه، ثم لم يزل في ناحيته، وامتدت صلته إلى الخليفة هارون الرشيد وابنه المأمون، وولي للمأمون القضاء في عسكر المهدي.. (ابن النديم: السابق ١٤٤، البغدادي: السابق ٤/٣، ١٩-٢٠، والمصادر التالية)

(٢) راجع في ترجمته وأقوال العلماء عنه: ابن النديم: الفهرست ص ١٤٤، ابن القيسراني: السابق ٣٤٨/١، الخطيب البغدادي: السابق ٣/٤-٢١، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٩/٤٥٤-٤٦٩، ابن الجوزي: الضعفاء والمتروكين ٣/٨٧، المزي: تهذيب الكمال ٢٦/١٨٨-١٩٤، ابن عدي: الكامل في ضعفاء الرجال ٦/٢٤١، ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/٦٧-٧٢

(٣) ابن سيد الناس: السابق ٦٨-٦٩

(٤) السابق ٦٩

(٥) الذهبي: السابق ٩/٤٥٤

يلجأ مع كل ذلك إلى شيء من مجاملة سادته من بني العباس، حتى إنه حذف اسم العباس من قائمة أسرى بدر، إرضاء لهم^(١)..

وقد رماه البعض بالتشيع مع لزوم التقية كيلا ينكشف أمره^(٢)، ويروون عنه قوله: "إن علي بن أبي طالب كان من معجزات النبي ﷺ كالعصا لموسى، وإحياء الموتى لعيسى عليه السلام"، وله أخبار أخرى تجري في ذات السبيل^(٣)، ويذكر بعض الباحثين أنه كان لا يتعصب للشيعة، وكان بعيداً عن التحزب^(٤)، ووهم بعضهم فذكر أن الشيعة لا يعدونه في رجالهم^(٥)، رغم أن ترجمته موجودة في كتبهم^(٦).

وكان الواقدي غزير الإنتاج^(٧)، وقائمة كتبه تنبئ عن اهتمامات واسعة بالتاريخ، وهي على الأرجح رسائل صغيرة عن أحداث خاصة في التاريخ الإسلامي مثل: "أخبار مكة" و"أزواج النبي" و"السقيفة" و"الردة" و"يوم الجمل" و"صفين" و"مولد الحسن والحسين" و"مقتل الحسين" و"القبائل ومراتبها" و"ضرب الدنانير والدرهم" و"وضع عمر الدواوين".. ولعل أهمها كتاب "التاريخ الكبير" الذي تناول فيه تاريخ الخلفاء حتى سنة ١٧٩ هـ و"كتاب الطبقات"، وهو في طبقات المحدثين بالكوفة والبصرة، ولعله أقدم كتاب نظم على الطبقات، وعلى مثاله كتب

(١) راجع كتابه المغازي ١ / ١٣٨

(٢) ابن النديم: السابق ١٤٤

(٣) السابق والصفحة

(٤) الدوري: بحث في نشأة علم التاريخ ص ٣١، شاکر مصطفى: السابق ١ / ١٦٥

(٥) شاکر مصطفى: السابق والصفحة

(٦) راجع محسن الأمين: أعيان الشيعة، ق ١ ج ١ ص ١٢٨، الخوانساري: روضات الجنات ٧ / ٢٦٨

(٧) يروى أنه لما انتقل في بعض أسفاره كان يحمل كتبه على عشرين ومائة وقر (البغدادي: السابق ٣ / ٦-٥)، وكان له غلامان مملوكان يكتبان له بالليل والنهار (بن النديم: السابق ١٤٤)، وكان يقول عن نفسه: "ما من أحد إلا وكتبه أكثر من حفظه، وحفظي أكثر من كتبي" (البغدادي: السابق ٣ / ٦)

ابن سعد "الطبقات الكبرى" ... ولم يصلنا من هذه الكتب سوى كتاب "المغازي"^(١)، أما الكتاب المنسوب إليه تحت عنوان: "فتوح الشام" ففي نسبته إليه شك كبير^(٢).
وحيث ننظر في مرويات الواقدي عن هذه الفترة نجد أن رواياته عن الفتنة زمن عثمان تنضح بالتحامل الشديد عليه وعلى غيره من الصحابة، حتى أن الطبري - وهو الذي يجتهد أن يقف محايداً أمام روايته - لا يستطيع أن يفعل ذلك مع الواقدي ومروياته عن الفتنة، فيقول إنه من هذه الروايات "ما أعرضت عن ذكره، كراهة مني لبشاعته"^(٣)، ومما رواه الطبري عن الواقدي تلك الرواية التي تزعم أن الصحابة تداعوا لقتال عثمان، ولم يدافع عنه إلا نفر يسير^(٤)، واتهم بالتحريض عليه عائشة^(٥) وعمرو بن العاص^(٦) وطلحة بن عبيد الله^(٧)، ولم يكن شأن الصحابة عند التحقيق كما يزعم الواقدي في تأليبهم على عثمان وتنافسهم على السيادة بعده^(٨).

ويصور الواقدي عثمان شخصاً ضعيف الرأي، يتلعب به مروان بن الحكم، ويثير الناس عليه دفاعاً عن ملك "بني أمية"، حتى قال علي لعثمان: "أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك، مثل جمل

(١) راجع الدوري: السابق ٣١-٣٢، شاکر مصطفى: السابق ١/ ١٦٢-١٦٤

(٢) راجع مرجليوث: السابق ١٠٨، شاکر مصطفى: السابق ١/ ١٦٤، مارسدن جونز: مقدمته لكتاب المغازي للواقدي ص ١٦.

(٣) الطبري: السابق ٤/ ٣٥٦

(٤) السابق ٤/ ٣٦٦-٣٦٩

(٥) السابق ٤/ ٤٠٧

(٦) السابق ٤/ ٣٥٦-٣٥٧

(٧) السابق: ٤/ ٣٧٩

(٨) كتب ابن العربي كتابه العواصم المن القواصم للرد على هذه الشبهة في أكثر من موضع، وكذلك فعل ابن تيمية في كتابه "منهاج السنة النبوية" ..

الظعينة يُقاد حيث يُسار به، والله ما مروان بذى رأي في دينه ولا نفسه"^(١)، والحق أن دور مروان في هذه الفتنة قد تم تضخيمه والإساءة إليه، ليكون مدخلاً للهجوم على أبنائه من خلفاء بني أمية فيما بعد..

٣- أبو مخنف لوط بن يحيى:

هو لوط بن يحيى بن مخنف بن سليمان الأزدي، توفي سنة ١٥٧هـ وكان جده مخنف ممن صحب النبي ﷺ وروى عنه، ثم صحب علي بن أبي طالب فكان من شيعته، وكان حامل لواء قبيلة الأزد في صفين^(٢)، أما حفيده أبو مخنف فهو أخباري عراقي، خلف أكثر من اثنين وثلاثين كتاباً، منها: "كتاب الردة" و"مقتل عثمان" و"أخبار محمد بن أبي بكر" و"فتوح الإسلام" و"فتوح العراق" و"صفين" و"مقتل علي" وغيرها، وأبو مخنف معروف بتشييعه وكذبه، وقد وصفه علماء الجرح والتعديل بأنه تالف لا يوثق به، وأنه شيعي محترق^(٣)، غير أن ابن أبي الحديد - وهو أديب ومؤرخ شيعي - ينفي عنه التشيع^(٤)، وهو خطأ، إذ تدل رواياته على تشيعه كما سيأتي، وتؤكد ذلك شهادات كتّاب الشيعة^(٥)، ورغم ذلك يمتدحه أحد الكتاب المعاصرين ويقول: "إنه يعرف بدقة رواياته"^(٦)، ويتحدث في

(١) الطبري: لسابق ٤ / ٣٦١-٣٦٢

(٢) راجع ابن حجر: تهذيب التهذيب ١٠/٧٠، المزي: تهذيب الكمال ٢٧/٣٤٧

(٣) راجع ترجمته عند ابن حجر: لسان الميزان ٤/٤٩٢، ابن عدي: السابق ٦/٩٣، الذهبي: ميزان الاعتدال: ٥/٥٠٨، سير أعلام النبلاء ٧/٣٠١، ياقوت الحموي: معجم الأديباء ١٨/٤١

(٤) شرح نهج البلاغة ١/١٤٧

(٥) المامقاني: تنقيح المقال ٣/٤٤، وانظر أغابزرك: الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١/٣١٢، محسن الأمين: أعيان الشيعة، ج ١ ق ١ ص ١٢٧.

(٦) إبراهيم بيضون: الحجاز والدولة الإسلامية ص ٢٠٩

موضع آخر عن الموضوعية التي اتسمت بها رواياته^(١).. يبدو أن ذبوع اسم أبي مخنف وكتاباته قد أدى إلى الدس عليه^(٢).

ونستطيع بتصفح عناوين كتب أبي مخنف أن ندرك أنها تؤلف تاريخاً متصلاً من عهد أبي بكر حتى أواخر العهد الأموي، لولا بعض الثغرات^(٣)، ومروياته تقدم صورة أخاذة حية للحوادث، مع كثير من الخطب والمحاورات والشعر، وهي تعكس أثر مجالس السمر وأيام العرب المتوارثة منذ الجاهلية^(٤).

وقد أكثر الطبري في النقل من مرويات أبي مخنف منذ استخلاف أبي بكر وحتى أواخر العصر الأموي، وكان اعتماده عليه كاملاً تقريباً في بعض المواطن المتفجرة التي نحتاج إلى تعدد وجهات النظر، بدل الاستسلام لرواية أبي مخنف الشيعية المتحاملة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك - فيما يتصل بعصر الراشدين - موقعة صفين، وقد يرجع ذلك إلى أن روايات أبي مخنف أكثر تفصيلاً، وتمتلىء بالحيوية والمشاهد المؤثرة، والعاطفة الجياشة، وأبيات الشعر، وتلك مواصفات ربما لا توجد بذات القدر عند غيره، إلا أنها تؤثر بالسلب على القيمة التاريخية لهذه الروايات، وحظها من تصوير الحقيقة المجردة، وحجة الطبري في مسلكه واضحة أنه يروي الوقائع، ويذكر أسماء رواتها، بغض النظر عن صدقهم أو كذبهم^(٥)..

(١) السابق ٢٧٩، وهو مؤلف تنضح كتاباته بالتنشيع، فلا عجب في إطرئه أبا مخنف..

(٢) حتى أن قصة مكذوبة عن مقتل الحسين نسبت إليه بكاملها، وتختلف عن أخبار مقتل الحسين التي ساقها الطبري عنه، كما نسبت إليه قصة أخرى عن حركة المختار بن أبي عبيد (راجع فلهورن: الخوارج والشيعية ١٧٩، ١٨٠، ١٨٦، فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي ١/١٢٨)

(٣) د. الدوري: السابق ١/١٧٨

(٤) راجع السابق ١/٣٥

(٥) الطبري: السابق ١/٨

وحيث ننظر في مرويات أبي مخنف نفسها نجد أن رواياته عن استخلاف أبي بكر مرسله، وتمتلى بتفصيلات وخطب وحوارات لا نجدها في روايات الحديث الصحيحة للواقعة، وتفترض روايته انتزاع البيعة لأبي بكر في أجواء صراع محموم^(١)، بل يزعم في اجترأ أن أبا بكر احتال لقتل سعد بن عبادة الذي أبا البيعة بعدما توجه إلى الشام^(٢).

وروايته عن بيعة عثمان شبيهة بما رواه عن بيعة أبي بكر في التزويد وتلوين الرواية، وتشيع فيها روح التآمر والانتهازية والمناورة السياسية بين الصحابة، وتزعم أنه لما اختار عبد الرحمن بن عوف عثمان - بعد طول مشاوره، وبعد إدراك بأن الناس لا يعدلون به أحداً - قال له علي: "حَبَوْتَهُ حَبْوُ دَهْرٍ، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا، والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك"، وتتجمل الرواية كما هو متوقع ببعض الأشعار، وبعض الرؤى المنامية!^(٣).. وهي تختلف - في الروح العام، وفي بعض الوقائع - مع رواية البخاري التي تخلو من هذه التزييدات والأكاذيب وسوء الظن بالصحابة^(٤).

أما مروياته عن الفتنة الكبرى فشديدة التحزب والسوء، فقد قال في كتابه عن موقعة الجمل - فيما يرويها ابن أبي الحديد - أن علياً بعد انتصاره على طلحة والزبير وعائشة استعرض القتلى، فوجد فيهم طلحة فقال: "ويل أمك طلحة!! لقد كان لك قدم لو نفعك، ولكن الشيطان أضلك فأزلك، فعجلك إلى النار"^(٥)، رغم أن طلحة من العشرة المبشرين بالجنة كما هو معروف^(٦)، ورواياته عن موقعة

^(١)راجع: الطبري: السابق ٣ / ٢١٨-٢٢٣، وقارن البخاري: الصحيح حديث رقم ٦٨٣٠، وانظر يحيى بن إبراهيم:

مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري عصر الخلافة الراشدة ص ١٢٢-١٢٦

^(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ١ / ٥٨٩

^(٣) راجع الطبري: ٤ / ٢٢٧-٢٣٤

^(٤) راجع صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب كيف يبائع الإمام الناس

^(٥) شرح نهج البلاغة ١ / ٢٤٨

^(٦) راجع البخاري: السابق، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر طلحة بن عبيد الله

صفين تفيض بالحيوية والحركة، وهي تنطق بتشييعه المتحمس، فيزعم أن قيس بن سعد أحد أصحاب علي، وأميره على مصر، كتب إلى معاوية رسالة يصفه فيها بأنه: "أبعد الناس من هذا الأمر، وأقولهم للزور، وأضلهم سبيلاً، وأبعدهم من الله عز وجل ورسوله ﷺ وسيلة، ولد ضالين مضلين، طاغوت من طاغيت إبليس!!^(١)، وتزعم رواية أخرى أنه لما طلب أهل الشام تحكيم القرآن بينهم وبين علي ﷺ، رفض علي التحكيم، وخطب أنصاره يحضهم على رفضه، وكان مما قال: "فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم، قد صحبتهم أطفالاً، وصحبتهم رجالاً، فكانوا شر أطفال، وشر رجال.."^(٢)، مع أن الروايات الصحيحة تثبت أن علياً قبل التحكيم، وهو ما يجدر بمثله فقهاً وديناً^(٣)، وبعيد أن يتهم علي ﷺ هؤلاء النفر من الصحابة والتابعين بمثل هذا، وإن اختلفوا وتقاتلوا، ولم يكن التحكيم خدعة كما يصوره أبو مخنف^(٤)، بل كان ضرورة لإنهاء قتال عقيم أدرك المسلمون مرارة نتائجه، وكان للسلام أنصاره في كلا المعسكرين ..^(٥)

غير أننا نجد أبا مخنف يحاول أحياناً أن يبدو متوازناً، وهيهات، فيذكر حجة معاوية في القتال وعدم البيعة أثناء حوار رسله مع رسل علي^(٦)..

(١) الطبري: السابق ٥٥١ / ٤

(٢) السابق: ٤٨-٤٩ / ٥

(٣) راجع البخاري: الصحيح ١١٦٢/٣، مسلم: الصحيح ٤١١/٣-٤١٣، النسائي: السنن الكبرى

٤٦٣/٦، البيهقي: السنن الكبرى ٢٢٢/٩، الهيثمي: مجمع الزوائد ٢٣٧/٦

(٤) الطبري: السابق ٤٨ / ٥

(٥) نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٤٧-٥٤٩، الدينوري: الأخبار الطوال ١٨٣، ١٨٧-١٨٩،

المسعودي: مروج الذهب ٢٢ / ٣، ابن أبي الحديد: السابق ٢١٤-٢١٥

(٦) الطبري: السابق ٧-٦ / ٥

٤ - سيف بن عمر:

هو سيف بن عمر الضبي التميمي، توفي سنة ١٨٠هـ، و ما يتوافر عنه من معلومات يسير^(١)، بالرغم من أهميته البالغة، إذ إنه أشهر رواة الردة والفتوح وموقعة الجمل عند الطبري، وله فيها كتاب "الردة والفتوح" وكتاب "الجمل ومسير عائشة وطلحة"^(٢)، ويرد اسمه لأول مرة عند الطبري في أحداث سنة ١٠هـ مع أخبار ردة مسيلمة، وينتهي الأخذ منه سنة ٣٦هـ مع بدء خروج عليّ لملاقاة معاوية في صفين، ويبلغ اهتمام الطبري به وإيثاره روايته أن أخذ عنه في أكثر من ثلاثمائة موضع^(٣).

وهو عند علماء الحديث ضعيف^(٤)، واتهمه بروكلمان بأنه كان يحرف الأحاديث والأحداث، وأن الطبري قد اغترّ به وخُذع في روايته^(٥).. ويمكن تفهم وجهة نظر الطبري في الاعتماد على مرويات سيف بن عمر، إذ إنها تمتاز بالحيوية والتفاصيل وكثرة الحوارات وبعض الغرائب والأشعار، فهي تبدو متأثرة بأسلوب "أيام العرب" قبل الإسلام، وهي الأسباب نفسها التي آثر الطبري من أجلها مرويات أبي مخنف عن صراع علي ومعاوية، وحركات المعارضة الشيعية ضد الأمويين، وينضاف إلى ذلك عامل جديد وشديد الأهمية؛ إذ تنزع مرويات سيف

(١) لم يذكره ابن النديم، ولا ياقوت الحموي، ولا ابن سعد، ولا الخطيب البغدادي مثلاً

(٢) حققهما في كتاب واحد د. قاسم السامرائي ونشرهما في ليدن - هولندا - ١٩٩٤م

(٣) شاکر مصطفى: السابق ١/١٨٠، ١٨١

(٤) ضعفه يحيى بن معين وأبو داود، وقال عنه أبو حاتم "متروك"، واتهمه ابن حبان بالزندقة، وقال عنه ابن عدي: عامة حديثه منكر، واتهمه بوضع الأحاديث، غير أن الحافظ الذهبي يزكي معرفته بالأخبار والتاريخ فيقول: "كان أخبارياً عارفاً" (راجع الذهبي: ميزان الاعتدال ٣/٣٥٣، ابن حجر: تقريب التهذيب ١/٤٠٨، حيث يصفه بأنه ضعيف في الحديث، عمدة في التاريخ)

(٥) تاريخ الأدب العربي ٣/٣٦

إلى تنزيه الصحابة رضوان الله عليهم، والتماس الأعذار لهم، وعدم اتهامهم على النحو الذي نجده في مرويات غيره كالواقدي وأبي مخنف عن هذه الفترة نفسها. فسيف بن عمر يرى أنبيعة أبي بكر كانت بإجماع الصحابة "ما تخلف منهم أحد، إلا من ارتد أو من قد كاد يرتد"^(١)، وأن علي بن أبي طالب لم يتأخر عن البيعة، بل سارع فور علمه بجلوس أبي بكر للبيعة إليها، فخرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء، عجلًا، كراهة أن يبطن عنها حتى يبايعه^(٢)، وهو ما يخالف رواية البخاري الصحيحة التي تنص على أن عليًا لم يبايع مدة ستة أشهر بعد وفاة النبي ﷺ حتى وفاة زوجته فاطمة رضي الله عنها^(٣)، كما ذكر سيف أن سعد بن عبادة - مرشح الأنصار للخلافة - قد أُجبر علىبيعة أبي بكر^(٤)، ولا يصح ذلك، فقد كان سعد عزيزًا في قومه بحيث لا يتصور إجباره على ما لا يريد، كما أن الإسلام لا يعتد تصرفات المكره، وهي بعد ذلك تخالف رواية البخاري السابق ذكرها التي تذهب إلى أن سعدًا لم يبايع يوم السقيفة.

وتنسب رواية سيف إلى العلاء بن الحضرمي - أحد قادة المسلمين في حروب الردة - كرامات مثيرة^(٥)، وتجنح نحو المبالغة في تصوير مقتل مالك ابن نويرة، فيزعم أنه حدث لأن خالد بن الوليد أمر رجاله - وكانوا من كنانة - أن يذفنوا أسراهم، فقتلوهم، إذ إن كلمة "أذفنوا" عند كنانة تعني: "اقتلوا"، وأن المسلمين أحرقوا رهوس مالك وصحبه^(٦)..

(١) الطبري: السابق ٣ / ٢٠٧

(٢) السابق والصفحة

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي، حديث رقم ٤٢٤٠، ٤٢٤١، كتاب الفرائض حديث رقم ٦٧٢٥،

٦٧٢٦، ٦٧٢٧

(٤) الطبري: السابق ٣ / ٢٢٣

(٥) السابق ٣ / ٣٠٧، ٣١٠-٣١١

(٦) السابق ٣ / ٢٧٧-٢٧٩

غير أنه مما يحمد لسيف في روايته عن الردة أنه نبه إلى بروز العامل القلبي بين أسبابها، وروى أن أحد أصحاب مسيلمة قال له: "أشهد أنك كذاب، وأن محمدًا صادق، لكن كذاب ربيعة أحب إلي من صادق مضر"^(١).

وفي روايات سيف عن الفتوح بعض المبالغات المثيرة، نتيجة انفعال رواته ببطولات المسلمين، فتنسب إلى خالد بن الوليد قسوة بالغة في قتل الآلاف في فتح بعض بلدان العراق، وأنه أراد أن يجري من دمائهم نهرًا^(٢)، وزعم سيف أن خالدًا حج من العراق سرًا بغير أن يُعلم الخليفة أبا بكر، ولم يعرف بذلك إلا نفر من ساقية جيشه^(٣)، وفي مسيره إلى الشام تزعم رواية سيف أنه شق طريقًا صحراويًا - لا عهد للناس به - بمعاونة دليل أرمذ العين^(٤)، وتغريه بطولة خالد أيضًا بأن يصور قيادته المسلمين في معركة اليرموك على أنها اقتراح من خالد بأن يتبادل القادة الإمارة العامة على الجيش، كل منهم يومًا، وأن يؤمروه ذلك اليوم، فأمرّوه وهم يظنون أنه يوم كسائر أيامهم، فهزم الروم وشتت شملهم^(٥).. وذلك أخلق بالرد إذ إن المتصور أن أبا بكر رضي الله عنه أرسل خالدًا قائدًا عامًا للمسلمين بالشام، ولا يصح افتراض أن يترك أمر القيادة العامة في ذلك الوقت الحرج دون تحديد، ليتبادلها القادة، فنتغير بتغيرهم خطط القتال وأساليب المواجهة^(٦)..

كما ينسب سيف إلى عمرو بن العاص مغامرة أشد جراءة حين ذهب بنفسه على أنه رسول لعمرو ليتجسس على أعدائه قبيل موقعة أجنادين، ولقي قائدهم الأرطبون، فكاد يسقط في يد غريمه الداهية، لولا أن خدعه عمرو، وبلغت

(١) السابق ٣ / ٢٨٦

(٢) السابق ٣ / ٣٥٦-٣٥٧.

(٣) السابق ٣ / ٣٨٤

(٤) السابق ٣ / ٤٠٩

(٥) السابق ٣ / ٣٩٥-٣٩٦

(٦) راجع شيت خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة ص ١٤١

الواقعة عمر رضي الله عنه فلم يعثف قائده الذي أوشك أن يغرر بالمسلمين وبنفسه، بل قال مبتهجًا - فيما يزعم - : "خدعه عمرو، لله عمرو"^(١).

أما مرويات سيف بن عمر عن بدايات الفتنة والثورة على عثمان فهي أعدل ما لدى مؤرخينا من روايات، من ناحية حرصه على تنزيه الصحابة، والتماس الأعذار لهم، بخلاف ما نجده عند أخباريين آخرين مثل الواقدي وأبي مخنف من اتهامهم الصحابة بالتآمر والهوى، وتمكُن الأحقاد بينهم، وهو يشير - في تنبّه محمود - إلى الأسباب الاجتماعية الكامنة وراء الثورة على عثمان رضي الله عنه، وإلى أن قوى اجتماعية جديدة في الأمصار قد بدأت في الظهور، وأشار إلى العراق من بينها، وتبحث عن دور بارز لها في الأحداث وإدارة شؤون الدولة، مما ينبئ بانقلاب اجتماعي حاد^(٢)، كما تشير روايته إلى أن حسد قبائل العرب - وهم القوى الجديدة المؤثرة في الأحداث - قريشًا كان من أسباب ثورتها على عثمان وولاته؛ فهم - فيما يرون - ممثلو قريش وسيطرتها السياسية^(٣).

ويسوق سيف الروايات الدالة على عذر الصحابة بالمدينة في عدم مبادرتهم إلى نصره عثمان^(٤)، ويبرئ عمرو بن العاص من تهمة التحريض على عثمان^(٥)، وحاول تبرئة محمد بن أبي بكر من قتل عثمان، فيروي أنه دخل عليه ليقتله فزجره عثمان فرجع^(٦).

(١) الطبري: السابق ٣ / ٦٠٥-٦٠٦

(٢) السابق ٤ / ٢٧٩

(٣) وذلك يبدو من حديث معاوية إلى النفر المسيّرين من زعماء التمرد بالكوفة إليه، حيث قال لهم: "وقد

بلغني أنكم نقمتم قريشًا، وإن قريشًا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم" (راجع السابق: ٤ / ٣١٩)

(٤) السابق ٤ / ٣٥٤

(٥) السابق ٤ / ٥٥٨-٥٥٩

(٦) السابق ٤ / ٣٩١

ويهتم سيف اهتمامًا عظيمًا بدور ابن سبأ في أحداث الفتنة، وهو الدور الذي لم يبرزه -على هذا النحو - غيره من المؤرخين، فيتتبع ظهوره في البصرة ثم الكوفة ثم في مصر، ووضعه خطة التحرك ضد عثمان، وبدء تأصيله المذهب الشيعي، بغرس أفكار الوصية والرجعة^(١)، غير أن سبأ يبدو مبالغًا في دور ابن سبأ وقدرته على تحريك الناس، وتطوير مسار الأحداث، رغم خطورة دوره الذي يؤدي الاعتراف به إلى تفسير كثير من وقائع هذه الثورة، على خلاف من ذهب إلى إنكار وجوده أصلًا^(٢).

ومن مبالغاته في أمر ابن سبأ أنه يفترض تأثيره على أبي ذر رضي الله عنه، وتحريضه ضد معاوية - أمير الشام - لأنه يقول المال مال الله، ولا يقول إنه مال المسلمين!!^(٣)، وهو افتراض غير صحيح، فإن تلك الرواية تجعل تاريخ هذه الحادثة سنة ٣٠هـ، وبعدها عاد أبو ذر إلى المدينة حيث توفي سنة ٣١هـ^(٤)، بينما تذكر رواية سيف أيضًا أن أول ظهور لابن سبأ بالبصرة كان حوالي سنة ٣٢هـ^(٥)، وقد أمضى بها حينًا، ثم سار إلى الكوفة ثم الشام، حيث لقي أبا ذر.. أي أنه في الوقت الذي سار فيه ابن سبأ إلى الشام لم يكن أبو ذر بها، بل كان قد توفي بالمدينة سنة ٣١هـ قبل أن يظهر ابن سبأ نفسه بالبصرة في السنة التالية^(٦).

(١) لسابق ٤ / ٣٤٠-٣٤١

(٢) ممن أنكر وجوده مرتضى العسكري في كتابه عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، عبد العزيز صالح الهلابي: عبد الله بن سبأ..

(٣) الطبري: السابق ٤ / ٢٨٣

(٤) الطبراني: السابق ٤ / ٣٠٩

(٥) انظر الطبري: السابق ٤ / ٢٦٦-٢٦٦

(٦) راجع محمد حسن شراب: المدينة النبوية ص ٢٢٥

٥ - اليعقوبي:

هو أحمد بن إسحاق بن جعفر بن واضح اليعقوبي، توفي سنة ٢٨٤هـ على ما يقول ياقوت الحموي^(١)، بينما تدل بعض الأخبار الواردة في كتابه "البلدان" على أن تاريخ وفاته يجب أن تتأخر إلى سنة ٢٩٢هـ^(٢)، وكان جده واضح أحد موالي الخليفة العباسي المنصور أو ولده صالح، وقد تولى بعض الأعمال الإدارية المهمة للعباسيين^(٣)، وظل ابنه وحفيده - اليعقوبي المؤرخ - على صلات وثيقة بالأسرة العباسية وأمراء عصره^(٤)..

وفضلاً عن صلاتها القوية بالعباسيين تميزت أسرته أيضاً بالتشيع، بل بالتعصب له^(٥)، وظلت تلك الميول الشيعية ماثلة في اليعقوبي المؤرخ، كما ينطق بها تاريخه الذي يتناول تاريخ العالم منذ بدء الخلق حتى سنة ٢٥٩هـ، وقد جعل كتابه جزأين: الأول منهما يتناول بدء الخلق وأخبار الأوائل من الأمم المتقدمة، ويتناول الجزء الثاني تاريخ المسلمين منذ مولد النبي ﷺ، وقد نظم مادته بعد عصر النبوة على أنه تاريخ خلفاء، يؤرخ لعصر كل خليفة تحت عنوان: "أيام فلان" إلا ما يتصل بخلافة علي بن أبي طالب وابنه الحسن، فقد أرخ لها تحت

(١) معجم الأدياء ٥ / ١٥٤

(٢) راجع: ياسين إبراهيم الجعفري: اليعقوبي المؤرخ والجغرافي ص ٢٤-٢٥، شاعر مصطفى: السابق ١ / ٢٤٩، فييت: مقدمته لكتاب البلدان لليعقوبي.

(٣) تولى إمارة أرمينيا وأذربيجان في خلافة المنصور (اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢ / ٣٧٢)، وعين حاكماً على مصر في خلافة المهدي سنة ١٦٢هـ عدة أشهر (الكندي: ولاية مصر ص ١٤٣، وانظر عن ذلك الجد أيضاً: الطبري: السابق ١٠ / ٥٩١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢ / ٤٠)

(٤) راجع الجعفري: السابق ٢٤-٢٧

(٥) لقد دفع واضح - حد اليعقوبي - حياته ثمناً للعون الذي قدمه لإدريس بن عبد الله - جد الأدارسة - حين هربه إلى المغرب لما كان عاملاً على بريد مصر، فكان ذلك سبباً في قتله على يد العباسيين (الطبري: السابق ١٠ / ٥٩١)

عنوان "خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب" و"خلافة الحسن ابن علي" (١)، ولم يذكر فيه إسناد رواياته، بل أجمل أسماء الرواة الذين اعتمد عليهم في مقدمة كتابه، وجعله مختصرًا، فلا يميل فيه إلى كثرة التفصيلات (٢).

وتبدو الدعايات الشيعية في الكتاب كلما سنحت الفرصة لها، ففي تأريخه لسقيفة بني ساعدة يزعم أن بعض الحاضرين قال إن عليًا ﷺ لو طلب الخلافة لنفسه لم ينازعه فيها أحد، ويصور انزعاج بني هاشم من خبر استخلاف أبي بكر واستبعاد عليٍّ وتناشدهم الأشعار في ذلك، ويضيف اليعقوبي إلى قائمة أسماء من امتنعوا عن مبايعة أبي بكر أسماء النفر الذين قدمهم الشيعة فيما بعد على أنهم أسلاف لهم في تفضيل علي (٣) ..

ويزعم محاولة أبي بكر وعمر والمغيرة بن شعبة رشوة العباس لضمه إلى معسكر أنصارهم وإبائه ذلك (٤)، وتهجمهم على بيت فاطمة وفيه أنصار عليٍّ في مشهد مأساوي (٥) ..

ثم أشرك اليعقوبي أبا سفيان بن حرب - جد الأمويين - في زمرة المعارضين بيعة الصديق، وجعله من المحرضين عليًا على طلب الخلافة، كيدًا منه للإسلام وأهله بزعمه (٦) ..

وتوحي رواية اليعقوبي عن بيعة عليٍّ ﷺ أن الناس بايعوه من غير مخالفة إلا ثلاثة نفر من بني أمية هم: مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد

(١) تاريخ اليعقوبي الجزء الثاني

(٢) راجع مقدمته للجزء الثاني ص ٥-٦

(٣) ومنهم المقداد وسلمان وأبو ذر وعمار والبراء بن عازب (راجع اليعقوبي: السابق ٢/ ١٢٣-١٢٤)

(٤) السابق: ٢/ ١٢٤-١٢٦

(٥) السابق: ٢/ ١٢٦

(٦) السابق والصفحة

بن عقبة، وذلك لأسباب شخصية مشينة^(١)، وذلك يتعارض مع ما رواه الطبري، من أن عددًا من الصحابة أشفق أن يبايع عليًا لما رأوه من قيام الثائرين على عثمان بأمر استخلافه، وإحاطتهم به^(٢).

ويصور اليعقوبي تحالف معاوية وعمرو بن العاص على أنه صفقة نفعية مؤسفة، ونوع من التحالف الميكافيلي من أجل الدنيا ومغانمها^(٣).. ويذكر كتابًا من قيس بن سعد - أمير علي عليه السلام على مصر - إلى معاوية يقول له فيه "إنما أنت وثن من أوثان مكة، دخلت الإسلام كارهاً وخرجت منه طائعاً"^(٤)، ثم يصور التحكيم الذي دعا إليه أهل الشام في صفين بأنه حيلة احتال بها عمرو لنصرة معاوية بعدما كادت الهزيمة تتم عليه^(٥)، ويزعم اعتراض علي عليه السلام على التحكيم وقوله: "إنها مكيدة، وليسوا بأصحاب قرآن"^(٦)..

٦ - البلاذري:

هو أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، سكن بغداد، وطلب العلم على أيدي كبار مشايخها، وتوفي سنة ٢٧٩هـ^(٧)، وكان قريبًا من العباسيين وامتدح بعض خلفائهم، ونال عطاياهم وهباتهم^(٨). ورغم هذه الصلات القوية بالعباسيين

(١) السابق ١٧٨ / ٢

(٢) راجع الطبري: السابق ٤ / ٤٢٩-٤٣١

(٣) اليعقوبي: السابق ٢ / ١٨٥-١٨٦

(٤) السابق ٢ / ١٨٧-١٨٦

(٥) السابق ٢ / ١٨٨

(٦) السابق ٢ / ١٨٨

(٧) والبلاذري نسبة إلى البلاذر، وهو ثمر شربه جده فوسوس (راجع ياقوت: السابق ٥ / ٩١-٩٢) وقيل: بل شربه هو للحفظ فوسوس، وشُدَّ في البيمارستان حتى مات فيه (الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦٢/١٣)
(٨) امتدح المأمون (ت ٢١٨هـ) - فإن صح ذلك فقد كان البلاذري ما زال في بدء شبابه - والمتوكل (ت ٢٤٧هـ)، وكان من ندمائه، والمستعين (ت ٢٥٢هـ) (راجع ياقوت: السابق ٥ / ٩٩-١٠٠، الذهبي: السابق ١٣/١٦٢-١٦٣، ابن حجر: لسان الميزان ١/٣٢٢، الكتبي: فوات الوفيات: ١ / ١٥٦)

فإن البلاذري مشهود له بالاتزان والحيدة والموضوعية، وأن رواياته لا تتشرد وراء الاستطراد والهوى، وأنه لم يعتمد فقط على مرويات أهل العراق حيث عاش، وحيث تتلون بألوان شيعية غالباً، بل اعتمد أيضاً على مرويات أهل المدينة^(١)، ولا تظهر رواياته لوئاً من الدعاية الفجة للعباسيين إلا أنه في بعض الحالات كان يسمي دولتهم "الدولة المباركة"^(٢)، ولم يسم خصومهم الأمويين "خلفاء" إلا في حالة عمر بن عبد العزيز^(٣).

ووصلنا من مؤلفات البلاذري كتابان: "فتوح البلدان" و"أنساب الأشراف"، أما "فتوح البلدان" فهو سجل شامل للفتوح الإسلامية، فصل فيه صاحبه فتوح كل بلد من البلدان، وقادة الفتح فيها، وتمصير المدن وخططها، وبعض المعلومات عن معالمها، وأخرى عن العملة وأنواعها، والعطاء وأحكام الأراضي، وقدم بعض المعارف حول الكتابة والقراطيس وتعريب الدواوين، ومصادره في هذا الكتاب متنوعة، منها الكتب الخاصة بفتوح كل مصر، ومنها المواد التي استطاع جمعها من خلال زيارته للأمصار، ومن خلال لقائه بعلمائها وأهلها، وقد يورد للخبر الواحد أحياناً أكثر من رواية واحدة، غير أن الاختلاف بين تلك الروايات ليس كبيراً في النهاية^(٤).

أما كتابه "أنساب الأشراف" فهو موسوعة ضخمة اتخذ فيها من النسب إطاراً تاريخياً لتناول التاريخ الإسلامي، وهو يمثل مزيجاً فذاً في الخطة والمادة، فخطته تجمع بين أساليب كتابة كتب الطبقات والأخبار والأنساب، وتشمل سيرة كل خليفة الأحداث التي وقعت في عهده، بما في ذلك فعاليات الأحزاب السياسية،

(١) راجع د. الدوري: السابق ص ٥٠، د. شاکر مصطفى: السابق ١ / ٢٤٥

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ١٥٦

(٣) راجع: محمد جاسم المشهداني: موارد البلاذري عن الأسرة الأموية في أنساب الأشراف ١ / ٦٠

(٤) راجع مرجليوث: السابق ١٣١-١٣٢، الدوري: السابق ٤٩، شاکر مصطفى: السابق ١ / ٢٤٣،

المشهداني: السابق ١ / ٦٢

مع عناوين فرعية للحوادث المهمة، تشبه عناوين كتب الأخباريين، وهو يراعي التسلسل التاريخي عامة، ومع ذلك توجد استثناءات فرضتها ضرورة مراعاة تسلسل النسب، فيورد مثلاً الكلام عن يزيد قبل عثمان بن عفان^(١)، وقد عُني ذلك الكتاب عناية عظيمة بأحداث وشخصيات عصر الراشدين..

وحافظ البلاذري في الكتابين على سلاسل الإسناد، فحفظ لنا بذلك أسماء كثير من المصادر التي لم تصلنا، وهو يحرص على إعطاء صورة متكاملة للواقعة، فيروي عنها ما وصله من روايات تبدو متناقضة، جرياً على سنن الكتابة في عصره التي تعني بكثرة الرواة، وتراها دليلاً على التميز والإحاطة..

فهو يروي رواية الزهري عن تأخر عليّ عنبيعة أبي بكر، ثم مبايعته، وهي الرواية التي رواها البخاري، لكنه يروي في ذات الوقت عن أبي مخنف وهشام الكلبي رواياتهما المنكرة عن صراعات عليّ والصحابة في تلك الأثناء^(٢)، ويتصل بذلك أن البلاذري لا يقف مشدوهاً عند تلك الروايات التي تتصف بالمبالغة والنزعة إلى القصص المثيرة، بل يسردها في اختصار، ثم يروي ما يخالفها من روايات موضوعية، فهو حين يتحدث عن مسير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام، لنصرة المسلمين، بها لا يقتصر على رواية سيف ابن عمر المثيرة التي تزعم أنه اخترق طريقاً موحشاً في الصحراء، مغامراً بنفسه وجيشه، بل يسوقها مختصرة، ثم يأتي برواية الواقدي التي يفهم منها أن خالدًا سار إلى الشام عن طريق الفرات الأعلى^(٣)، ويروي كذلك الاختلاف بين الرواة حول قيادة خالد جيش المسلمين في معركة اليرموك هل كانت لأنه أمير عام على الجيش أم لأن القادة أمروه ليمن

(١) د. الدوري: السابق ٤٩

(٢) أنساب الأشراف ١/٥٨٦-٥٨٩

(٣) فتوح البلدان ١١٨-١١٩

نقيبته وبأسه وكيده؟^(١)، وحين يتحدث عن عبور سعد بن أبي وقاص وجيشه نهر دجلة لفتح المدائن يذكر الرواية التي تراهم عبروا على سهوات الخيول، وتلك التي تتحو نحو الموضوعية؛ وتراهم عبروا من مخاضة فيها ماء يسير عند قرية للصيادين^(٢).

٧- الطبري:

ولد محمد بن جرير الطبري في آمل بطبرستان سنة 225 هـ، وتوفى سنة 310 هـ، وهو مؤرخ وفقيه ومفسر كبير، وقد اشتهر بتحرره من الضغوط السياسية التي تؤثر على عمل المؤرخين في أحيان كثيرة^(٣)، كما تحرر من الضغوط المذهبية حيث كان يكفر الخوارج والرافضة ولا يقبل شهاداتهم ولا يجيز التوارث بينهم وبين المسلمين^(٤)، وبالتالي يبدو اتهامه بالتشيع غير ذي قيمة حقيقية^(٥).
ويعد كتابه " تاريخ الرسل والملوك " أغزر مصادرنا التاريخية المتاحة مادة عن تاريخ صدر الإسلام، وقد أتاح إسناده هذه المادة إلى مصادرنا الأصلية ورواتها المتتابعين الفرصة لدراسة اتجاهات هؤلاء الرواة السياسية والمذهبية، غير أن السمة البارزة في تاريخ الطبري هي عنايته الفائقة بتاريخ العراق والمشرق الإسلامي . وبدرجة أقل تاريخ الحجاز . في حين يقل اهتمامه إلى حد كبير بتاريخ مصر والشام وشمال أفريقيا والمغرب والأندلس؛ ولقد ترتبت على ذلك نتائج مهمة، فقد عني عناية عظيمة بالفتوح الإسلامية على جبهة العراق والمشرق، على حين

(١) السابق ١١٧

(٢) السابق ٢٦٣

(٣) السبكي: طبقات الشافعية 137/2 . 138 ياقوت: معجم الأدباء 87/18، السيوطي: طبقات المفسرين

11، الحوفي: الطبري ص 50 . 54

(٤) ابن حجر: لسان الميزان 100/5، د. الحوفي: الطبري 256.252

(٥) ياقوت: السابق 40/18، معجم البلدان، مادة أمل. ابن حجر: السابق 100/5

ضمرت عنايته بحركة الجهاد في مصر وإفريقية، وأفسح مساحات واسعة في تاريخه للرؤى العراقية التي تعبر عن تعاطف شديد مع علي بن أبي طالب عليه السلام وأنصاره، وتتامل على مخالفه في موقعتي الجمل ثم صفين، وعلا في كتابه صوت الرواة والأخباريين العراقيين الشيعة كأبي مخنف ونصر بن مزاحم ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وغيرهم، مما يترك ظللاً سلبية لدى قارئه عن العلاقة بين كبار الصحابة في ذلك العصر الباكر من تاريخ الإسلام..

غير أن الطبري جماعة ورواية أكثر منه مؤرخ ناقد، والعناية بالرواية على حساب النقد سمة ثقافية عامة في عصره، فنجد لديه الرواية ونقيضها وما يخالفها في سياق واحد، وبعضها لا تخفى نكارتها، وهو يعلل ذلك بقوله: "فما في كتابي هذا من خبر يستنكره قارئه، أو يستشنع سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وأنه إنما أتى من قبل بعض ناقله إلينا، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا"^(١)..

وعلى ذلك فإنه من الخطأ العلمي الجسيم قبول ما في تاريخ الطبري بحجة أنه ثقة في ذاته، بل يجب أن تُنسب كل رواية عنده إلى قائلها، ويُعزى كل قول إلى صاحبه، ليُعرف نصيبه من الجرح والتعديل، وموقعه من القبول والرد، وحظه من التوثيق والترك.. ولن نسهب هنا في إعطاء أمثلة لمرويات الطبري عن عصر الراشدين، فقد سبق بيان بعض ذلك عند الحديث عن أبرز الرواة السابق ذكرهم، والذين أخذ عنهم رواياتهم، وذكرهم في سلاسل إسناده..

(١) تاريخ الرسل والملوك ٨/١

الفصل الأول

خلافة أبي بكر الصديق ﷺ

المبحث الأول: أبو بكر: إسلامه واستخلافه

أولاً: أبو بكر قبل استخلافه:

هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن كعب بن لؤي؛ القرشي التيمي، أمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد؛ وهي ابنة عم أبيه أبي قحافة^(١).. وغلب على أبي بكر لقب الصديق؛ وذلك لأنه لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يحدث بذلك الناس؛ فارتد ناس ممن كانوا آمنوا وصدّقوا به، وفتنوا، فقال أبو بكر: إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك: أصدقته بخبر السماء غدوة أو روحة^(٢).. وقيل: بل لقب بذلك في الجاهلية لما عرف عنه من الصدق^(٣)..

وكان أبو بكر من رؤساء قريش في الجاهلية محبباً إليهم، عزيزاً فيهم، وكان إليه أمر الأشناق؛ وهي الديات والمغارم؛ فكان إذا احتمل شيئاً منها فسأل فيه قريشاً صدقوه، وأمضوا حمالته^(٤) وحمالة من قام معه؛ وإن احتملها غيره خذلوه

(١) اختلف في اسم أبي بكر فقيل: كان اسمه عبد الله، وقيل كان اسمه عبد الكعبة فسماه رسول الله ﷺ به، ويقال له أيضاً عتيق، وقيل: إنما عرف بذلك لحسن وجهه وجماله، أو لأنه لم يكن في نسبه شيء يعاب به، أو لأن رسول الله ﷺ قال له: " أنت عتيق الله من النار " (رواه الترمذي: كتاب المناقب، وانظر ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/٥٨-٦٠، ابن الجوزي: صفة الصفوة ١/١٢٣، ابن الأثير: أسد الغابة ٣/٢٠٤، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٣، النووي: تهذيب الأسماء واللغات ٢/١٨١)

(٢) ابن الأثير: السابق ٣/٢٠٥، ورواه الطبراني وابن عساكر ونظر السيوطي: السابق ٣٦

(٣) روى الحاكم في مستدركه والطبراني في الأوسط والدارقطني أن الله تعالى هو الذي سمى أبا بكر بالصديق (راجع السيوطي: السابق ص ٣٦)

(٤) الحمالة هي الدية.

ولم يصدقوه^(١)، وكان رجلاً تاجراً مثقف الفكر عالماً بالأنساب وأخبار العرب رغباً عن الدنيا؛ عفيف النفس، حُرْم على نفسه الخمر في الجاهلية^(٢)، رآه ابن الدُّغْنَةَ - سيد الأحابيش بمكة - وهو يتأهب للهجرة إلى الحبشة بعد أن آذاه قومه وضيقوا عليه، فقال: ولم؟ والله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدوم، ارجع فأنت في جوارحي، فرجع إلى مكة؛ ثم ما لبث بعد يسير أن ردَّ على الرجل جواره لما حاول أن يضيق عليه سبيل الدعوة إلى الإسلام، والتأثير في قريش^(٣).

إسلامه وسيرته:

كان أبو بكر أول من أسلم من الرجال^(٤)، وكان إسلامه نسيجاً وحده، فقد روى ابن إسحق بسنده أن رسول الله ﷺ قال: " ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد؛ إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة؛ ما عكَم عنه حين ذكرته له؛ وما تردد فيه " ^(٥) ..

(١) ابن الأثير: السابق ٢٠٥/٣، رقيق العظم: أشهر مشاهير الإسلام ص ١٨

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢٥٨/١، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٨، رقيق العظم: السابق ص ٢٠

(٣) ابن هشام: السابق ٣٥٥/١، والأحابيش هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والهون بن خزيمة ابن مدركة، وبنو المصطلق من خزاعة، تحالفوا جميعاً فسموا الأحابيش للحلف والاجتماع (السابق ١ / ٣٥٥-٣٥٤)

(٤) قيل إنه أول من أسلم مطلقاً (ابن سعد: الطبقات الكبرى ٦١/٣، ابن الأثير: السابق ٢٠٥/٣، ٢٠٨، ابن الجوزي: صفة الصفوة ١٢٤، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٠-٤١)، وقيل: بل كان أول من أسلم خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ، ثم علي بن أبي طالب ربيبه، ثم زيد بن حارثة مولاه، ثم أسلم أبو بكر (ابن هشام: السيرة النبوية ٢٥٠/١-٢٥٨)، وجمع السيوطي بين هذه الأقوال بأن أبا بكر أول من أسلم من الرجال، وأن علياً أول من أسلم من الصبيان، وأن خديجة أول من أسلم من النساء، وأن زيدا أول من أسلم من الموالى، وذكر أن أول من جمع هذا الجمع هو الإمام أبو حنيفة رحمه الله (تاريخ الخلفاء ص ٤١)

(٥) ابن هشام: السابق ٢٥٩/١، ومعنى عكَم (وفي رواية ابن الأثير: أسد الغابة ٢٠٥/٣-٢٠٦: عكَم): تأخر وتلبث (ابن منظور: لسان العرب ٤١٦/١٢، مادة: ع ك م)

وانطلق أبو بكر داعيًا إلى الدين الجديد فأخلص الدعوة وانتقى الرجال؛ فأسلم بدعوته عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، فكانوا جميعًا من عمدة الإسلام والدعوة ومن المبشرين بالجنة^(١)..

ووضع أبو بكر جميع ماله وإمكاناته هو وأسرته تحت تصرف رسول الله ﷺ؛ فأنفق جُلَّ ثروته في نصرته الإسلام واستنقاذ المستضعفين من المؤمنين بمكة، فكان له يوم أسلم من المال أربعون ألفًا أنفقها بمكة في سبيل الله؛ حتى لم يبق منها سوى خمسة آلاف؛ ثم كان يفعل فيها بالمدينة مثلما كان يفعل بمكة^(٢).. ولما ندب رسول الله ﷺ أصحابه إلى النفقة وتجهيز الجيوش لموقعة تبوك سنة ٩ هـ جاءه أبو بكر بماله كله؛ فقال له: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله^(٣).. وقد شهد رسول الله ﷺ له بذلك الفضل فقال: " ما نفعتي مال قط ما نفعتي مال أبي بكر"، فبكى الصديق يومئذ وقال: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟^(٤)..

وأصاب أبا بكر ما أصاب المسلمين بمكة من أذى وتضييق واضطهاد؛ من ذلك أنه لما أسلم طلحة بن عبيد الله التيمي على يد أبي بكر أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية . وكان من طغاة أهل مكة؛ يدعى: أسد قريش . فشدهما في حبل واحد؛ فلم تمنعهما بنو تيم؛ ولذلك سُمِّي أبو بكر وطلحة القرينين^(٥)، غير أن ذلك لم يحل بينه وبين أن يدفع عن رسول الله ﷺ الأذى بكل سبيل، وقد رُوِيَ عن علي

(١) ابن هشام: السابق ٢٥٩/١-٢٦٠

(٢) ابن سعد: السابق ٦٢/٣، ابن الأثير: السابق ٢٢٢/٣

(٣) وجاء عمر يومذاك بنصف ماله وهو يرى أنه سيسبق اليوم أبا بكر، فلما رأى صنيعه قال: لا أسبقه إلى شيء أبدًا، رواه الترمذي: كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦٧٥، وقال حديث حسن صحيح.

(٤) رواه أحمد بإسناده عن أبي هريرة (المسند ٢/٢٥٣، ٣٦٦)

(٥) ابن سعد: السابق ١١٦/٣

بن أبي طالب ﷺ وصفه أبا بكر بأنه أشجع الناس في دفاعه عن رسول الله ﷺ (١) ..

وكان أبو بكر صاحب رسول الله ﷺ في هجرته إلى المدينة، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وكان بيت الصديق أبي بكر مستقرًا كله لإنجاح هذه الهجرة على ما هو معروف ومدون في كتب السيرة والتاريخ..

وتزوج رسول الله ﷺ ابنته عائشة رضي الله عنها، فزادته المصاهرة قربًا ومكانة، وشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، فكانت له فيها اليد البيضاء والأثر الجليل.. وثبت يوم أحد ويوم حنين وقد فرّ الناس؛ وكان ابنه عبد الرحمن يوم بدر مع المشركين، فلما أسلم قال لأبيه: "لقد أهدفت لي يوم بدر؛ فانصرفت عنك، ولم أقتك"، فقال له أبو بكر: "لكنك لو أهدفت لي لم أنصرف عنك!" (٢) ..

وعظمت محبة رسول الله ﷺ له، فإنه لما سئل عن أحب الرجال إليه قال: أبو بكر (٣) .. وهو ﷺ القائل: "إن من أممّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته" .. وأدرك صحابة النبي ﷺ هذه المكانة العالية للصديق، فكانوا هم أيضًا لا يعدلون به أحدًا؛ روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر قال: كنا نخير بين الناس في زمن النبي ﷺ فخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ﷺ (٤) .. وحتى عند المقارنة بعمر بن الخطاب كانت لأبي بكر المكانة العظيمة، فتروي كتب الحديث أن أبا بكر جاء يومًا مسرعًا إلى رسول الله ﷺ وقد بدا عليه الغضب فقال:

(١) البزار: المسند ١٥/٣، وانظر السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٤

(٢) السيوطي: السابق ص ٤٣، ومعنى أهدفت: أشرفت وبرزت، ومنه قيل للبناء المرتفع: هدف..

(٣) البخاري السابق كتاب فضائل الصحابة رقم ٣٦٦٢، مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٢٣٨٤

(٤) البخاري: السابق كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ رقم ٣٦٥٥، وانظر الحديث رقم ٣٦٩٧.

إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء (وفي بعض الروايات: محاورة) فأسرعت إليه (أي قلت له قولاً أَعْضبه) ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى عليّ، فأقبلت إليك، فقال ﷺ: يغفر الله لأبي بكر، ثلاثاً، ثم إن عمر قد ندم فأتى منزل أبي بكر فلم يجده، فأتى إلى النبي ﷺ فسلم فجعل وجه النبي ﷺ يتمر (أي يتغير من الغضب) حتى أشفق أبو بكر؛ فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله ﷺ والله أنا كنت أظلم، مرتين، فقال النبي ﷺ إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي، مرتين، فما أؤذي بعدها (١) ..

ثانياً: إشارات من الرسول ﷺ باستخلاف أبي بكر:

اختلف العلماء حول وجود نص صريح من رسول الله ﷺ عن استخلاف أبي بكر، فمنهم من رأى في بعض الأحاديث نصاً على ذلك، مثل ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف (٢)، وإنه متى يقيم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، فقلت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقيم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقال رسول الله ﷺ: إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس، فلما دخل في الصلاة وجد رسول الله ﷺ من نفسه خفة فقام يهادي بين رجلين، ورجلاه تخطان في الأرض، فلما دخل المسجد وسمع أبو بكر حسه ذهب يتأخر، فأومأ إليه رسول الله ﷺ: قم مكانك، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس عن يسار أبي بكر، فكان رسول الله ﷺ

(١) السابق كتاب فضائل الصحابة رقم ٣٦٦١، ٤٦٤٠.

(٢) أي: رقيق القلب سريع البكاء عند قراءة القرآن (ابن سلام: غريب الحديث ١/١٦٠، ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث ١/٤٨)

يصلي بالناس جالسًا، وأبو بكر قائمًا، يقتدي أبو بكر بصلاة النبي ﷺ، ويقتدي الناس بصلاة أبي بكر (١) ..

وروى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها في مرض وفاته: "لقد هممت . أو أردت . أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد، أن يقول القائلون، أو يتمنى المتمنون، ثم قلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون " (٢) .. وروى مسلم ما يقارب ذلك (٣).

وروى البخاري ومسلم وغيرهما أن امرأة من الأنصار أتت النبي ﷺ فكلمته في شيء، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: أرأيت يا رسول الله إن لم أجدك؟ - كأنها تعني الموت - قال: إن لم تجديني فأتي أبا بكر (٤) ..

وروى البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري ؓ قال: خطب النبي ﷺ فقال: إن الله خير عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده؛ فاختر ذلك العبد ما تَمَّ الله، فبكى أبو بكر ؓ، فقلت في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ إن يكن الله خير عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختر ما تَمَّ الله، فكان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا، قال: يا أبا بكر لا تبك؛ إن أمنَّ الناس عليَّ في صحبتته وماله أبو

(١) البخاري: الصحيح، كتاب الأذان، حديث رقم ٦٦٤، وانظر أرقام ٦٧٨، ٦٧٩، ٣٣٨٤، ٣٣٨٥، مسلم: الصحيح، كتاب الصلاة رقم ٤١٨، ٤٢٠، وقد فسرت عائشة مراجعتها النبي ﷺ بأنها خشيت ألا يحبَّ الناس من يقوم مقام رسول الله، أو يتشاءموا به، كما في رواية مسلم الأولى، وأحمد: المسند ٢٢٩/٦، لكنها لم تصرح بذلك؛ واحتجت بأنه رجل أسيف، ولذا شبهه الرسول ﷺ بأنهن كصواحب يوسف؛ يظهرن خلاف ما في نفوسهن (راجع: ابن حجر: فتح الباري ١٧٩/٢-١٨٠، المباركفوري: تحفة الأحوذى ١٠/١٠٨)

(٢) صحيح البخاري، كتاب المرضى، حديث رقم ٥٦٦٦، كتاب الأحكام، حديث رقم ٧٢١٧

(٣) مسلم: السابق، كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٣٢٨٧

(٤) البخاري: السابق، كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٣٦٥٩، كتاب الأحكام حديث رقم ٧٢٢٠، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، حديث رقم ٧٣٦٠، مسلم: السابق، كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢٣٨٦، الترمذي: السابق كتاب المناقب حديث رقم ٣٦٧٦، الطبراني: المعجم الكبير حديث رقم ١٥٥٧

بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر^(١)، وقد رأى بعض شراح الحديث في الأمر بالإبقاء على باب أبي بكر إشارة إلى الخلافة، أي ليخرج من بابه إلى الصلاة بالمسلمين في المسجد^(٢)..

وروى الشيخان عنه ﷺ: "بينما أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو؛ فنزعت منها ما شاء الله؛ ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذنوبًا أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف، والله يغفر له ضعفه^(٣)، ثم استحالت غريبًا، فأخذها ابن الخطاب، فلم أرَ عبقرًا من الناس ينزع نزع عمر؛ حتى ضرب الناس بعطن^(٤)"

ومن الروايات الحديثية الأخرى التي لم ترد في صحيح البخاري ومسلم ما رواه أحمد وأبو داود والطبراني والحاكم وصححه عن عبد الله بن زمعة قال: لما استُعز برسول الله ﷺ. وأنا عنده في نفر من المسلمين. دعا بلال للصلاة؛ فقال ﷺ: مروا من يصلي بالناس، فخرجت؛ فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائبًا، فقلت: قم يا عمر فصلِّ بالناس، فقام، فلما كبر عمر سمع رسول الله ﷺ صوته، وكان عمر رجلًا مجهرًا، فقال رسول الله ﷺ: فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون، فبعث إلى أبي بكر فجاء، بعد أن صلى

(١) البخاري: السابق، كتاب الصلاة باب الخوخة والممر في المسجد، حديث رقم ٤٦٦، ٤٦٧، الترمذي:

السابق، باب مناقب أبي بكر، حديث رقم ٣٦٧٨، الدارمي: السنن ١/٥١، ابن حبان: السابق

١٥/٢٧٢، حديث رقم ٦٨٥١، الهيثمي: موارد الظمان ١/٥٣٢

(٢) ابن حجر: فتح الباري ١/٦٦٦، ابن كثير: البداية والنهاية ٣/٢٩٣

(٣) قال العلماء في المراد بضعفه، رضي الله عنه: إنها كناية عن قصر مدته، وعجلة موته، وشغله

بحرب أهل الردة عن الفتوح العظام التي بلغها عمر في خلافته (ابن حجر: فتح الباري ٧/٤٤).

(٤) البخاري: السابق، كتاب فضائل الصحابة رقم ٣٦٦٤، ٧٠٢١، ٧٠٢٢، ٧٤٧٥، مسلم: السابق،

كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عمر رضي الله عنه، حديث رقم ٢٣٩٢، ومعنى القليب: البئر،

والذنوب: الدلو الكبيرة إذا كان فيها الماء، ومعنى غريبًا: أي دلوا عظيمة، والعطن: مناخ الإبل إذا

شربت ثم صدرت (راجع: ابن حجر: السابق ٧/٤٧-٤٨)

عمر تلك الصلاة، فصلى بالناس..(١) .. وقد رأى بعض العلماء في الحديث دليلاً على خلافة أبي بكر، وذلك أن قوله: ياأبي الله ذلك والمسلمون "معقول منه أنه لم يرد به نفي جواز الصلاة خلف عمرؓ، فإن الصلاة خلف عمر ومن دونه من المسلمين جائزة، وإنما أراد به الإمامة التي هي دليل الخلافة والنيابة عن رسول الله ﷺ في القيام بأمر الأمة " (٢) ..

وروى أحمد وغيره عن أبي بكر قال كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا الحسنة فيسأل عنها فقال ذات يوم: أيكم رأى رؤيا؟ فقال رجل: رأيت كأن ميزاناً من السماء؛ فوزنت وأبو بكر فرجحت بأبي بكر، ووزن أبو بكر بعمر فرجح أبو بكر بعمر، ثم وُزن عمر وعثمان فرجح عمر بعثمان، ثم رفع الميزان فاستاء لها رسول الله ﷺ، فقال: " خلافة نبوة ثم يؤتي الله الملك من يشاء " (٣) ..

في حين احتج القائلون بعدم وجود نص صريح على استخلاف أبي بكر بما رواه البخاري وغيره عن ابن عباس أن علي بن أبي طالب خرج من عند رسول الله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ﷺ قال: أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه،

(١) أحمد: المسند، ٣٢٢/٤، ١٠٦/٦، أبو داود: السنن ٢١٥/٤، ٢١٦ حديث رقم ٤٦٦١، ٤٦٦٠، الطبراني: المعجم الأوسط ١١/٢-١٢، حديث رقم ١٠٦٥، الحاكم: المستدرک ٧٤٣/٣، حديث رقم ٦٧٠٣

(٢) محمد شمس الحق العظيم آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود ٢٧٢/١٢

(٣) أحمد: المسند ٤٤/٥، ٥٠، فضائل الصحابة ٣٨١/١، حديث رقم ٥٧٣، أبو داود: السنن ٢٠٨/٤، حديث رقم ٤٦٣٥، ابن أبي شيبة: المصنف ١٧٦/٦، الطيالسي: المسند ١١٦/١، حديث رقم ٨٦٦

فأوصى بنا، فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ (١).

وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر أن عمر لما طعن قيل له: ألا تستخلف يا أمير المؤمنين؟ قال: إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني؛ أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني؛ رسول الله ﷺ (٢).

وروى النسائي أنه قد سئلت عائشة: من كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلف؟ قالت: أبو بكر، ثم قيل لها: من بعد أبي بكر؟ قالت: عمر، ثم قيل لها: من بعد عمر؟ قالت: أبو عبيدة بن الجراح، ثم انتهت إلى ذا (٣).

وروى الحاكم وغيره أنه قيل لعلي بن أبي طالب ﷺ: استخلف علينا، فقال ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف، ولكن إن يرد الله بالناس خيراً جمعهم على خيرهم؛ كما جمعهم بعد نبيهم ﷺ على خيرهم (٤). وهناك روايات أخرى عند أحمد وغيره عن علي ﷺ تؤكد ما سبق (٥)..

آراء العلماء حول دلالات النص على الاستخلاف:

تعددت رؤى العلماء إزاء دلالة الروايات التي تثبت استخلاف أبي بكر أو تنفيها، ويلخص ابن حزم هذه الآراء بقوله: " قد اختلف الناس في هذا، فقالت طائفة

(١) البخاري: السابق، كتاب المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته، حديث رقم ٤٤٤٧، كتاب الاستئذان حديث رقم ٦٢٦٦، أحمد: المسند ٢٦٣/١، ٣٢٥، البيهقي: السنن الكبرى ١٤٩/٨، وقوله: "عبد العصا" كناية عن أنه سيصير تابعاً لغيره ...

(٢) البخاري: السابق، كتاب الأحكام، حديث رقم ٧٢١٨، مسلم: السابق، كتاب الإمارة، حديث رقم ١٨٢٣، الترمذي: السابق، كتاب الفتن، حديث رقم ٢٢٢٥، البيهقي: السابق ١٤٨/٨

(٣) النسائي: فضائل الصحابة ٣٠/١، النووي: شرح النووي على صحيح مسلم ١٥٤/١٥

(٤) الحاكم: السابق ٨٤/٣، حديث رقم ٤٤٦٧، ابن أبي عاصم: السنة ٥٥١/٢-٥٧٥، البزار: المسند ١٨٦/٢،

حديث رقم ٥٦٥، البيهقي: السابق ١٤٩/٨، الاعتقاد ٣٥٧/١، الهيثمي: مجمع الزوائد ٤٧/٩

(٥) المسند ١١٤/١، حديث رقم ٩٢١، عبد الله بن أحمد: السنة ٥٦٦/٢، وفي إسناده رجل لم يسمه، وانظر

الدارقطني: العلل ٨٣/٤-٨٧، ابن أبي حاتم: العلل ٣٧٤/٢-٣٧٥

إن النبي ﷺ لم يستخلف أحداً، ثم اختلفوا فقال بعضهم: لكن لما استخلف أبا بكر ﷺ على الصلاة كان ذلك دليلاً على أنه أولاهم بالإمامة والخلافة على الأمور، وقال بعضهم: لا، ولكن كان أبينهم فضلاً، فقدموه لذلك، وقالت طائفة: بل نص رسول الله ﷺ على استخلاف أبي بكر بعده على أمور الناس نصاً جلياً.. وبهذا نقول " (١) ..

واحتج ابن حزم على وجود النص الجلي على استخلاف أبي بكر ببعض الأحاديث التي سبق بيانها، كما احتج بإجماع الصحابة على تسمية أبي بكر خليفة رسول الله (٢)، فضلاً عن دلالة بعض الآيات القرآنية (٣) ..

ورد ابن حزم على الروايات الصحيحة التي وردت عن عمر وعائشة والتي تنص على أن رسول الله ﷺ لم يستخلف، فقال إنه من المحال أن يعارض إجماع الصحابة بمثل هذين الأثرين الموقوفين على عمر وعائشة، فقد تكون الأحاديث الدالة على الاستخلاف قد خفيت على عمر، كما خفيت عليه بعض الأحاديث الأخر، أو أنه أراد نفي حدوث استخلاف لأبي بكر بنص مكتوب، أما قول عائشة بنفي الاستخلاف " فالحجة في روايتها لا في قولها " (٤)، يعني روايتها أحاديث الاستخلاف الصحيحة السابق بيانها..

كما رد ابن حزم على القائلين بأن أبا بكر "إنما قدمه المسلمون لأنه كان أفضلهم وحكم الإمامة أن يكون في الأفضل"، واحتجاجهم على ذلك بامتناع الأنصار عن بيعته أول الأمر، فقال: " وهذا لا حجة لهم فيه، بل بعضه عائد عليهم؛ لأن الأنصار لم يكونوا لتركوا رأيهم . وهم أهل الدار والمنعة والسابقة الذين

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٠٧/٤

(٢) السابق ١٠٧/٤ - ١٠٨، الإحكام في أصول الأحكام ٢٤/٧

(٣) الفصل ١١٠-١٠٩/٤

(٤) السابق ١٠٩/٤

لم يبالوا بمخالفة أهل المشرق والمغرب، وحاربوا جميع العرب حتى أدخلوهم في الإسلام طوعاً وكرهاً . إلا لنص من النبي ﷺ " (١) ..

ويتفق **ابن حجر الهيثمي** مع رؤية ابن حزم، فيسوق الأدلة على استخلاف أبي بكر من الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة والضعيفة أيضاً (٢) ، ويقف **الإمام النووي** في الجهة المقابلة لأنصار النص الصريح، فيرى أن خلافة أبي بكر ليست بنص صريح من النبي ﷺ، " بل أجمعت الصحابة على عقد الخلافة له، وتقديمه لفضيلته، ولو كان هناك نص عليه أو على غيره لم تقع المنازعة من الأنصار وغيرهم أولاً، ولذكر حافظ النص ما معه، ولرجعوا إليه، لكن تنازعوا أولاً، ولم يكن هناك نص، ثم اتفقوا على أبي بكر واستقر الأمر" (٣) .. وأما قوله ﷺ: "فإن لم تجدني فأتي أبا بكر"، فليس فيه نص على خلافته، وأمر بها، بل هو إخبار بالغيب الذي أعلمه الله تعالى به" (٤) ..

وينفي **فخر الدين الرازي** وجود نص على أبي بكر (٥) .. كما يؤكد **الشهرستاني** عدم وجود نص صريح على أحد، وذلك في رده على ادعاءات الشيعة بوجود النص على استخلاف علي، ويقول: "إن من المحال من حيث العادة أن يسمع الجُم الغفير كلاماً من رسول الله ﷺ ثم لا ينقلونه؛ مع مظنة الحاجة إليه، وعصيان الأمة بمخالفته، والدواعي بالضرورة تتوفر على النقل، خصوصاً وهم في نأنة الإسلام وطراوة الدين وصفوة القلوب وخلوص العقائد عن الضغائن والأحقاد... وإذا كانت الدواعي على النقل موجودة، والصوارف عنه مفقودة، ولم ينقل، دل على أنه لم يكن في الباب نص أصلاً، وأيضاً لو عين شخصاً لكان

(١) الإحكام ٤٢٥/٧

(٢) الصواعق المحرقة ٤٩/١-٥٠، ٦١-٦٤، ٦٦، ٧١

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥٤/١٥

(٤) السابق ١٥٥/١٥، وانظر ٢٠٦/١٢

(٥) أصول الدين ١٦٥-١٦٦

يجب على ذلك الشخص المعين أن يتحدى بالإمامة، ويخاصم عليها، ويخوض فيها، حتى إذا دُفِعَ عن حقه سكت، ولزم بيته، فيظهر الظالم عليه، ولم ينقل أن أحدًا تصدى للإمامة وادعاها نصًا عليه، وتسليمًا إليه..^(١)

وينفي ابن كثير وجود النص الصريح على أبي بكر أو غيره، "ولكن أشار إشارة قوية يفهمها كل ذي لب وعقل إلى الصديق"^(٢)..

ويؤكد القرطبي أنه لا يوجد نص جلي؛ "وهذا قول جمهور أهل السنة، واستند من قال إنه نص على خلافة أبي بكر بأصول كلية وقرائن حالية تقتضي أنه أحق بالإمامة وأولى بالخلافة"^(٣)..

أما ابن تيمية فينظر في النصوص بنظرته الثاقبة؛ ثم يقول: "والتحقيق أن النبي ﷺ دل المسلمين على استخلاف أبي بكر، وأرشدهم إليه بأمر متعددة من أقواله وأفعاله، وأخبر بخلافته إخبار راض بذلك، حامد له، وعزم على أن يكتب بذلك عهدًا، ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه، فترك الكتاب اكتفاءً بذلك"^(٤).. وقال ابن تيمية: "فخلافة أبي بكر الصديق دلت النصوص الصحيحة على صحتها وثبوتها ورضا الله ورسول الله ﷺ له بها، وانعقدت بمبايعة المسلمين له، واختيارهم إياه اختيارًا استندوا فيه إلى ما علموه من تفضيل الله ورسوله، وأنه أحقهم بهذا الأمر عند الله ورسوله، فصارت ثابتة بالنص والإجماع جميعًا، ولكن النص دل على رضا الله ورسوله بها، وأنها حق، وأن الله أمر بهذا وقدرها، وأن المؤمنين يختارونها، وكان هذا أبلغ من مجرد العهد بها"^(٥).. لقد جمع ابن تيمية بذلك بين دلالة النصوص الصحيحة ودور الأمة في الاختيار، يقول: "فالله ولاه قدرًا وشرعًا،

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام ٤٨١

(٢) البداية والنهاية ٣١٨/٣

(٣) ابن حجر: فتح الباري ٣٧/٧ ونسب ذلك إلى القرطبي في كتابه "المفهم"

(٤) منهاج السنة ٥١٦/١-٥١٧

(٥) السابق ٥٢٤/١، وانظر ٥٢٥/١

وأمر المؤمنين بولايته، وهداهم إلى أن ولوه من غير أن يكون طلب ذلك لنفسه" (١) ..

الخلاصة:

والذي نطمئن إليه بعد النظر في النصوص وأقوال العلماء ما يلي:
أولاً: إنه لا سبيل إلى إهمال هذه النصوص الصحيحة الواردة في شأن اختيار أبي بكر خليفة، ولا إلى إهمال دلالتها، وأنه لا أحد من علمائنا القدامى أنكر وجودها؛ وإن اختلفوا حول مدى دلالتها على الأمر باستخلافه..

ثانياً: إن بعضهم بالغ في فهم دلالة هذه النصوص؛ فرأى فيها أمراً صريحاً باستخلاف أبي بكر، كما فعل ابن حزم وابن حجر الهيتمي، ويمكن أن نفهم هذه المبالغة على أنها رد فعل على تشبث الشيعة بدعوى الوصية لعلي بن أبي طالب، وزعمهم أن تلك الوصية دين لا يحل تركه، وطالما اختلطت آراء المتكلمين في استخلاف أبي بكر بأرائهم عن ادعاءات الشيعة في أحقية علي.. ولو كان ثمة نص جلي لكان قد شاع وعلمته الكافة؛ وإلا انتفت الحكمة من وجوده، ولو كان كذلك لما وقع الخلاف بين الصحابة أول الأمر حول من يستخلفونه؛ ولانقادوا إلى ذلك النص، بل لما كانت هناك حاجة إلى اجتماع السقيفة أصلاً، والآراء التي نوقشت فيه (٢) ..

ثالثاً: إن جمهور علماء أهل السنة . وكذلك المعتزلة والخوارج . لا يقولون بالنص الصريح على استخلاف أبي بكر (٣)، ويفهمون النصوص الواردة على أنها "إشارات قوية" إلى استخلافه، أو "قرائن حالية" تقتضي أنه أحق بها، أو إخبار بالغيب الذي سوف يقع باستخلافه، أو بيان لأفضلية الصديق، وأنه أحق الناس بخلافة

(١) السابق ٥٢/٢

(٢) راجع د. محمد سليم العوا: في النظام السياسي للدولة الإسلامية ٨٤-٨٥

(٣) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٣٧/٧، ابن حجر الهيتمي: الصواعق المحرقة ٦٩/١

المسلمين، وقد فسر بعضهم لجوء النبي ﷺ إلى التلميح دون التصريح بأنه "كان لا ينطق في دين الله بهواه، ولا ينطق إلا بما يوحى إليه فيه، قال الله عز وجل: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)^(١)، ولم يكن يوحى إليه في الخلافة شيء، وكان لا يتقدم بين يدي ربه في شيء، وكان يحب أن يكون أبو بكر الخليفة بعده، فلما لم ينزل عليه في ذلك وحي لم يأمر بذلك، ولكنه أراه موضع الاختيار، وموضع إرادته، فعرف المسلمون ذلك منه، فبايعوا أبا بكر بعده^(٢)..

رابعاً: تنبئ عبارات ابن تيمية عن فهم عميق ورؤية صافية، حيث ينظر إلى النصوص على أنها موحية باستخلاف أبي بكر ومرشدة إليه، ودليل على أن استخلافه حق يرضى عنه الله ورسوله، غير أنه يقرر أهمية دور الأمة في جلاء حيث يرى أن النبي ﷺ عدل عن العهد المباشر لأبي بكر " لتكون الأمة هي القائمة بالواجب، ويكون ثوابها على ذلك أعظم.."^(٣).

خامساً: إن بعض الاتجاهات الفكرية قد تركت أثرها على نظر بعض العلماء إلى أمر استخلاف أبي بكر، فقد كان ابن حزم ظاهري المذهب؛ لا يؤمن بالقياس في النظر الفقهي، ولذا فقد نفى أن يكون استخلاف أبي بكر قد تم قياساً على استخلافه في الصلاة، واحتج لرأيه بأن أبا بكر لم يستحق وصف "الخليفة" في حياة النبي ﷺ لما كان خليفته على الصلاة، ولأن النبي ﷺ قد استخلف عدداً من الصحابة على المدينة في غزواته، فكانوا خلفاء على الصلاة والأحكام بها، فلم يستحق أحدهم بذلك أن يسمى خليفة رسول الله، ولم يطلق على أحدهم وصف " الخليفة" الذي أجمع الصحابة على وصف الصديق به، والذي يدل دلالة واضحة . فيما يرى . على أن النبي ﷺ قد استخلف أبا بكر، فلفظة "خليفة" فعيلة بمعنى مفعولة، ولا يصح أن تكون بمعنى فاعلة، ولذا فهي تعني أن أبا بكر قد استخلفه

(١) سورة النجم الآيتان ٣، ٤

(٢) ابن عبد البر: التمهيد ١٢٥/٢٢

(٣) منهاج السنة ٣٥٠/٧

الرسول بالفعل، لا أنه خلفه دون أن يستخلفه، "لا يجوز غير هذا البتة في اللغة"^(١)..

فأما استدلاله بإطلاق وصف "ال خليفة" على ثبوت الاستخلاف للصديق فهي حجة نازعه فيها غيره ممن يرى أن لفظ الخليفة "يقال لمن استخلفه غيره؛ ولمن خلف غيره، فهي فعيل بمعنى فاعل"^(٢)، كما أنها بمعنى مفعول، وأما إنكاره قياس الخلافة العظمى على الخلافة في الصلاة فقد رد عليه جماعة من أكابر العلماء؛ وخالصة ردودهم أن ملابسات استخلافه على الصلاة، وكونها قد جاءت في أخريات حياة النبي ﷺ وهو يشارف الموت، مع ما للصلاة من مكانة في دولة الإسلام، وإصرار النبي ﷺ على إمامة أبي بكر لها، ورفضه إمامة عمر في إحدى المرات. كما مر بنا. تلك الملابسات^(٣) هي التي جعلت القياس هنا متبادراً إليه منذ زمن الصحابة أنفسهم، وقد روى أحمد والنسائي والحاكم عن ابن مسعود قال: ثم لما قبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار: منا أمير، ومنكم أمير، قال: فأتاهم عمر رضي الله عنه، فقال: يا معشر الأنصار أستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر يؤم الناس؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر رضي الله عنه؟ فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر^(٤).. وينسبون إلى علي بن أبي طالب أنه قال: "إن نبيكم ﷺ نبي الرحمة لم يقتل قتلاً، ولم يمت فجأة، مرض ليالي وأياماً، يأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة، وهو يرى مكاني، فيقول: أتت أبا بكر فليصل بالناس، فلما قبض رسول الله ﷺ نظرت في أمري؛ فإذا الصلاة عظم الإسلام، وقوام

(١) الفصل ٤/١٠٧-١٠٨، الإحكام ٧/٤٢٣-٤٢٤

(٢) ابن تيمية: السابق ١/٥٠٨

(٣) راجع: المحب الطبري: الرياض النضرة ٢/١٧٣-١٧٤، ويحاول الشيعة أيضاً التهوين من أمر استخلاف أبي بكر على الصلاة (محمد رضا المظفر: السقيفة ٥٠-٥٣)

(٤) أحمد: المسند ١/٢١، ٣٩٦، النسائي: السنن، كتاب الإمامة رقم ٧٧٧، الحاكم: المستدرک ٣/٧٠، حديث رقم ٤٤٢٣، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وذكره ابن شيبه: المصنف ٢/١١٨

الدين، فرضينا لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا، فبايعنا أبا بكر"، لكن إسناده إلى عليّ لا يصح^(١)، وفيما ورد من الأخبار الصحيحة في ذات الموضوع ما يعني عن الاحتجاج بغيرها..

سادسًا: إن أحدًا من علمائنا القدامى لم ينكر دور الأمة في استخلاف أبي بكر، حتى أنصار النص الصريح، فقد تحدث هؤلاء عن إجماع الأمة على أحقية أبي بكر بالخلافة وأفضليته.. لكن بعضهم يرى أن الإجماع قد تحقق لوجود النص، وفي ضوءه، لا استقلالاً عنه.. ومؤدى ذلك . فيما يرون . أن ما حدث من تنازع محدود في سقيفة بني ساعدة إنما كان للجهل بالنص الصريح الذي لم يكن عامًا يعلم به جميعهم، ولم يكن مكتوبًا، وقد رأينا أن ذلك غير مسلم لهم به، بل إن بعض ما استشهدوا به من نصوص على استخلاف أبي بكر يدل على أن ذلك الاستخلاف سوف يكون بإرادة الأمة، ويجب أن يتم برضاها، من ذلك قوله ﷺ: "يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر"، وقول أبي بكر لمن حضر السقيفة: "وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم"، يعني: عمر وأبا عبيدة، والدلالة أشد وضوحًا في الأحاديث التي تنفي وجود نص جليّ؛ كقول عليّ للعباس: "والله لئن سألتنا رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده" ..

وفي أقوال ابن حزم . وهو من أبرز القائلين بالنص الصريح . ما يؤكد أنه نظر إلى استخلاف أبي بكر على أنه حالة خاصة، إذ أعقب وفاة النبي ﷺ وكانت أول تجربة استخلاف عامة في الإسلام، كما ورد بشأن أبي بكر أحاديث تخص الرضا باستخلافه أو النص عليه، أما الأصل العام الذي يقول به ابن حزم، والذي يصلح للأمة بعد غياب هؤلاء الأئمة الأعلام الذين قد ترد بشأنهم أحاديث نبوية فهو وجوب ممارسة الأمة حقها في الاختيار، يقول: "فلو قام اثنان فصاعدًا معًا

(١) الخلال: السنة ٢٧٤/١، وقال: إسناد هذا الحديث لا يصح، ابن عبد البر: التمهيد ١٢٩/٢٢، النووي: تهذيب

الأسماء ٤٨٠/٢، وانظر: المحب الطبري: السابق ١٧٧/٢

(أي يطلبان الخلافة) في وقت واحد، ويُؤس من معرفة أيهما سبقت بيعته نُظر أفضلهما وأسوسهما فالحق له، ووجب نزع الآخر... فإن استويا في الفضل فُدم الأسوس... (١)

ولا شك أن إدراك حق الأمة في اختيار خلفائها . كميون أساسي من مكونات النظام السياسي الإسلامي . قد أسهم في استمرار صلاحيته على امتداد الزمان؛ بعد وفاة كبار الصحابة، وغياب أثر النصوص التي قد ترد بشأنهم..

ثالثاً: وفاة النبي واستخلاف أبي بكر رضي الله عنه:

روى الطبري عدة روايات عن كيفية استخلاف أبي بكر رضي الله عنه، غير أن أغلبها منقطع الإسناد، أو مطعون في رواته، وما تحويه من عناصر صدق جاءت به كتب الحديث الصحيح على نحو دقيق، لذلك آثرنا الاعتماد على روايات الحديث الصحيحة، مع الاستئناس بما صح من روايات التاريخ..

وقد روى البخاري بسنده عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبو بكر بالسُّنْح (٢)، فقام عمر فقال: والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان عمر يقول فيما بعد: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك . وليبعثته الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم؛ فجاء أبو بكر فاستوثق من وفاته صلى الله عليه وسلم، ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر؛ فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات؛ ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقرأ قوله تعالى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) (٣) وقوله: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى

(١) الفصل / ١٧٠

(٢) موضع في عوالي المدينة كان بينه وبين المسجد النبوي نحو ميل (ابن حجر: فتح الباري ٣٦/٧)

(٣) سورة الزمر: آية ٣٠

عَقَبِيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ^(١)، فنشج الناس ليكون، واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة زعيم الخزرج^(٢) في سقيفة بني ساعدة^(٣)، فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلم، فأسكته أبو بكر - وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أنني قد هيأت كلامًا قد أعجبنني، خشيت ألا يبلغه أبو بكر - ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس، فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، فقال حباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: لا ولكننا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب دارًا؛ وأعربهم أحسابًا^(٤)، فبايعوا عمر أو أبا عبيدة بن الجراح، فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس، فقال قائل: قتلت سعد بن عبادة، فقال عمر: قتله الله..

(١) سورة آل عمران: آية ١٤٤

(٢) هو سعد بن عبادة بن دُلَيْم بن حارثة زعيم الخزرج؛ أحد الاثنى عشر نقيبًا يوم بيعة العقبة الثانية، شهد المواقع كلها خلا بدر، ففي شهوده إياها خلاف، وكان صاحب راية الأنصار فيها، وأحسن صحبة رسول الله ﷺ، وتوفي في الشام بحوران سنة ١١ أو ١٤ أو ١٥ أو ١٦ هـ، وتتجه معظم الروايات إلى أنه مات في أوائل خلافة عمر (١٣-٢٣ هـ)، وعليه فإن التاريخ الأول لا يصح (راجع في ترجمته: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/٦١٣-٦١٧، ابن الجوزي: صفة الصفوة ١/٥٠٣-٥٠٥، ابن الأثير: أسد الغابة ٢٢١-٢٢٤، ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/٥٩٤-٥٩٩، النووي: تهذيب الأسماء ١/٢٠٧، الذهبي: سير أعلام النبلاء ١/٢٧٠-٢٧٩، ٢٨١، ابن حجر: الإصابة ٦٦/٣)

(٣) هي ظلة كانت لبني ساعدة؛ بطن من بطون الخزرج، وكانت تقع في الشمال الغربي من المسجد النبوي قريبًا منه (راجع: محمد حسن شراب: المدينة النبوية ١٧/٢).

(٤) أعربهم أحسابًا: أي أعظم العرب أصالة، وأشبههم بشمائل العرب الأصلاء وأفعالهم (راجع: ابن منظور: لسان العرب ١/٥٨٨)

وذكرت عائشة أن خطبتي أبي بكر وعمر قد نفع الله بهما، لقد خوَّف عمر الناس، وإن فيهم نفاقاً، فردَّهم الله بذلك، ثم لقد بصَّر أبو بكر الناس الهدى؛ وخرجوا يتلون قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) (١) ..

وروى البخاري وغيره عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في آخر حجة حجها سمع أن رجلاً يقول: لو قد مات عمر بايعت فلاناً، فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة (٢) فتمت، فغضب عمر، لكنه تريث حتى قدم المدينة، فقام خطيباً فكان مما قاله.. ثم إنه بلغني أن فلاناً منكم يقول: "والله لو قد مات عمر بايعت فلاناً"، فلا يغترنَّ امرؤ أن يقول: "إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت"، ألا وإنها كانت كذلك؛ ولكن الله وقى شرها، وليس منكم من تُقَطع الأَعناق إليه مثل أبي بكر (٣)، من بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرّة أن يُقتل (٤)، وذكر خبر وفاة النبي صلى الله عليه وآله واجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة؛ وأنه قال لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار؛ فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجالاً صالحان (٥)، فذكرنا ما تملاً عليه القوم؛

(١) البخاري: السابق كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٣٦٦٧، ٣٦٦٨، ٣٦٦٩، ٣٦٧٠

(٢) الفلتة: الفجأة، (ابن سلام: غريب الحديث ٣/٣٥٦، ابن منظور: لسان العرب ٢/٦٧)، وتطلق أيضاً على كل شيء فُعل أو قيل على غير روية وتثبت (ابن قتيبة: غريب الحديث ١/٥٠٦، ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٤٦٧)

(٣) تقطع الأَعناق إليه يعني: السابق الذي لا يلحق في الفضل (ابن حجر: فتح الباري ١٢/١٦٥).

(٤) تغرّة مصدر من أغررته تغريراً أو تغرّة، والمعنى أن من فعل ذلك فقد غرر بنفسه وبصاحبه وعرضهما للقتل (ابن حجر: السابق ١٢/١٦٥)، وقيل: بل المراد أن عقوبتهما أن لا يؤمر واحد منهما (ابن سلام: غريب الحديث ٣/٣٥٥)، وكان في ذلك قتلاً لهما ..

(٥) هما كما يقول ابن إسحاق: عويم بن ساعدة الأوسي (شهد بيعتي العقبة ومات في خلافة عمر، راجع عنه ابن الأثير: أسد الغابة ٤/١٥-١٦) ومعن بن عدي (حليف بني عمرو بن عوف، شهد العقبة والمشاهد كلها، وقتل في معركة اليمامة سنة ١١هـ زمن أبي بكر، راجع السابق ٤/٤٤٥) وراجع ابن هشام: السيرة النبوية ٤/٢٣١

فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار؛ فقالا: "لا عليكم ألا تقربوهم، اقضوا أمركم"، فقلت: "والله لنأتينهم"، فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة؛ ثم ذكر قول خطيب الأنصار: "أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دقت دافقة^(١) من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا؛ وأن يحضنونا من الأمر^(٢)، ثم ذكر أن أبا بكر تكلم، فكان هو أحلم مني وأوقر، ... فقال: ". ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هو أوسط العرب نسبا ودارا^(٣)، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين؛ فبايعوا أيهما شئتم"، فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننا، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فنضرب عنقي - لا يقربني ذلك من إثم - أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسؤل إلي نفسي عند الموت شيئا لا أجده الآن، فقال قائل من الأنصار: "أنا جُذيلُها المُحَكِّكُ وعُدَيْقُها المُرَجَّبُ^(٤)، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش"، فكثرت اللغط وارتفعت الأصوات؛ حتى فرقت من الاختلاف، فقلت: "ابسط يدك يا أبا بكر"، فبسط يده، فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة^(٥)، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة، فقلت: قتل الله سعد بن عبادة، قال عمر: فوالله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر؛ خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلاً

(١) يعني: جاءنا عدد قليل، ويطلق على السير البطيء في جماعة (ابن حجر: السابق ١٢/١٦٧)

(٢) وفي رواية: وأن يختصونا، والمعنى: يخرجونا منه ويحبسوناه عنه (السابق والصفحة)

(٣) أي أشرفهم نسبا ودارا، لشرف قريش، وشرف البلد الحرام

(٤) الجذيل بالتصغير: عود ينصب للإبل الجرياء لتحتك به، والعذيق تصغير عذق وهو النخلة، والمرجّب بناء يساعد النخل إذا كثرت حملته (الزمخشري: الفائق في غريب الحديث ١/٢٠١، ابن منظور:

لسان العرب ١/٤١٢)

(٥) نزونا: أي ارتفعنا عليه ووطئناه

منهم بعدنا؛ فإما بايعناهم على ما لا نرضى؛ وإما نخالفهم فيكون فساداً، فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يُبايع هو ولا الذي بايعه تغرّة أن يُقتل^(١)..

لقد قدم هذان الحديثان صورة كلية لما جرى في سقيفة بني ساعدة، بينما قدمت أحاديث أخرى بعض التفاصيل، كأن تنسب قولاً معيناً أو تصرفاً إلى إحدى الشخصيات المشاركة، وسوف نعرض لبعض هذه الأحاديث عند عرض النظرة التحليلية لما حدث في السقيفة ودلالاتها.

وتنوعت روايات المؤرخين عن السقيفة، فشملت روايات صحيحة وضعيفة، وأخرى جمعت بين عناصر الصحة والضعف، وقد تأتي الروايات الصحيحة والضعيفة متعاقبة في الصفحة الواحدة، على عادة كثير من المؤرخين الذين يؤثرون حشد الروايات على دراستها وتمحيصها^(٢)، أما الصحيح منها فكان تكراراً لروايات الحديث السابقة^(٣)، وكان بعضها الآخر موسوماً بالخلل في بنائه الداخلي، أو بالضعف الناشئ عن انقطاع السند، حيث تروى واقعة السقيفة عن أفراد لم يدركوها، كما أن بعض رواة هذه الأخبار متهمون بالتشيع والكذب، مثل هشام بن الكلبي، وأبي مخنف لوط بن يحيى، وقد جاءت تلك الروايات مسهبة تحكي كثيراً من التفاصيل، وتذكر من الأقوال ما يصعب القطع بصحة نسبته

(١) وراجع الحديث في صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، حديث رقم ٦٨٣٠، وانظر أحمد: المسند ٥٥، ٥٦/١، ابن حبان: الثقات ١٥٢/٢-١٥٦، صحيح ابن حبان ١٤٨/٢-١٥١، عبد الرزاق: المصنف ٤٣٩/٥-٤٤٥، المتقي الهندي: كنز العمال، المجلد الخامس، حديث رقم ١٤١٣٤، ١٤١٣٧

(٢) ومن الأمثلة على ذلك ما فعله الطبري في كتابه: تاريخ الرسل والملوك ٢٠٠/٣-٢١١، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٢٧١/٢٠-٣٠٦، وبرهان الدين الحلبي في كتابه: السيرة الحلبية ٤٧٩/٣-٤٩٠

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٢٢٩/٤-٢٣١، الطبري: السابق ٢٠٣/٣-٢٠٦، ابن الأثير: الكامل ١٨٩/٢-١٩١، ابن عساكر: تاريخ دمشق ٢٧٩/٢٠-٢٨٥، ابن الجوزي: صفة الصفوة ١٣٢/١-١٣٣، ابن كثير: البداية والنهاية ٣١١/٣-٣١٤، السيوطي: تاريخ الخلفاء ٦٧-٦٨

إلى أصحابه^(١)، كما أن بعضها يخالف ما في الصحيح كزعم سيف بن عمر أن سعد بن عبادة بايع مجبرًا، وهو على الأرجح لم يبايع^(٢).. كما سنرى.

كما أن وفرة التفصيلات في معظم روايات التاريخ بالمقارنة بروايات الحديث فتحت الباب واسعًا لبيان الانفعالات البشرية؛ في موقف من مواقف التنافس الذي يحدد المستقبل السياسي للأمة وفصائلها، وهي انفعالات لا تعبر بالضرورة عن حقيقة العلاقة بين المهاجرين والأنصار، تلك العلاقة الحميمة التي وصفها الله تعالى بقوله: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا، وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(٣).. لقد كانت هناك اختلافات في الرؤى بين قيادات المهاجرين والأنصار في اجتماع السقيفة، وتباينت طرق المؤرخين والمحدثين في التعبير عنها، فأسهب المؤرخون في تصويرها وتجسيمها، والتزيد فيها، فأضفى ذلك على رواياتهم لونًا من الحيوية والحركة المشكوك في صحتها، بينما جاءت الرواية الحديثية في ذلك الشأن مختصرة، تحفظ لهؤلاء الصحابة الكبار أقدارهم، وترد أمر الانفعال والحدة إلى حالة من الغضب الطارئ.

نظرة تحليلية لواقعة استخلاف أبي بكر رضي الله عنه:

إن النظرة العلمية المتكاملة ينبغي أن تشمل جميع الروايات، ثم تنقدها لننفي زيفها، ثم نفيد مما بقي من روايات غير زائفة في بناء أَدْنَى التصورات الصحيحة للأحداث قبل تحليلها. وإذا نظرنا فيما سبق من أحاديث صحاح، وما

(١) الطبري: السابق ٢١٨/٣-٢٢٣، ابن الأثير: الكامل ١٩١/٢-١٩٤

(٢) الطبري: السابق ٢٢٣/٣

(٣) سورة الحشر: آية ٩

وافقها من روايات التاريخ، التي تلقي تفصيلاتها مزيدًا من الأضواء على الحدث التاريخي، فإنه يتضح لنا عدة أمور تخص واقعة السقيفة واستخلاف الصديق:

١- كانت وفاة رسول الله ﷺ صدمة كبيرة للمسلمين جعلت عمر بن الخطاب - على عظيم قدره وقوة نفسه - يقف مشدوهاً منكرًا مهددًا من يزعم أن رسول الله ﷺ قد مات، حالفًا على ما ظنه يقينًا من أنه ﷺ ما زال حيًّا؛ وأنه سيعود فيقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات^(١)..

٢- كان أبو بكر أعلم الصحابة برسول الله ﷺ وأقربهم إليه، وكانت مكانته العالية عند الصحابة ترشحه لإفاقة من ذهل، وردَّ من غيبتة الصدمة، وكانت وسيلته إلى ذلك تنكير المسلمين ببعيدتهم الحقة في الله ورسوله، وأنه بشر تجري عليه نواميس الكون من الموت والحياة، وتلا عليهم آيات من القرآن؛ بكل ما للقرآن من سلطان على نفوس هؤلاء الصحابة، فقال: "من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات؛ ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت" وقرأ قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ..) فانقادت للقرآن نفوسهم؛ ونشجوا يبكون، حتى روى ابن إسحاق بسنده عن أبي هريرة قوله في تصوير حالهم تلك: "فوالله لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ؛ وأخذها الناس عنه؛ وإنما هي في أفواههم، أما عمر ﷺ فقد قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت^(٢)، حتى وقعت على الأرض، ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات^(٣).. وعلى كلٍ فقد نفع

(١) ابن هشام: السابق ٢٢٧/٤، وقد فسر عمر موقفه في حديث له فيما بعد مع عبد الله بن عباس ؓ فقال: إن الذي حمله على ذلك أنه كان يقرأ قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) فيظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها (راجع: السابق ٢٣٢-٢٣٣ والآية من سورة البقرة ١٤٣)

(٢) عقرت: دهشت فلم أستطع التقدم أو التأخر (ابن سلام: غريب الحديث ٣٩٨-٣٩٩)

(٣) ابن هشام: السابق ٢٢٨/٤

الله تعالى بمقولة عمر كما نفع بخطبة أبي بكر، فقد حوّفت الأولى المنافقين المتربصين؛ وبصّرت الثانية المؤمنين الذاهلين ..

٣- إن المسلمين - رغم عظم مصيبتهم في وفاة رسول الله ﷺ - لم يشغلهم ذلك عن النظر في مستقبلهم والحزم في أمرهم، وقد "كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة"^(١)، وهم يعلمون أن وفاة رسول الله ﷺ أمر جلل، له ما بعده من تأثيرات خطيرة في حياتهم وحياة العرب الذين دخلوا قريباً في الإسلام، فلم يستقر بعد في قلوبهم، وتطمئن إليه نفوسهم، وكانت نذر الخطر الداخلي تبدو في أخريات حياة النبي ﷺ نفسه، لما وردت الأنباء بادعاء الأسود العنسي النبوة في اليمن، وتنبؤ مسيلمة في بني حنيفة باليمامة^(٢)، كما كانت نذر للخطر الخارجي ماثلة بين أعينهم في تهديدات الفرس وخطر الروم^(٣)، وكان أول ما ينبغي أن يشغل المسلمين في هذا الوقت العصيب هو أمر خلافة النبي ﷺ، وهي خلافة في الحكم وسياسة الدولة^(٤)؛ لا في النبوة

(١) الطبري: السابق ٢٠٧/٣

(٢) السابق ١٨٠/٤-١٨١

(٣) بدا خطر الفرس قوياً لما مزق كسرى رسالة النبي ﷺ إليه سنة ٧هـ، وأرسل إلى عامله على اليمن ليرسل رجلين جليدين من عنده إلى رسول الله ﷺ ليأتيه بخيره، فأذهب الله ذلك الخطر بهلاك كسرى ودخول البلاد في سلسلة من الاضطرابات الداخلية (ابن سعد: السابق ٣٦٧/١-٣٧٨)، أما الروم فقد واجههم النبي ﷺ في أكثر من موقعة من أشهرها مؤتة سنة ٨هـ وتبوك سنة ٩هـ، وكان ﷺ قد جهز جيشاً لغزو الروم بقيادة أسامة بن زيد؛ إلا أنه ﷺ أدركته الوفاة قبل إنفاذه.

(٤) قال ابن خلدون في معنى "الخلافة": "هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخرى والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به" (المقدمة ٥٧٨/٢)، وعقد القلقشندي فصلاً "في معنى الخلافة" في مقدمته لكتابه "مآثر الإنافة في معالم الخلافة" ٨/١ وما بعدها.. ومن أبرز من كتب في ذلك الموضوع من المحدثين د. عبد الرزاق السنهوري في كتابه: "فقه الخلافة" وتطورها لتصبح عصباً أمم شرقية" راجع الفصل الثاني من الباب التمهيدي.

والرسالة؛ إذ كان محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين^(١)؛ فاجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة للتباحث في الأمر..

٤- غير أن ذلك الاجتماع في سقيفة بني ساعدة شابهُ نوع من التعجل القلق من جانب الذين تداعوا إليه من الأنصار، إذ لم يكن رسول الله ﷺ قد دُفن بعد، وكان أبو بكر ممن اشتغل بتجهيزه لدفنه ﷺ. فهو صاحبه الأثير وحموه. مع آخرين من بني هاشم رهط رسول الله ﷺ كعليّ والعباس بن عبد المطلب^(٢)، فلما وصل خبر اجتماع الأنصار إلى عمر بن الخطاب ﷺ بادر إلى أبي بكر ﷺ فأعلمه بما كان، ورغم انشغال الرجلين بما نزل بهما من أمر رسول الله ﷺ إلا أنهما بادرا - ومعهما أبو عبيدة بن الجراح - إلى لقاء الأنصار في سقيفة بني ساعدة.. ومن الواضح أن هؤلاء النفر من كبار المهاجرين كانوا يؤثرون التريث حتى يدفن النبي ﷺ، وتكتمل دعوة أهل الحل والعقد من الصحابة للنظر في أمر الخلافة، ومما يؤكد ذلك ما ورد في بعض روايات البخاري عن عمر ﷺ قال: فبينما نحن في منزل رسول الله ﷺ إذا برجل ينادي من وراء الجدار: اخرج إليّ يا ابن الخطاب، فقلت: إليك عني فإني مشغول، قال: اخرج إليّ فإنه قد حدث أمر؛ وإن الأنصار اجتمعوا، فأدركوهم قبل أن يحدثوا أمراً يكون بينكم فيه حرب، فأتار ذلك مخاوف عمر^(٣)، فسارع إلى أبي بكر. وفق روايات أخرى. ليخرج إليه، فقال: إني مشتغل، فأعلمه بما حدث، فمضيا نحو السقيفة، فلحقيا أبا عبيدة فكان ثالثهما؛ فساروا جميعاً^(٤)، وعلى ذلك يجب أن نستبعد ما يرويه الشهرستاني دون إسناد من أن أبا بكر خطب المسلمين عقب

(١) قال تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) الأحزاب: الآية ٤٠

(٢) راجع: ابن هشام: السابق ٢٣٣/٤

(٣) ابن حجر: فتح الباري ١٥٦/١٢

(٤) راجع: الطبري: السابق ٢١٩/٣، ابن حبان: الصحيح ١٥٥/٢

وفاة نبيهم ﷺ فقال: " من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات.."، ثم زاد فقال: " وإن محمدًا قد مضى بسبيله، ولا بد لهذا الأمر من قائم يقوم به، فانظروا وهاتوا آراءكم؛ رحمكم الله.. فناداه الناس من كل جانب: " صدقت يا أبا بكر، ولكننا نصبح وننظر في هذا الأمر ونختار من يقوم به.."(١) ..

٥- إن هذه العجلة من الأنصار في الاجتماع والتشاور حول من يخلف رسول الله ﷺ كانت لها دلالتها كما كانت لها نتائجها؛ فهي تدل على ما كان يتخوفه الأنصار من المستقبل القريب والبعيد؛ فقد انتهت معاناتهم من الفرقة والاحتراب الداخلي بالإسلام ورسوله ﷺ فلقوا عنده الكرامة والخطوة؛ ولقي منهم النصر والبذل؛ حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، ففتحت مكة بعد عنادها؛ وكثر المؤمنون من شتى قبائل العرب؛ ومنها قبائل غاية في القوة والمنعة؛ على رأسها قريش؛ وكان الناس في الإسلام يكثرون ويقبل الأنصار بمضي الزمن، مما أثار مخاوفهم؛ وبخاصة بعد غياب شخص رسول الله ﷺ الذي استعلى بطبيعته ورسالته على كل استقطاب قبلي.. فحدا بهم ذلك إلى سرعة الاجتماع ليختاروا من بينهم الخليفة الجديد؛ لا خطأ من شأن الآخرين، وسلبًا لحقهم في الاختيار والمشاورة؛ ولكن تعبيرًا عن مخاوف مشروعة، واستباقًا لخروج السلطة السياسية إلى يد من يخشون خلافته..

لقد عبّر الأنصار عن مخاوفهم بقولهم - كما في رواية البخاري -: " وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دقت دافة منكم؛ فإذا هم يريدون أن يخزلونا من أصلنا.."، بل إننا لنجد أصل هذا التخوف على مستقبل الأنصار عند رسول الله ﷺ نفسه، حيث قال في آخر خطبة له - في مرض وفاته - بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أما بعد، فإن الناس يكثرون، ويقبل الأنصار، حتى يكونوا

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام ص ٤٧٩

في الناس بمنزلة الملح في الطعام، فمن ولي منكم شيئاً يضر فيه قومًا، وينفع فيه آخرين، فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم" (١).

٦- وقد عبر بعض الناس عن شعوره بهذه العجلة في اجتماع السقيفة بغير دعوة جميع أهل الحل والعقد فيها، فقال في خلافة عمر: "لو قد مات عمر بايعت فلانًا؛ فوالله ما كانت البيعة لأبي بكر إلا فلتة فتمت" .. ولم ينفِ عمر رضي الله عنه. وهو يحذر خطورة ذلك الرأي . أن البيعة كانت فلتة؛ بمعنى أنها وقعت من غير مشاورة مع جميع من ينبغي أن يشاور (٢)، في مثل تلك "الوقائع العظيمة التي ينبغي للعقلاء التروي في عقدها لعظيم المتعلق بها" (٣)، وقد شرح أسبابها، ودوافع التسرع فيها، وكيف أن المهاجرين الحاضرين لم يجدوا بداً من المسارعة ببيعة أبي بكر استباقاً لما أراده الأنصار من بيعة سعد بن عباد، فكان الأمر "مراعاة لمصلحة المسلمين، وخشية اضطراب أمر الأمة" (٤).

وقد أوضح عمر أن ما تم لا يعني أن اختيار الصديق كان في غير محله، أو من غير أهله؛ وإن تم بصورة مفاجئة بغير إعداد واستكمال للمشاورة، ثم وافقت الأمة على اختياره إثر ذلك.. وكانت شخصية أبي بكر وأهليته وسابقته وعطاؤه وإمامته المسلمين في صلاتهم إبان مرض نبيهم صلى الله عليه وسلم هو ما رشحه للخلافة، وجمع حوله القلوب؛ وهي مزايا لم يكن أحد يماثله فيها، أو

(١) البخاري: السابق كتاب المناقب، حديث رقم ٣٨٢٨

(٢) كما قال الداودي من شراح البخاري، وقال ابن حبان: معناه أن ابتداءها كان على غير مأل كثير، والشيء إذا كان كذلك يُقال له: الفلتة، فيتوقع فيه ما لعله يحدث من الشر، بمخالفة من يخالف في ذلك عادة، فكفى الله المسلمين الشر المتوقع في ذلك (ابن حجر: فتح الباري ١٢/١٦٥)، وقال الشهرستاني (السابق ٤٨٣) يعني أنني بايعت أبا بكر وما شاورت الجماعة، ووقى الله شرها، فلا تعودوا لمثلها.

(٣) المحب الطبري: الرياض النضرة ٢/٢٠٨-٢١٠

(٤) السابق ٢/٢١٠-٢١١، القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل ج ٢٠ ق ١ ص ٢٨٦

يطاوله إليها، وقد عبر عمر عن ذلك بقوله . كما في رواية البخاري السابق
نكرها :. "وليس منكم من تُقَطع الأَعناق إليه مثل أبي بكر"
وكان من نتائج هذه المسارعة في بيعة الصديق أن تخلف عنها نفر
من المهاجرين والأنصار أول الأمر؛ ليس غصًا من شأن أبي بكر؛ بل لأن
الأمر قد تم في غيبتهم، كما سيأتي بيانه..

٧- كانت معالجة الأنصار مخاوفهم المستقبلية من خلال إجماعهم أول الأمر
على أن تكون الخلافة فيهم، وعلى اختيار سعد بن عبادة زعيم الخزرج ليكون
أول الخلفاء^(١)، ويبدو أن ذلك الإجماع لم يكن كاملاً ولا مستقرًا، إذ سرعان ما
ترادوا الكلام فيما بينهم؛ فتساءلوا: فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا: نحن
المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون؛ ونحن عشيرته وأولياؤه، فعلام تنازعونا
هذا الأمر بعده؟ فقالت طائفة منهم: فإننا نقول إذن: منا أمير ومنكم أمير، ولن
نرضى بدون هذا الأمر أبدًا، فقال سعد بن عبادة حين سمعها: هذا والله أول
الوهن^(٢).. وكان ما أدركه سعد صحيحًا؛ إذ كان ذلك يحمل بدايات التنازل
عن مطلب الأنصار، والشك في منطلقهم، وأنهم ليسوا صفاً واحداً في حركتهم،
وربما كان سعد يطمح إلى حسم اختياره خليفة للمسلمين في ذلك الاجتماع،
بينما كان بعض الأنصار يستشعرون أن هدف اجتماعهم ينبغي أن يكون
ترشيح سعد للخلافة، ثم إشراك المهاجرين في مرحلة تالية في ذلك الاختيار..

٨- ومما يعزز القول بأن معسكر الأنصار لم يكن صفاً واحداً أن اثنين من كبار
رجالهم - هما: عويم بن ساعدة ومعن بن عدي - التقيا في طريقهما بوفد
المهاجرين الذاهب إلى اجتماع الأنصار، فكانت نصيحتهم للمهاجرين: "لا
عليكم ألا تقرّبوهم؛ اقضوا أمركم".. بل إن الانشقاق الأول في معسكر

(١) الطبري: السابق ٢١٨/٣

(٢) السابق ٢١٨/٣-٢١٩

الأنصار بالسقيفة جاء من داخل الخزرج أنفسهم - رهط سعد بن عبادة المرشح للخلافة - فقام بشير بن سعد أحد الخزرجيين الكبار فقال: "يا معشر الأنصار؛ إنا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربنا، وطاعة نبينا، والكبح لأنفسنا؛ فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك؛ ولا نبتغي به من الدنيا عرضًا، فإن الله وليّ المنّة علينا بذلك، ألا إن محمدًا ﷺ من قريش؛ وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لا يراني الله أنزعهم هذا الأمر أبدًا، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم"، فلما ذهب عمر وأبو عبيدة لبيابعا أبا بكر سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه، فناداه الحباب بن المنذر - أحد قادة الخزرج المنافحين عن اختيار سعد بن عبادة - فقال: "ما أحوجك إلى ما صنعت؟ أنفست على ابن عمك الإمارة؟" فقال: لا والله، ولكني كرهت أن أنزع قومًا حقًا جعله الله لهم^(١).. إن هذا يؤكد أنه لم تكن ثمة رغبة عند جميع الأنصار في استبعاد المهاجرين من دائرة اختيار الخليفة، أو إنكار حقهم في ذلك، لقد كانت بينهم تيارات تحمل قدرًا من التباين في الرؤى، وليس الأمر كما تصور بعض المستشرقين وغيرهم من مؤرخينا الذين تحدثوا عن تطلع الأنصار إلى التحرر من سلطان المهاجرين^(٢) أو أن دوافع قبلية أو قومية كانت وراء تحركهم السريع^(٣)، أو أن تفكيرهم في صورته الأولى كان يدور في نطاقهم وحدهم، ويتغافل لفترة عن الجماعة الكبرى التي كانوا جزءًا منها^(٤)، إن معطيات الحوار الذي دار بين الأنصار أنفسهم؛ وبينهم وبين المهاجرين لا يدل على أن هذه الانعزالية كانت سمًا عامًا لتفكيرهم..

(١) الطبري: السابق ٢٢١/٣

(٢) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٨٣

(٣) د. عبد الحميد بخيت: عصر الخلفاء الراشدين ص ٣٨، ٤٠-٤١

(٤) د. محمد حلمي: الخلافة والدولة في العصر الأموي ص ٢٢

٩- وربما كان الخلاف القديم - الذي خُصِدَ الإسلام شوكته - بين الأوس والخزرج مما حدا بالأوس إلى الحذر من استخلاف زعيم الخزرج، ولما رأوا ما صنع بشير بن سعد، وما تدعو إليه قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض: "والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة؛ ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبًا أبدًا، فقوموا فبايعوا أبا بكر، فقاموا إليه فبايعوه، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم"^(١).

إن الاعتراف بوجود آثار لذلك الخلاف القديم بين الأوس والخزرج. وإن ظل محاصرًا مدانًا. أمر يمكن الاستدلال عليه^(٢)، أما المبالغة في تصور وجوده وتأثيره^(٣) فتخالف حقيقة الأمر وأخوة الدين..

١٠- كان مؤتمر السقيفة مؤتمرًا شوريًا رائعًا، أعلن فيه كلا الفريقين وجهة نظره، مقدمًا الحجج المؤيدة لها؛ فذكر الأنصار فضلهم وقالوا: "نحن أنصار الله وكتيبة الإسلام.."، ثم أعلنوا تصورهم للخلافة ورشحوا لها سعد بن عبادة، فلما رأوا معارضة المهاجرين قالوا: "منا أمير ومنكم أمير"، وردّ المهاجرون بإبطال ذلك؛ فقال عمر رضي الله عنه: هيهات؛ لا يجتمع اثنان في قرن^(٤)، وفي بعض روايات البخاري أنه قال: "سيفان في غمد؟ إذن لا يصلحان"^(٥)، وهل يجتمع أميران في الحكم إلا ومعهما احتمالات التنازع والشقاق!؟

(١) الطبري: السابق ٢٢١/٣-٢٢٢

(٢) مثل تلك الملاحظة التي حدثت بين سعد بن معاذ، سيد الأوس، وسعد بن عبادة زعيم الخزرج بشأن موقف عبد الله بن أبي الخزرجي في حادثة الإفك (راجع البخاري: الصحيح، حديث رقم ٤١٤١)

(٣) مثلما يفعل الشيعي رضا المظفر: السقيفة ١٠٢، وانظر: الجاحظ: البيان والتبيين ٢٩٧/٣-٢٩٨

(٤) الطبري: السابق ٢٢٠/٣

(٥) ابن حجر: السابق ١٢/١٦٨

ثم قدّم المهاجرون تصوّرهم البديل؛ فقال أبو بكر رضي الله عنه: " .. ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا" وأكد عمر على ذلك بقوله: "والله لا ترضى العرب أن يؤمّروكم ونبئها من غيركم، ولكن العرب لا تمنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم، ووليّ أمورهم منهم، ولنا بذلك على من أبي من العرب الحجة الظاهرة، والسلطان المبين^(١)، وفي رواية الزهري أن أبا بكر قال في خطبته: "ولن نصلح العرب إلا برجل من قريش، فالناس لقريش تبع"^(٢).

لقد كان من الضروري استصحاب السبق الإيماني، والواقع العملي، والإلف القبلي . ما لم يخالف مقتضى الإسلام . جنبًا إلى جنب مع التذكير بمعنى حديث النبي صلى الله عليه وآله: "إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبّه الله على وجهه ما أقاموا الدين"^(٣)، وحديث: "الأئمة من قريش"^(٤)، كما احتج المهاجرون بأن رسول الله صلى الله عليه وآله "أوصانا بأن نحسن إلى محسنكم؛ ونتجاوز عن مسيئكم، ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم"^(٥)، وجاء الاحتجاج بمكانة أبي بكر ومآثره التي لا يشاركه فيها أحد ليحقق الغلبة لمنطق

(١) الطبري: السابق ٢٢٠/٣

(٢) ابن حجر: السابق ٣٥/٧

(٣) البخاري: الصحيح، كتاب المناقب، رقم ٣٥٠٠، وقال ابن حجر: "فإن الخلافة لم تنزل في قريش، والناس في طاعتهم، إلى أن استخفوا بأمر الدين؛ فضعف أمرهم وتلاشى" (فتح الباري ٦/٦١٨)، وهو قريب من رأي ابن خلدون في أن اشتراط القرشية مرتبط بوجود القوة والعصبية (المقدمة ٢/٥٨٥)

(٤) أحمد: المسند ٣/١٨٣.١٢٩، الحاكم: المستدرک ٤/٨٥، النسائي: السنن ٣/٤٦٧، وذكر بعضهم أن المهاجرين احتجوا بحديث "الأئمة من قريش"، ونفى بعضهم ذلك، إلا أن يكون قصد المثبتين أنهم احتجوا بمعنى الحديث لا نصه، كما في قول أبي بكر: "إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش؛ وقد قال ابن حجر عن هذا الحديث: "ولم يقع في هذه القصة (يعني قصة السقيفة) إلا بمعناه، وقد جمعت طرقه من نحو أربعين صحابيًا؛ لما بلغني أن بعض فضلاء العصر ذكر أنه لم يُروَ إلا عن أبي بكر الصديق" (فتح الباري ٧/٩٣، تلخيص الحبير ٤/٤٢)، وذكر السيوطي أنه حديث متواتر (الأزهار

المتناثرة في الأحاديث المتواترة ٢٤)

(٥) ابن خلدون: المقدمة ٢/٥٨٣

المهاجرين وحجتهم؛ وقد عبر عمر عن انزعاجه الشديد لمّا رشحه الصديق مع أبي عبيدة ليتولى أحدهما الخلافة فقال: "كان والله أن أقدم فتضرب عنقي - لا يقربني ذلك من إثم - أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر"، ومضى عمر يذكر الحاضرين بمكانة أبي بكر فقال: بل نبايعك؛ فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ وقال في رواية ابن إسحاق: "يا معشر الأنصار؛ إن أولى الناس بنبي الله ثاني اثنين إذ هما في الغار"^(١)، وقال أيضًا: "يا معشر الأنصار؛ أستم تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يؤم بالناس؟ فأياكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ فقالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر"^(٢)، وفي بعض الروايات أن عمر أخذ بيد أبي بكر فقال: "من له هذه الثلاثة؟ (إذ هما في الغار) من هما؟ (إذ يقول لصاحبه لا تحزن) من صاحبه؟ (إن الله معنا) مع من؟ ثم بسط يده فبايعه، وبايعه الحاضرون"^(٣)..

١١- كان الصحابة يدركون أصالة حقهم في الشورى، وفي اختيار خليفتهم، كما في قوله تعالى: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)^(٤) وقوله تعالى: (وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ)^(٥). وقد نص على ذلك أبو بكر حين خاطب المجتمعين في السقيفة؛ راجعًا بالأمر إليهم، قائلاً: "ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش..."

(١) ذكر ذلك ابن حجر: فتح الباري ١٢/١٦٩

(٢) رواه أحمد: السابق ١/٢١، حديث رقم ١٣٣، ابن أبي شيبة: المصنف ٧/٤٤٢، الهيثمي: مجمع

الزوائد ٥/١٨٣

(٣) ابن حجر: السابق ٧/٣٦

(٤) سورة آل عمران: من الآية ١٥٩

(٥) سورة الشورى: من الآية ٣٨، وعن أصالة حق الأمة في اختيار خلفائها راجع: د. ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية ١٧٣-١٧٤، وللمقارنة انظر سعدي أبو حبيب: دراسة في منهاج الإسلام السياسي ٧١-٧٥، وهذا بالطبع عند أهل السنة أما الشيعة فيرون ثبوت الإمامة بالنص عليها من الله ورسوله، ويسفّهون مبدأ الاختيار، وينفون وجود رأي للأمة في هذه المسألة التي هي عندهم من أصول الدين (راجع: محمد رضا المظفر: السابق ٣٢-٣٩)

وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم"، يعني عمر وأبا عبيدة، وقول عمر . حسب رواية الطبري : "لن ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم"، وأصرح منه أنه حين علم بمقولة من قال: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة، وإنه إن مات عمر بايع فلانًا، فقام عمر خطيبًا في أهل الرأي والفقهاء بالمدينة، يحذرهم من "هؤلاء الذين يريدون أن يغضبوهم أمورهم"، وأكد أنه من بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي يبايعه، تغرة أن يقتلًا" ..

وكان جلوس أبي بكر الصديق في اليوم التالي لسقيفة بني ساعدة من أجل أن يبايعه المسلمون البيعة العامة دليلاً على احترام إرادة الرعية ذاتها، والمحافظة على مظاهر ذلك الاحترام، فكان مما قاله: "...وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه"، فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة، ثم تكلم أبو بكر فخطب الناس خطابه الشهير الذي أكد فيه حق الأمة في اختيار خلفائها وعزلهم، فقال: أما بعد؛ أيها الناس، فإنني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني.." (١).

رابعاً: من تخلف عن بيعة أبي بكر:

تختلف الروايات فيما بينها اختلافًا عظيمًا بشأن جماعة من كبار الصحابة قيل إنهم تخلفوا - لأمر رؤواها - عن بيعة أبي بكر، وقيل: بل سارعوا إليها بغير معارضة ولا امتناع، وأول هؤلاء سعد بن عباد زعيم الخزرج ومرشحهم للخلافة في مؤتمر السقيفة، وأبرزهم علي بن أبي طالب ومعه الزبير بن العوام وجماعة من بني عبد مناف، وغيرهم.. وقد اهتم العلماء بدراسة ذلك الأمر

(١) ابن هشام: السابق ٢٣٢/٤، الطبري: السابق ٢١٠/٣، ابن حبان: الثقات ١٥٧/٢، المحب الطبري: السابق ٢١٢/٢، وانظر رواية البخاري في البيعة العامة: الصحيح، حديث رقم ٧٢١٩

وتفسيره، ضمن اهتمامهم ببيان ثبوت خلافة أبي بكر؛ وهل كانت بالإجماع أم بموافقة الجمهور.. وسوف نعرض لذلك؛ ثم نتناول دلالة النصوص المتكاملة من الحديث والتاريخ معاً..

أ) حولبيعة سعد بن عبادَة:

لقد مر بنا أن روايات الحديث الصحيح لا تذكر مبايعة سعدٍ لأبي بكر، بعدما فوجئ بالتراجع السريع للأنصار عن بيعته هو، وتحولهم الكامل إلىبيعة أبي بكر، إذ إنها تنتهي عند ذكر قول بعضهم: قتلت سعد بن عبادَة، وقول عمر: "اقتلوه؛ قتله الله"، على سبيل الدعاء عليه، أو التعبير عن سخطه على موقفه من جمع الأنصار؛ وتعجل البيعة؛ دون علم المهاجرين بها، وهو لم يبايع بالقطع في اجتماع السقيفة، إذ انتهى ذلك الاجتماع وقد كادت الناس تطؤه؛ وهي تحتشد على أبي بكر لمبايعته، على النحو السابق بيانه، ولو كان بايع يوم السقيفة لكان أجدر الناس بالاهتمام ببيعته؛ إذ كان المتصدر للبيعة منذ قليل.. ولا تذكر هذه الروايات أنه بايع بعد ذلك، مما يرجح القول بامتناعه عن البيعة، وذلك الذي تؤكد روايات المؤرخين على نحو أكثر تفصيلاً وجلاءً.

فقد ذكر ابن سعد والطبري أن أبا بكر بعث إلى سعد بن عبادَة أن أقبل فبايع؛ فقد بايع الناس وبايع قومك، فقال: "والله؛ لا أبايع حتى أراميك بما في كنانتي، وأقاتلكم بمن تبغني"، فلما جاء الخبر إلى أبي بكر قال بشير بن سعد: "يا خليفة رسول الله؛ إنه قد أبى ولجّ؛ وليس بمبايعكم أو يقتل، ولن يقتل حتى يُقتل معه ولده وعشيرته؛ ولن يُقتلوا حتى تُقتل الخزرج، ولن تُقتل الخزرج حتى تُقتل الأوس، ولا تحركوه، فقد استقام لكم الأمر؛ فإنه ليس بضاركم؛ إنما هو رجل وحده ما تُرك"، فقبل أبو بكر نصيحة بشير، فترك سعدًا، ثم إنه أبىبيعة عمر بعد ذلك؛ وخرج مهاجرًا إلى الشام أول خلافة عمر فمات بها^(١)، ويؤكد المسعودي أن سعدًا

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/٦٣١، الطبري: السابق ٣/٢٢٢، ابن الأثير: أسد الغابة ٢/٢٢٣

خرج من اجتماع السقيفة ولم يبايع، وسار إلى الشام حتى مات هناك^(١).. وذلك ما يقول به أيضًا ابن الأثير و ابن تيمية والمحب الطبري^(٢) وهذا هو ما يتفق مع المعروف من خصال سعد بن عبادة رضي الله عنه، وكانت فيه بعض الحدة، على عظيم قدره، وشريف جهاده، ولعلنا نسترجع في ذلك المقام أن النبي ﷺ نزع من سعد راية الأنصار يوم فتح مكة، لما بلغه أن سعدًا قال - وقد مر به أبو سفيان بعدما أسلم - اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال ﷺ: "كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة"، وأعطى الراية ولده قيس بن سعد^(٣)..

غير أن بعض رواة الحديث والتاريخ يذكرون أن سعدًا بايع أبا بكر، ويكررون في ذلك رواية الإمام أحمد بسنده عن حميد بن عبد الرحمن، وفيها أن أبا بكر قال لسعد يوم السقيفة: "ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر، فَبَرَّ الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم، فقال سعد: صدقت، نحن الوزراء وأنتم الأمراء"^(٤)، وهي رواية مرسله؛ إذ لم يدرك حميد بن عبد الرحمن تلك الواقعة^(٥)، ولا شك أنها تخالف رواية البخاري ومن وافقه، إذ تزعم بيعته يوم السقيفة، وهو ما ظهر ضعفه كما سبق، وتبدو تلك الرواية غريبة بين الروايات الكثيرة التي تدل على أن سعدًا لم يبايع، ولو بايع سعد في مثل

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ٣٠٨/٢

(٢) ابن الأثير: السابق ٢٢٧/٣، ابن تيمية: منهاج السنة ١/٥١٨-٥١٩، المحب الطبري: السابق

٢١٦/٢

(٣) وقيل بل أعطاهما الزبير بن العوام (انظر ابن حجر: فتح الباري ٩/٨، ابن الأثير: أسد الغابة

٢/٢٢٣، ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/٥٩٧-٥٩٨).

(٤) المسند ٥/١، حديث رقم ١٨، وانظر السيوطي: السابق ص ٨٣، الطبري: السابق ٣/٢٠٢-٢٠٣

(٥) اختلف العلماء في المراد بحميد، فذهب بعضهم إلى أنه حميد بن عبد الرحمن بن عوف (السيوطي:

السابق والصفحة) وقال آخرون إنه حميد بن عبد الرحمن الحميري (الطبري: السابق ٣/٢٠٢) وهو تابعي

بصري ثقة (ابن حجر: تهذيب التهذيب ٣/٤١)، ولم يحسم الشيخ أحمد محمد شاكر محقق مسند الإمام

أحمد ذلك الخلاف (المسند ١/٥٦ حاشية ١)

مكانته . وهو زعيم الخزرج وأحد نقبائهم . لشاع الأمر وانتشر، وبخاصة بعدما كان منه يوم السقيفة، وما كان هناك سبيل إلى الاختلاف بين الرواة حول بيعته على نحو ما نرى، مما يجعلنا نرجح أن سعدًا لم يبايع، ويؤيد ذلك أننا لا نجد له ذكرًا فيما تلا البيعة من أحداث جسام كحروب الردة، وبداية حركة الفتوحات الكبرى، ومصادمة فارس والروم..

ووقف رواية آخرون موقفًا متوسطًا، فزعموا أنه بايع كرهًا!! من ذلك ما رواه الطبري عن سيف بن عمر من أن سعدًا أجبر على بيعة أبي بكر، وأنه قال له: إنكم يا معشر المهاجرين حسدتموني على الإمارة، وإنك وقومك أجبرتموني على البيعة، فقالوا: إنا لو أجبرناك على الفرقة فصرت إلى الجماعة كنت في سعة، ولكننا أجبرناك على الجماعة؛ فلا إقالة منها، لئن نزعت يدًا من طاعة، أو فرقت جماعة، لنضربن الذي فيه عيناك^(١).. ويكفي للرد على ذلك أن الإسلام لا يعتد بتصرفات المكروه^(٢).. ولا يغيب مثل ذلك عن كبار الصحابة، وما الحاجة إلى إكراه سعد أو غيره وقد انعقدت البيعة لأبي بكر باتفاق جمهور الصحابة وغالبيتهم، ولا يلزم لها الإجماع بحال.. ولا حاجة إلى العنف مع سعد - على النحو الذي تصوره الرواية - فيستشير ذلك غضب عشيرته وعصبيته، ويفتح بابًا من الشر على المسلمين لا ضرورة له، كما أنه لا خطر منه بعد مبايعة الأنصار جميعًا.. على أننا نجد زعمًا آخر مماثلًا عن إكراه علي بن أبي طالب والزبير بن العوام على البيعة^(٣)، وهو يؤكد الحكم بوضع هذه الروايات، فكيف يُجبر هؤلاء الأعلام على

(١) الطبري: السابق ٢٢٣/٣

(٢) كما يتضح من قوله تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) النحل من الآية ١٠٦، وروى ابن ماجة في سننه (٦٥٩/١)، حديث رقم (٢٠٤٥) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"، وقد حسنه بعضهم وأكثره آخرون (الزليعي: نصب الراية ٦٤/٢، الصنعاني: سبل السلام ١٧٦/٢-١٧٧)

(٣) الطبري: السابق ٢٠٣/٣

ما لا يريدون؟ وكل منهم سيد عظيم؛ له من عشيرته وقومه من لا يقبلون أبدًا بإكراههم والعنف معهم.. وربما أراد بعضهم أن يغض من شأن بيعة أبي بكر فزعم أن بعض الكبراء لم يرض بها إلا مكرهًا، أو أراد أن يحقق الإجماع عليها؛ فلم يجد السبيل إلا في ذلك الزعم الذي يجافي الحقيقة، ويسيء إلى جميع الأطراف..

ب) حول بيعة علي بن أبي طالب ومن وافقه:

أما موقف علي رضي الله عنه ومن وافقه من بني عبد مناف وغيرهم فقد اختلف حوله الرواة اختلافاً عظيماً.

موقف روايات الحديث:

وتؤكد روايات الحديث الصحيح أن علياً لم يبايع أبا بكر إلا بعد وفاة زوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ بعد وفاة أبيها بستة أشهر، بينما ذكرت مرويات أخرى أن علياً بايع مع جموع المسلمين ومعه الزبير بن العوام، وبقية من تخلفوا معه..

فقد روى البخاري عن أم المؤمنين عائشة أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك^(١) وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: "لا نُورث، ما تركنا صدقة"، إنما يأكل آل محمد ﷺ في هذا المال، وإني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله ﷺ عن حالها التي كان عليها في عهد رسول الله ﷺ ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله ﷺ فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك، فهجرت، فلم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد النبي ﷺ ستة أشهر، فلما توفيت دفنها زوجها علي ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر، وصلى عليها، وكان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة، فلما توفيت

(١) فدك: بلد بينها وبين المدينة ثلاث مراحل (ابن حجر: فتح الباري ٦/٢٣٠).

استنكر علي وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته، ولم يكن يبائع تلك الأشهر، فأرسل إلى أبي بكر أن اتتنا، ولا يأتنا أحد معك - كراهية لمحضر عمر - فقال عمر: لا والله لا تدخل عليهم وحدك، فقال أبو بكر: وما عسيئهم يفعلون بي؟ والله لآتينهم، فدخل عليهم أبو بكر، فتشهد عليّ فقال: "إنا قد عرفنا فضلك، وما أعطاك الله، ولم ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك، ولكنك استبددت علينا بالأمر، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ نصيباً"، حتى فاضت عينا أبي بكر، فلما تكلم أبو بكر قال: "والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي، وأما الذي شجر بيني وبينكم من هذه الأموال فلم آل فيها عن الخير، ولم أترك أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيها إلا صنعته، فقال علي لأبي بكر: موعدك العشية للبيعة، فلما صلى أبو بكر الظهر رقي على المنبر، فتشهد، وذكر شأن علي وتخلّفه عن البيعة، وعذّره بالذي اعتذر إليه، ثم استغفر وتشهد علي، فعظّم حق أبي بكر، وحدّث أنه لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر وقال: "ولكننا نرى لنا في هذا الأمر نصيباً فاستبدّد علينا، فوجدنا في أنفسنا"، فسُر بذلك المسلمون، وقالوا: أصبت، وكان المسلمون إلى عليّ قريباً حين راجع الأمر بالمعروف^(١).

ويؤكد البخاري في روايات أخرى في صحيحه حقيقة الخلاف الذي حدث بين أبي بكر وفاطمة وموقف كل منهما على النحو الذي مر بنا..^(٢).

غير أن بعض الروايات وجدت طريقها إلى كتب الحديث تثبت بيعة عليّ والزبير مع جموع المسلمين، فقد روى البيهقي عن الحاكم عن أبي سعيد الخدري أنه لما توفى رسول الله ﷺ قام خطباء الأنصار، فجعل الرجل منهم يقول: "يا

(١) البخاري: الصحيح، كتاب المغازي حديث رقم ٤٢٤٠، ٤٢٤١، وانظر كتاب الفرائض حديث رقم

٦٧٢٥، ٦٧٢٦، ٦٧٢٧

(٢) السابق كتاب فرض الخمس رقم ٣٠٩٢-٣٠٩٣، ٣٠٩٤

معشر المهاجرين إن رسول الله ﷺ كان إذا استعمل رجلاً منكم قرن معه رجلاً منا، فنرى أن يلي هذا الأمر رجلان: أحدهما منكم والآخر منا"، فتتبع خطباء الأنصار على ذلك، فقام زيد بن ثابت فقال: إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، وإن الإمام يكون من المهاجرين، ونحن أنصاره كما كنا أنصار رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر - رضي الله عنه - فقال: جزاكم الله خيراً يا معشر الأنصار، وثبت قائلكم، ثم قال: أما لو فعلتم غير ذلك لما صالحناكم، ثم أخذ زيد بن ثابت بيد أبي بكر فقال: هذا صاحبكم فبايعوه، ثم انطلقوا، فلما قعد أبو بكر على المنبر نظر في وجوه القوم، فلم ير علياً، فسأل عنه، فقام ناس من الأنصار فأتوا به، فقال أبو بكر: ابن عم رسول الله ﷺ وختته، أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ فبايعه، ثم لم ير الزبير بن العوام فسأل عنه حتى جاءوا به، فقال: ابن عمه رسول الله ﷺ وحواريه، فبايعاه..

وقد قال الإمام مسلم عن ذلك الحديث لما سمعه: هذا حديث يسوى بدنة،

فقال ابن خزيمة - أحد رواة الحديث - يسوى بدنة؟ بل يسوى بدرة^(١).

وسر سعادة الإمام مسلم بذلك الحديث أنه يثبت بيعة علي والزبير مع جموع المسلمين، وأنه لم يخالف أحد على أبي بكر، فهو بذلك يبرئ الصحابة مما ظنه جماعة من الرواة نقيصة الاختلاف السياسي.. لكن الإمام مسلم مع ذلك لم يرو ذلك الحديث في صحيحه، لأنه لم يستوف شروط الرواية عنده، وهو يخالف الثابت في صحيح البخاري، وهو الأصح إسناداً وسيافاً.. وسعادة الإمام مسلم بهذا الحديث تشبه سعادة ابن كثير به حين يرى فيه "فائدة جليلة، وهي مبايعة علي بن أبي طالب إما في أول يوم أو في اليوم الثاني من الوفاة.." ^(٢)

(١) البيهقي: السنن الكبرى ١٤٣/٨، الحاكم: المستدرک ٨٠/٣، ويسوى هنا بمعنى يساوي..

(٢) البداية والنهاية ٣١٧/٣

والرواية على هذا النحو لا تفرق بين ما جرى في سقيفة بني ساعدة من حوار وما حدث في اليوم التالي لها في المسجد الجامع لما اجتمع الصحابة للبيعة العامة، وأغلب الظن أنها تبدأ في رواية وقائع البيعة العامة منذ قولها "ثم انطلقوا فلما قعد أبو بكر على المنبر نظر في وجوه القوم.." وتعطي دورًا بارزًا لزيد بن ثابت وهو لم يقدّم دور بارز حتى ذلك الوقت، وبخاصة في هذه المسائل الكبرى، بينما تصمت عن دور زعماء الأوس والخزرج البارزين مثل أسيد بن حضير وبشير بن سعد وغيرهما، ولا تبرر تخلف علي والزبير أولاً ثم مسارعتهم بالبيعة بمجرد استدعاء أبي بكر لهما، ولا تتحدث عن موقف سعد بن عبادته وامتناعه عن البيعة، ولا عن دور عمر بن الخطاب البارز في هذه الأحداث..

وقد ذكر ابن كثير رواية أخرى عن البيهقي أيضاً تتناقض مع تلك الرواية في عدة نقاط: فهي تذكر أن الاجتماع كان أولاً في دار سعد بن عبادته، على خلاف جميع الروايات التي تنص على أن الاجتماع كان في سقيفة بني ساعدة، وتذكر أن عمر بن الخطاب هو الذي رد على خطيب الأنصار، وليس أبا بكر كما في الرواية السابقة، وأن عمر هو الذي أخذ بيد أبي بكر وقال: هذا صاحبكم فبايعوه، وليس زيد بن ثابت، وأن أبا بكر لما تفقد القوم سأل عن الزبير أولاً فجاء فبايعه، ثم تفقدهم فسأل عن علي فبايعه، بينما تذكر الرواية السابقة بيعة علي قبل الزبير^(١)..

وهكذا تتناقض الروايتان في معظم تفصيلاتهما، فضلاً عن مخالفتهما روايات البخاري في صحيحه.. لذا فما في الصحيح أولى، وهناك محاولة للتوفيق بين ما بالحديث الصحيح من تأخر علي عن البيعة ستة أشهر، وما روي في أحاديث أخرى من أنه بايع مسرعاً مع أوائل من بايعوا بأنه بايع مرتين: مرة مع

(١) السابق ٣١٦-٣١٧

الناس أولاً، ثم جدد تلك البيعة بعد موت فاطمة^(١)، لكنها محاولة متكلفة، إذ إن بيعة رجل مثل عليّ ﷺ لا تخفى على الناس حتى يحتاج إلى تجديدها، كما في رواية الحاكم والبيهقي، فالمفترض أنها كانت بالمسجد ضمن البيعة العامة، وشهدها الجميع، وحتى لو جهلها بعض الناس فقد كان يمكنه الإعلان عنها بدل المبايعة من جديد.. وأشد منها تكلفاً قول البيهقي: "والذي روى أن علياً لم يبايع أبا بكر ستة أشهر ليس من قول عائشة؛ إنما هو من قول الزهري، فأدرجه بعض الرواة في الحديث في قصة فاطمة رضي الله عنها، وحفظه معمر بن راشد فرواه مفصلاً، وجعله من قول الزهري منقطعاً من الحديث" ^(٢).. وجوابه: أن معمر بن راشد . وهو الذي روى حديث البخاري عن الزهري عن عروة عن عائشة . قد روى بالفعل عن الزهري رواية مستقلة مؤداها أن رجلاً سأله: "أفلم يبايعه عليّ ستة أشهر؟ قال: لا، ولا أحد من بني هاشم؛ حتى يبايعه عليّ" ^(٣)، وهي التي ذكر البيهقي أنها أدرجت في الحديث الصحيح، وليست منه، بل هي من كلام الزهري، ولكننا قد نفهم تلك الرواية على أنها شرح وتأكيد لرواية عائشة رضي الله عنها، وبخاصة أن الذي يوضح تأخر عليّ في روايتها ليس جملة واحدة . قد يزيدا أحد الرواة . بل إن الرواية كلها قائمة على توضيح تأخره عن البيعة، وبيان سببه، فهي تحكي أن علياً أرسل إلى أبي بكر: أن ائتنا؛ ولا يأتنا أحد معك، ثم مضى يعتذر لأبي بكر، ويذكر سبب تأخره عنه، ثم قال: موعدك العشية للبيعة، ثم تذكر الرواية خطبة كل منهما يعذر الآخر، ثم بيعة عليّ، وفرحة المسلمين بذلك.. فأى جزء من هذه الرواية يمكن تصور إقامه عليها؟؟

(١) البيهقي: الاعتقاد ٣٥٢/١، ابن حجر: فتح الباري ٥٦٦/٧، ابن كثير: السابق ٣١٧/٣

(٢) البيهقي: السابق والصفحة، والحديث المدرج هو أن تزداد لفظة في متن الحديث من كلام الراوي، فيحسبها من يسمعها منه مرفوعة في الحديث، فيرويها كذلك (ابن حجر: نزهة النظر ص ٤٢، أحمد

محمد شاكر: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير ص ٦١)

(٣) الطبري: السابق ٢٠٨/٣

موقف روايات التاريخ:

ذكر بعض الرواة أن الصحابة لما مات رسول الله ﷺ "كروهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة"، فبايعوا أبا بكر، وما خالف منهم أحد، "إلا من ارتد أو من قد كاد يرتد"، وأنه قد "تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم"^(١)، وأن علياً بايع أبا بكر مع أوائل من بايعوا، فروى الطبري عن سيف بن عمر أن علياً كان في بيته، فجاءه خبر جلوس أبي بكر للبيعة، فخرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء، عَجَلًا، كراهة أن يبطن عنها، حتى بايعه، ثم جلس إليه، وبعث إلى ثوبه فاتاه فتجلله، ولزم مجلسه"، وهي رواية مرسله عن حبيب بن أبي ثابت المتوفى سنة ١٢٢هـ^(٢).. وذكر ابن سعد ما يؤكد بيعة علي في رواية مرسله أخرى عن الحسن (البصري التابعي توفي سنة ١١٠هـ) قال: "قال علي: لما قبض النبي ﷺ نظرنا في أمرنا، فوجدنا النبي ﷺ قد قدم أبا بكر في الصلاة، فرضينا لدنيانا من رضي رسول الله ﷺ لدينا، فقدمنا أبا بكر"^(٣).. وإن كانت هذه الرواية تتحدث عن موضوع البيعة . وهو أحقية أبي بكر . لا عن موعدها، فلا جدال في أن علياً بايع ، ولكن الحديث هنا عن تأخره عن البيعة..

وذكر ابن كثير أن علياً بايع مبكرًا فلما حدث الخلاف بين زوجه فاطمة وأبي بكر بسبب ميراث النبي ﷺ "احتاج علي أن يراعي خاطرها بعض الشيء، فلما ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها رأى علي أن يجدد البيعة مع أبي بكر"، وقال ابن كثير أن البيعة الأولى لعلي كانت إما في أول يوم أو في اليوم الثاني من الوفاة، ثم أردف قائلاً: "وهذا حق، فإن علي بن أبي طالب لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه.."، واحتج أيضًا بأن

(١) السابق والصفحة

(٢) الطبري: السابق ٢٠٧/٣، وانظر سنة وفاة حبيب عند : الربيعي: مولد العلماء ووفياتهم ٢٨٧/١

(٣) الطبقات الكبرى ٧٧/٣

عليًا شهد مع الصديق والمسلمين قتال أهل الردة لما باغتوا المدينة (١)، وفي ذلك الاحتجاج نظر؛ فعلى فرض تأخر عليّ ﷺ في البيعة فليس ثمة ما يمنع من مشاركته في الصلاة والجهاد مع الصديق، وقد أصبح خليفة واجب الطاعة بمبايعة الجمهور، وإن تأخر هو عن بيعته..

ويضعف تشكك ابن كثير في موعد بيعة عليّ الأولى حجته في أنه بايع في أول يوم أو في اليوم التالي للوفاة، وهو لم يبايع أول يوم مع من بايع في السقيفة؛ إذ لم يكن أحد الحاضرين بها، لانشغاله بتجهيز النبي ﷺ، ولو أنه ترك أمر جهازه لما علم ببيعة السقيفة وسارع بعد انتهاء الاجتماع للبيعة لكان أمرًا مثيرًا يستحق الاهتمام والرواية. وبخاصة أن البيعة كانت عملاً علنيًا لا خفاء فيه. وهو ما لم يروه أحد، ولو كانت بيعته في اليوم التالي للوفاة لكانت ضمن البيعة العامة بالمسجد، وشهدها جموع المسلمين الذين احتشدوا لها، ولو كان ذلك قد حدث لما اختلف الرواة بشأنها، وما احتاج هو إلى تجديدها.

بينما يروي الطبري في مواضع أخرى ما يخالف ذلك، ويوافق روايات البخاري، فيروي أن عليًا لم يبايع أبا بكر أول الأمر، وأنه تلبّث ببيعته حتى ماتت زوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ فبايع بعد ستة أشهر (٢)، ويؤكد ابن الأثير ذلك وأنه هو الصحيح (٣)، وأنه "تخلف عن بيعته عليّ وبنو هاشم والزبير بن العوام وخالد بن سعيد بن العاص وسعد بن عباد الأنصاري، ثم إن الجميع بايعوا بعد موت فاطمة بنت النبي ﷺ إلا سعد بن عباد فإنه لم يبايع أحدًا إلى أن مات" (٤). ويشاركهم المسعودي في ذلك فيقول: "ولم يبايعه أحد من بني هاشم حتى

(١) البداية والنهاية ٣/٣١٧

(٢) الطبري: السابق ٣/٢٠٧-٢٠٨

(٣) الكامل ٢/١٨٩

(٤) أسد الغابة: ٣/٢٢٧

ماتت فاطمة رضي الله عنها^(١).. ويقدم بعضهم تفسيرًا مثيرًا لتأخر علي عن البيعة، ويلتمس عذرًا غير ناهض في أمر يتصل بمحض الحرية السياسية التي يحترمها الإسلام والخليفة، ولا يحوج إلى اعتذار، فيروي رواية مرسله عن محمد بن سيرين (ت ٨٠هـ أو ١٠٦هـ) أن عليًا قال معتذرًا لأبي بكر: "ما كرهت إمارتك، ولكنني آليت ألا أرتدي ردائي إلا إلى الصلاة حتى أجمع القرآن^(٢)!"

أما اليعقوبي - المؤرخ الشيعي - فيسير في ذات الاتجاه الذي يرى تأخر علي عن البيعة، ويسرد رواياته دون ذكر إسنادها، أو بيان مصادره، مما يضعف جدًّا من قيمة هذه الروايات، مع هواه المذهبي، وهو يجعل للمسألة أبعادًا أوسع، فيزعم أن عبد الرحمن بن عوف قد شارك في اجتماع السقيفة وأنه قال: "يا معشر الأنصار إنكم؛ وإن كنتم على فضل؛ فليس فيكم مثل أبي بكر وعمر وعلي، وقام المنذر بن أرقم فقال: ما ندفع فضل من ذكرت، وإن فيهم لرجلاً لو طلب هذا الأمر لم ينزعه فيه أحد، يعني عليًا، وأنه بعدما بويع أبو بكر جاء البراء بن عازب فضرب الباب على بني هاشم وقال: يا معشر بني هاشم، بويع أبو بكر، فقال بعضهم: ما كان المسلمون يحدثون حدثًا نغيب عنه، ونحن أولى بمحمد، فقال العباس: فعلوها ورب الكعبة، وكان المهاجرون والأنصار لا يشكون في علي، فلما خرجوا من الدار قام الفضل بن عباس - وكان لسان قريش - فقال: يا معشر قريش إنه ما حقت لكم الخلافة بالتمويه، ونحن أهلها دونكم، وصاحبنا أولى بها منكم"، وأنشد عتبة بن أبي لهب أبياتًا من الشعر منها:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن
فبعث إليه علي فنهاه، وذكر اليعقوبي أسماء جماعة زعم أنهم امتنعوا عن بيعة
أبي بكر تحزبًا لعلي، فأضاف - فضلًا عن بني هاشم والزبير وخالد بن سعيد

(١) مروج الذهب ٣٠٨/٢

(٢) المحب الطبري: الرياض النضرة ٢/٢١٧، والمقصود بجمع القرآن: استكمال حفظه..

وأبي سفيان بن حرب - أسماء المقداد بن عمرو وسلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر والبراء بن عازب وأبي بن كعب^(١)..

ج) موقف العباس بن عبد المطلب:

ثم زعم اليعقوبي أن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة والمغيرة بن شعبة تشاوروا فيما يواجهون به الموقف، فقر قرارهم على مفاوضة العباس بن عبد المطلب لسلخه من معسكر علي، على أن يجعلوا له في هذا الأمر نصيبًا يكون له ولعقبه من بعده!! فذهبوا إليه، وتكلم أبو بكر فأبان عن وجهة نظره، وقدم عرضهم الذي اتفقوا عليه، فرد عليهم العباس ردًا بليغًا، دحض فيه وجهة نظرهم، وانتصر لكون الإمامة فيهم آل البيت، وأنه ليس لهم أن يتدخلوا فيها، فيجعلوا له نصيبًا منها، فخرجوا من عنده.. وأن عليًا لما رأى تحريض أنصاره له أراد أن يختبر ولاءهم وصمودهم، فقال لهم: "اغدوا على هذا محلقين الرعوس، فلم يغدُ عليه إلا ثلاثة نفر^(٢)..

ولا شك أن الحديث عن حقوق العباس وولده في الخلافة منذ ذلك الوقت المبكر محاولة من أصحاب هذه الروايات التي كتبت في العصر العباسي لخطب ود الخلفاء العباسيين، والتزلف إليهم، وهو عمل لا كلفة فيه، إذ يكفي نسج بعض الروايات التي لا يعرف لها أصل تعود إليه، وتسويد الصفحات بها.. وقد كان اليعقوبي من أسرة ذات صلات وثيقة بالبيت العباسي حيث كان جده أحد مواليتهم، وقد عمل جد اليعقوبي ووالده، وربما هو في بعض المناصب الإدارية في الحكومة العباسية^(٣).

(١) تاريخ اليعقوبي ١٢٣/٢-١٢٤

(٢) تاريخ اليعقوبي ١٢٤/٢-١٢٦، ابن قتيبة: (ينسب إليه) الإمامة والسياسة ١٥

(٣) راجع ياسين إبراهيم الجعفري: اليعقوبي المؤرخ والجغرافي ص ٢١، ٢٤، ٢٦-٢٧

التهم على بيت فاطمة:

ثم يمضي اليعقوبي في افتراض ذلك الصراع، ثم تضخيمه، فيزعم أن أبا بكر وعمر بلغهما أن جماعة من المهاجرين والأنصار قد اجتمعوا مع علي في منزل فاطمة - رضي الله عنها - فجاءوا في جماعة حتى أتوا الدار، وخرج علي ومعه السيف، فصارعه عمر، فصرعه وكسر سيفه، ودخلوا الدار، فخرجت فاطمة فقالت: والله لتخرجن أو لأكشفن شعري، ولأعجنن إلى الله، فخرجا، وخرج من كان بالدار، وأقام القوم أيامًا، ثم جعل الواحد بعد الواحد يبايع، ولم يبايع علي إلا بعد ستة أشهر، وقيل أربعين يومًا^(١)..

إن رواية كشف بيت فاطمة قد تركت أصداءها في كتابات بعض أهل السنة، وإن لم تكن على النحو الذي يزعمه اليعقوبي، فقد روى الطبري والطبراني وغيرهما أن أبا بكر في مرض وفاته قال: لا آسى على شيء كما آسى على ثلاثة أشياء؛ ذكر منها أنه ود لو لم يكن كشف بيت فاطمة، وتركه وأن أغلق علي الحرب، وقد ذكر الطبراني أن أحد رواة هذا الحديث - واسمه علوان بن داود البجلي - ضعيف، وأن هذا الأثر مما أنكر عليه، وهو ذات الراوي الذي روى عنه الطبري^(٢)..

(د) حول معارضة أبي سفيان بن حرب:

ويشرك بعض رواة الطبري أيضًا أبا سفيان بن حرب في زمرة من تخلفوا عن البيعة، بل يجعلونه أكبر المحرضين عليًا للامتناع عنها، في حين تجعل رواياتهم عليًا في دور المدافع عن بيعة أبي بكر، المتهم أبا سفيان بالانتهازية السياسية

^(١) اليعقوبي: السابق ١٢٦/٢، المسعودي: مروج الذهب ٣٠٨/٢، ابن قتيبة: (ينسب إليه) السابق ١٢-

١٤

^(٢) الطبري: السابق ٤٢٩/٣-٤٣١، الطبراني: المعجم الكبير ٦٢/١، وانظر ابن حجر: لسان الميزان

١٨٩/٤، العقيلي: ضعفاء العقيلي ٤١٩/٣-٤٢٠، الهيثمي: مجمع الزوائد ٢٠٢/٥-٢٠٣

وإضمار الشر للإسلام.. فيزعم الرواة أن أبا سفيان قال لعلي: ما بال الأمر في أقل حي من قريش؟ والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً، فقال علي: "يا أبا سفيان طالما عادت الإسلام وأهله، فلم يضره ذلك شيئاً، إنا وجدنا أبا بكر لها أهلاً"، ويزعمون أن أبا سفيان قال - وقد رأى الناس على البيعة -: والله إني لأرى عاجة لا يطفئها إلا دم، يا آل عبد مناف؛ فيم أبو بكر من أموركم؟ أين المستضعفان؟ أين الأذلان: علي والعباس؟ وقال لعلي: يا أبا حسن ابسط يدك حتى أباعك، فأبى عليه فأنشد:

ولن يقيم على حَسَف يُراد به إلا الأذلان: عَيْرِ الحَيِّ والوَتِدِ

هذا على الحَسَف معكوس برمته وذا يُشَجُّ فلا يبكي له أحد

فزره علي وقال: "إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك"، والعجيب أنهم زعموا أن الرجل ظل في ثورته حتى علم أن أبا بكر ولي ولده يزيد قيادة أحد جيوشه لفتح الشام، فرضي وقال: "وصلته رحم" .. وهي روايات يرويها هشام بن محمد الكلبي الذي سبق بيان تشييعه ومعاداته للأمويين وجدهم أبي سفيان^(١) ..

نظرة تحليلية لمواقف المتنعين عن بيعة الصديق:

١- إن الراجح بشأن سعد بن عبادة هو امتناعه عن بيعة أبي بكر ثم عمر بن الخطاب، فقد ذكرت روايات الصحيح غضبه بعدما حدث من تحول أنصاره عنه يوم السقيفة؛ ومسارعتهم لبيعة أبي بكر، ولم تذكر بيعته مع جموع الأنصار حتى سخط عليه عمر وقال: "قتله الله"، أما الرواية الحديثية التي رواها الإمام أحمد وأكدت بيعته مع قومه يوم السقيفة - لما ذكره أبو بكر بحديث "قريش ولاة هذا الأمر" - فهي رواية مرسله تخالف الصحيح، ولا

(١) الطبري: السابق ٢٠٩/٣

تورث اطمئنانًا بشأن مدلولها، وكذلك الزعم المردود بأنه بايع مكرهًا، وهو الزعم الذي لحق بغير سعد أيضًا كعلي والزبير وغيرهما، وأمر امتناعه عن البيعة هو ما تؤكدُه عدة روايات تاريخية، وهو ما يتفق مع حدة سعد بن عبادَة، ومع طبيعة النفس الإنسانية؛ حتى في حالات ترفعها وتساميتها، قال ابن تيمية: "فتخلف عن بيعته سعد، لأنهم كانوا قد عينوه للإمارة، فبقي في نفسه ما يبقى في نفوس البشر، ولكن هو مع هذا رضي الله عنه لم يعارض ولم يدفع حقا ولا أعان على باطل" (١).. ولكي لا نغمط الإسلام دوره في تركية هذه النفوس فلنتذكر حالة أخرى مماثلة؛ اختلفت نتائجها مع حالتنا هذه؛ هي حالة عبد الله بن أبي بن سلول. وكان سيد الخزرج في الجاهلية مثلما كان سعد سيدهم في الإسلام، وكان أهل يثرب قد عقدوا العزم على تأميره عليهم قبل إسلامهم. فلما قدم النبي ﷺ إليهم وأصبح سيدهم بعد الهجرة، وضاعت عليه فرصة الإمارة، لم يستطع ابن أبيّ أن ينسى له ذلك (٢)، وظل يبغضه ﷺ حتى مات منافقًا خالصًا..

٢- كان اهتمام المؤرخين والمحدثين بأمر بيعة عليّ أعظم من اهتمامهم بأمر بيعة سعد بن عبادَة ويبدو أن لذلك أسبابًا عدة؛ منها مكانة عليّ في الإسلام، وقرابته من رسول الله ﷺ، ومنها أن موقف عليّ قد ساهم في تشكيل مواقف جماعة من الصحابة، من بني عبد مناف، ومنها أن موقف عليّ من البيعة لأبي بكر كان مثار حديث عند الشيعة فيما بعد، يؤصلون به لدعواهم بفضل عليّ على بقية الصحابة، وفيهم أبو بكر، ورد أهل السنة عليهم بتفضيل أبي

(١) منهاج السنة ١/٥٣٦

(٢) البخاري: الصحيح، كتاب التفسير باب: ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب، مسلم: الصحيح كتاب الجهاد والسير، حديث رقم ١٧٩٨، أحمد: المسند ٥/٢٠٣

بكر، مما جعل مسألة أحقية علي بالخلافة أو أبي بكر مثار حديث وجدل، فاهتم رواة الحديث من أهل السنة ببيان حقيقة موقف علي من هذه البيعة.. ومن هذه الأسباب التي جعلت رواة الحديث يهتمون بأمر بيعة علي ارتباط ذلك بالخلاف بين فاطمة بنت رسول الله ﷺ وزوج علي وأبي بكر حول ميراثها من رسول الله ﷺ ومطالبتها به، ورفض أبي بكر ذلك لحجج فقهية ظاهرة.. والأمر ليس كذلك بالنسبة لبيعة سعد بن عبادة الذي انتهى خطره بمجرد بيعة رهطه الأنصار، ثم ذهابه هو إلى الشام ووفاته بها بعد قليل..

٣- إن رواية البخاري عن تأخر بيعة علي حتى وفاة فاطمة هي رواية صحيحة الإسناد، وتتفق مع البناء المنطقي للأحداث، وهي ترجح رواية الحاكم والبيهقي في صحة الإسناد وتتسق الوقائع، وقد وافقت بعض روايات التاريخ ما رواه البخاري، غير أن بعضها يخالف ذلك، مثل رواية الطبري عن سيف بن عمر التي تزعم أن عليًا تعجل في بيعة أبي بكر حتى أعجله ذلك فخرج يبائعه في قميص بغير إزار ولا رداء هي رواية ضعيفة منقطعة الإسناد^(١)، علاوة على ما يشوبها من تكلف ومبالغة.. وقد ذهب جماعة من الفضلاء قديمًا . كابن حزم وابن تيمية^(٢). إلى الأخذ برواية البخاري وطرح ما عداها.. في حين كان بعضهم يرويها وما خالفها دون ترجيح، أو يحاول التوفيق بينها وبين تلك الروايات التي تزعم البيعة المبكرة لعلي، مثلما فعل البيهقي و ابن كثير وغيرهما، وذلك بافتراض أن عليًا بايع مرتين: الأولى مع جموع المسلمين، والثانية بعد وفاة زوجته فاطمة، وهو محض افتراض بلا دليل، تحدوه النوايا الطيبة في تنزيه علي عن تأخر البيعة، أو تبرئة كبار الصحابة من شبهة الاختلاف السياسي، مع أنهم

^(١) في مصطلح الحديث: المنقطع هو ما سقط من إسناده أحد الرواة أو كان مبهمًا، أما إذا غاب أكثر من راوٍ فهو حديث معضل (راجع: أحمد محمد شاكر: الباعث الحثيث ص ٤١-٤٣، حسن محمد المشاط: التقريرات الشئبة شرح المنظومة البيقونية في مصطلح علم الحديث ص ٦٦-٦٩).

^(٢) ابن حزم: الفصل ٩٦/٤، ابن تيمية: منهاج السنة ١/٥١٨-٥١٩

قد اختلفوا في حياة النبي ﷺ نتيجة اجتهاد مأجور فما عابهم ذلك، بل عُد دليلاً على حيوية الأمة ومرونة التشريع.. وترك الخلاف بين الأقدمين في ذلك أثره على كتابنا المحدثين فمنهم من قال بتأخر بيعة علي^(١)، ومنهم من ادعى الإجماع على أبي بكر من أول يوم، ومضى يشكك فيما سوى ذلك^(٢)..

٤- إن علياً نفى أن يكون سبب امتناعه عن بيعة أبي بكر أنه كان ينفس عليه خيراً ساقه الله إليه، أي أنه لم يحسده على الخلافة، وإنما وجد عليه لاستبداده مع آخرين بأمر الشورى والاستخلاف، ويمكن أن نتقهم حساسية ذلك الأمر إذا تذكرنا الحوار الذي دار بين عليّ والعباس قبيل وفاة النبي ﷺ، وأن العباس نصح علياً أن يسأله ﷺ إن كان لهم في الأمر شيء؛ فأبى عليّ مخافة أن يمنعه عنهم فيرى الناس في ذلك تشريعاً، فيحرموهم حقاً هو للمسلمين كلهم سواء إذا توافرت فيهم شروطه.. فليس بمستنكر إذن أن يكون علي وبعض بني هاشم يرون أنه قد يكون لهم حق في خلافة رسول الله ﷺ وأن ابتعادهم عن الشورى يوم السقيفة أفقدهم إمكانية الترشح والاختيار..

٥- ومحمّل أن يكون لاختلاف فاطمة مع أبي بكر حول ميراثها من النبي ﷺ أثر في تأخر علي عن البيعة، إذ رأى أن يراعي خاطرها، وفاطمة ليست كغيرها

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام ٢٥٣، الخضري: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١٦٩/١-١٧٠، وانظر د. محمد عمارة: الخلافة ونشأة الأحزاب السياسية ٨٤-٨٦، رفيق العظم: أشهر مشاهير الإسلام في الحروب والسياسة ٢٦

(٢) بل إن أحدهم وصف رواية البخاري بالاضطراب والتكك، وأنها تناقض نفسها، ويدلل على ذلك بأن بها حديثاً عن ميراث فاطمة يختلط بأمر البيعة لأبي بكر، بل يزعم أنها موضوعة، وأن "واضعيها من الشيعة الغلاة" (د. عبد الحميد بخيت: عسر الخلفاء الراشدين ص ٥١)، وواضح ألا تناقض في الرواية بين الحديث عن ميراث فاطمة وبيعة زوجها علي أبي بكر الذي روى حديث: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث"، أما القول بتسلل رواة الشيعة إلى صحيح البخاري فهو قول خطير لا دليل عليه..

من النساء؛ فهي سيدة نساء المؤمنين، وهي بضعة من أبيها ﷺ^(١)، وبخاصة أنها مرضت واشتد مرضها في أعقاب ذلك، حتى لحقت بالرفيق الأعلى، وقد أبى الخليفة إعطاءها ما طلبت بسبب ما سمعه من رسول الله ﷺ: "لا نورث؛ ما تركنا صدقة"^(٢)، فغضبت فاطمة، "وأما سبب غضبها مع احتجاج أبي بكر بالحديث المذكور فلاعتقادها تأويل الحديث على خلاف ما تمسك به أبو بكر، وكأنها اعتقدت تخصيص العموم في قوله "لا نورث"؛ ورأت أن منافع ما خلفه من أرض أو عقار لا يمتنع أن تورث عنه، وتمسك أبو بكر بالعموم، واختلفا في أمر محتمل للتأويل"^(٣)، وهجرته فاطمة فلم تكلمه حتى ماتت^(٤)، وقد روى البيهقي من طريق الشعبي أن أبا بكر عاها وهي مريضة؛ فسألها علي: هذا

(١) حديث: "فاطمة بضعة مني..". (رواه البخاري: الصحيح كتاب المناقب: باب مناقب فاطمة، ورواه مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام، وفيه أيضًا حديث: "أما ترضي أن تكوني سيدة نساء المؤمنين").

(٢) وهذا ما تمسك به من قال إن سهم النبي ﷺ يصرفه الخليفة بعده لمن كان النبي ﷺ يصرفه له، وما بقي منه يصرف في المصالح العامة، وعند الشافعي: يصرف في المصالح العامة، وهو لا ينافي الذي قبله، وفي وجهه: هو للإمام، وقال مالك والثوري: يجتهد فيه الإمام، وقال أحمد: يصرف في الخيل والسلاح، وقال ابن جرير: يرد إلى الأربعة المصارف الأخرى التي نصت عليها الآية (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...) وقال أبو حنيفة: يرد مع سهم ذوي القربى إلى الثلاثة المصارف الأخرى (راجع: ابن حجر: السابق ٢٣١/٦)

(٣) السابق ٢٣٠/٦

(٤) قال بعض العلماء في تفسير ذلك الهجر وهل هو من المنهي عنه في الحديث: "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث..": "هجرته فلم تكلمه في أمر ذلك المال، وقال بعضهم: بل إن لفظ الحديث في بعض رواياته: "غضبت" تدل على أنها امتنعت عن الكلام جملة، وهذا صريح الهجر، وأما ما رواه أحمد وأبو داود من أنها قالت لأبي بكر: فأنت وما سمعته. أي من رسول الله ﷺ. فلا يعارض ما في الصحيح من صريح الهجران، وقال بعض الأئمة: إنما كان هجرها انقباضًا عن لقائه والاجتماع به، وليس ذلك من الهجران المحرم، لأن شرطه أن يلتقيا فيعرض هذا وهذا، وكان فاطمة لما خرجت غضبي من عند أبي بكر تمادت في الاشتغال بحزنها ثم بمرضها" (السابق ٢٢٩/٦-٢٣٠)

أبو بكر يستأذن عليك، فقالت: أتحب أن آذن له؟ قال: نعم، فأذنت له، فدخل عليها؛ فترضّأها حتى رضيت^(١).. وهذا أمر ترجحه روايات أخرى تذكر أن فاطمة لما حضرتها الوفاة سألت أسماء بنت عميس زوج أبي بكر أن تغسلها مع زوجها عليّ - رضي الله عنه - وأن أبا بكر قدم إلى بيتها بعد علمه بموتها، وزعم بعضهم أنه صلى عليها^(٢)، وهذا لا يتعارض بالضرورة مع رواية البخاري التي تنص عن أن عليًا لم يؤذن بوفاتها أبا بكر؛ وأنه دفنها ليلاً؛ وأنه صلى عليها؛ إذ ربما علم أبو بكر بوفاتها من غيره - ومثل ذلك الأمر لا يخفى - فبادر إلى الذهاب إلى بيت زوجها^(٣)، وشارك في الصلاة عليها^(٤)، أما دفنها ليلاً فلم يكن رغبة من علي في الاستتار بذلك عن الخليفة، وإنما كان بوصية من فاطمة رضي الله عنها زيادة في تسترها عن أعين الناس^(٥)..

٦- أما ما رواه اليعقوبي من أن اسم عليّ طرح في اجتماع السقيفة، وأن الأنصار والمهاجرين كانوا لا يشكون في عليّ، فمجرد ادعاء، والسؤال الذي يفرض نفسه: لماذا لم يبايعوه إذن دون انتظار حضوره؟ ولماذا لم يتلبثوا حتى يأتيهم الرجل الذي لا يشكون فيه؟ ولماذا يتنازلون عن قناعتهم بهذه السهولة لصالح أبي بكر؟؟

(١) البيهقي: السنن الكبرى ٣٠١/٦، ابن سعد: السابق ٣٠/٨-٣١، وقال ابن حجر: "فإن ثبت حديث الشعبي أزال الإشكال، وأخلق بالأمر أن يكون كذلك؛ لما عُلم من وفور عقلها ودينها" (السابق ٢٣٠/٦)

(٢) راجع ابن سعد: السابق ٣٢/٨-٣٣، الطبري: السابق ٢٤٠/٣، ابن الأثير: أسد الغابة ٢٢٩/٦، وانظر فيه ترجمة أسماء بنت عميس (١٤/٦)، وقد ولدت لأبي بكر ابنه محمد، ثم مات عنها، فتزوجها علي بن أبي طالب

(٣) راجع ابن حجر: السابق ٥٥٩/٧

(٤) يرى الشافعية أن زوج المرأة هو الأولى بالصلاة عليها، بينما يرى جمهور الفقهاء أن الخليفة أو السلطان هو الأولى بذلك، (راجع عبد الرحمن الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة ٤٦٤/١-٤٦٥).

(٥) ابن الأثير: أسد الغابة ٢٢٩/٦، ابن حجر: السابق ٥٦٥/٧

٧- وكذلك الزعم بمحاولة رشوة العباس حتى يوافقهم؛ بأن يجعلوا له نصيباً في الأمر؛ فإنه يثير التساؤل عن ذلك النصيب، وكيف يكون؟ ولماذا لم يتمسك به بنو العباس بعد ذلك في صراعهم ضد الأمويين، بدعوى أن الراشدين الأوائل كانوا يرون لهم نصيباً؟ إنها محض ادعاءات بغير دليل، وروايات لم يذكر صاحبها لها سنداً لننظر فيه.

٨- أما روايات امتناع أبي سفيان عن البيعة وتحريضه علياً على طلب الخلافة لنفسه فهي روايات مظلمة الإسناد تروى عن بعض كبار الكذابين من الشيعة أو المواليين بني العباس من خصوم بني أمية الذين حرصوا على تشويه صورة عميد البيت الأموي لخصومه سياسية أو مذهبية كهشام بن محمد الكلبى.. وقد كان أبو سفيان بمكة منذ أسلم شأن مسلمة الفتح؛ ولا يُعلم أنه أتى المدينة في هذه الأثناء^(١)؛ وقد يكون الرجل امتنع عن بيعة أبي بكر مثل نفر من الصحابة - ويلاحظ أنه لم يُطلب آنذاك من أحد المكيين البيعة الخاصة، ولم يكونوا ضمن أهل الحل والعقد، الذين مثلهم كبار الصحابة من السابقين إلى الإسلام - ولكنه كان أحزم من يجهر بخلافه على ذلك النحو الصاخب في هذا الوقت العصيب؛ وقد رأى جمهور الصحابة بايعوا الصديق منذ اليوم الأول لخلافته..

أما الزعم برشوة أبي بكر له بتولية ولده ليضمن بيعته فهو زعم قبيح، ولا ندري أية ولاية تولها ولده؟ لئن كانوا يقصدون تولية ولده يزيد إمارة أحد الجيوش المتوجهة لفتح الشام فإن ذلك لم يحدث إلا بعد القضاء على حركة الردة واستتباب الأوضاع في جزيرة العرب سنة ١٣هـ^(٢)، ولا يظن تأخر بيعة

(١) راجع قصة الدار التي بناها أبو سفيان بمكة فتجاوز في بنائها، فتصدى له عمر بن الخطاب في خلافته (ابن الجوزي: سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ١٢٨)

(٢) الطبري: السابق ٣/٣٨٧

أحد المكيين طوال هذه المدة، أما الزعم الذي تردده بعض كتابات الشيعة المعاصرين بأنه بايع بعدما ولى ولده يزيد إمارة دمشق^(١) فهو أشد ضللاً من القول الأول، لأن ذلك الفتح لم يكن إلا بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه وتولية عمر^(٢)..

٩- أما الأمر المهم هنا فهو التفريق بين الامتناع عن البيعة والاعتراض عليها، وهي تفرقة لم يتنبه إليها كثير من الباحثين في هذا الموضوع، فالامتناع يشبه في زماننا هذا الامتناع عن التصويت عند اختيار شخص ما لمسئولية؛ دون الخروج على طاعته إن اختاره الآخرون، أما المعارضة فهي زيادة عن حد الامتناع بإظهار السخط وعدم الرضا، ويصحبها غالباً تقديم بديل آخر لذلك المرشح للمسئولية، وتلك هي المعارضة السلمية، وهي أدنى كثيراً من المعارضة المسلحة التي تنتهج القوة وسيلة للتعبير عن نفسها، وتخرج على شخص الحاكم، أو تحتج على منهجه في الحكم بالسلاح، ولم يفعل سعد بن عباداً شيئاً من ذلك، وقد وصف بشير بن سعد موقفه من الامتناع عن البيعة في حوار مع أبي بكر كما مر بنا فقال: "إنه ليس بضاركم، إنما هو رجل وحده ما ترك"، ولم يفعل علي رضي الله عنه ومن معه شيئاً من ذلك أيضاً، بل اكتفى بالامتناع عن بيعة الصديق، وقد كان - كما تدل كثير من الروايات يحمل قدرًا كبيرًا من الاحترام والإكبار لأبي بكر رضي الله عنه.. وقد انتبه بعض كبار فقهاءنا إلى ذلك قديماً؛ وذكروا أنه "يكفي في بيعة الإمام أن تقع من أهل الحل والعقد، ولا يجب الاستيعاب، ولا يلزم كل أحد أن يحضر عنده، ويضع يده في يده، بل يكفي التزام طاعته، والانقياد له، بأن لا يخالفه ولا يشق العصا عليه، وهذا كان حال عليّ، لم يقع منه إلا

(١) د. أسعد القاسم: أزمة الخلافة والإمامة ٢٠٢-٢٠٣

(٢) كان فتح دمشق أواخر سنة ١٣هـ أو في سنة ١٤هـ (الطبري: السابق ٤٣٤/٣-٤٣٥)

التأخر في الحضور عند أبي بكر^(١)، ولا يجب أن يكون تأخره دلالة على فقد الرضا، بل كان راضياً ببيعته، من حيث كان بنفذ الأمور قلاً ينكر^(٢).. وعلى ذلك يمكن أن نحمل رواية سيف بن عمر من أنه لم يخالف أحد على بيعة أبي بكر، إلا من ارتد أو من قد كاد يرتد^(٣)..

١٠- وربما كان اعتياد بعض كتابنا في العالم الإسلامي مناهج اختيار الحكام الذين يتسلطون على شعوبهم بالقهر، زاعمين إجماع الناس عليهم، وأنه لم يخالف عليهم أحد - إلا من لا يكاد يُذكر لقلته - وراء مسارعتهم إلى نفي امتناع أحد عن بيعة أبي بكر، ظناً منهم أن الخلاف السياسي تهمة ينبغي نفيها عن هؤلاء السادة الأعلام، وتزويهم عنها، أو أنه حط من مكانة أبي بكر الصديق الذي يستوجب الإجماع المطلق عليه، مع أن الإجماع على بشر مستحيل، بل إن الناس لم يجتمعوا على الإيمان بالله تعالى، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ولم يجتمعوا على رسول الله ﷺ فكانوا معه بين مصدق وجاحد..

هذا الاعتقاد كاد يجعلنا نشوّه روعة هذه الصفحة الوضيئة في تاريخنا الإسلامي، وتلك الممارسة الشورية الجليلة التي اتسعت لتنظم طرق اختيار الخليفة بغير سابقة دستورية أو عملية، وتفسح السبيل لامتناع من شاءوا عن البيعة، دون قهرهم، أو تزيف إرادتهم.. وتعد دليلاً على الرقي السياسي للأمة وقيادتها السياسية التي يتسع صدرها وفهمها الديني لتقبل المعارضة السياسية، وتؤمن بمشروعيتها^(٤).

(١) ابن حجر: السابق ٥٦٥/٧

(٢) القاضي عبد الجبار: المغني ج ٢ ق ١ ص ٢٨٣

(٣) الطبري: السابق ٢٠٧/٣

(٤) كما حدث في المشورة التي سبقت خروج المسلمين للقاء عدوهم يوم أحد، ومعارضة عمر وغيره لصلح الحديبية، فضلاً عما حدث زمن أبي بكر من معارضة عمر حرب المرتدين من مانعي الزكاة أول أمرها،

١١- إن رواية البخاري المسهبة لتشعرنا بمدى الوعي السياسي الناضج عند الصحابة في ذلك العصر الفريد، فقد عذر الناس عليًا في فترة مرض فاطمة، فلما توفيت واستمر على عدم الحضور عند الخليفة قصّر الناس في نظرتهم له، لإرادة دخوله فيما دخلوا فيه، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها في الحديث: "وكان الناس إلى عليّ قريبًا حين راجع الأمر بالمعروف" .. "وكانهم كانوا يعذرونه في التخلف عن البيعة في مدة حياة فاطمة، لشغله بها، وتمريضها، وتسليتها عما هي فيه من الحزن على أبيها ﷺ، لأنها لما غضبت من رد أبي بكر عليها فيما سألته من الميراث رأى عليّ أن يوافقها في الانقطاع عنه"^(١).

١٢- وأخيرًا نقول: إن اختيار أبي بكر للخلافة جاء إعلاءً للقيم الإسلامية، وللسلطة المركزية، والدولة الموحدة، على حساب قيم القبيلة ونزعتها الاستقلالية.. ولعلنا نذكر هنا كيف كانت حوارات المهاجرين والأنصار حول أحقيتهم في الخلافة تركز على بيان أسبقية كل منهم في العطاء والفضل.. وقد كان ذلك أمرًا مبهرًا للعرب الذين تأخر إسلامهم، فلم يتمثلوا تمامًا قيم الإسلام وعبقريته في البناء والتكوين، لقد قال أبو قحافة - والد الصديق - لما علم باستخلاف ولده: "أرضيت بذلك بنو عبد شمس وبنو المغيرة"؟ قالوا: نعم، قال: "فإنه لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع الله"^(٢).. أما قبائل العرب المنتشرة خارج المثلث الحضري مكة والمدينة والطائف فكان ردهم مريبًا ساخرًا، وكان سلوكهم عنيفًا صاخبًا، وتمثل هذا وذاك في حروب الردة

والمعارضة الشديدة التي لقيها عثمان في خلافته ثم تحولت إلى ثورة مسلحة غير مقبولة (راجع لمزيد من التفاصيل: د. نيفين عبد الخالق، المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي).

^(١) ابن حجر: السابق ٥٥٩/٧

^(٢) ابن سعد: السابق ٧٨/٣، ابن الأثير: أسد الغابة ٣/٢٢٧

التي واجهها أبو بكر والمسلمون بكل صرامة وحزم؛ كما تحكي كتب التاريخ..

خامساً: منهج أبي بكر في الحكم والإدارة:

بويح أبو بكر البيعة العامة من جموع المسلمين بالمدينة في اليوم التالي لبيعة السقيفة ووفاة الرسول ﷺ، ثم صعد المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله: " أما بعد أيها الناس؛ فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أردّ إليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله فيكم؛ فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم " (١) ..

ونادى مناديه في اليوم التالي: لئنم بعث أسامة . وكان رسول الله ﷺ قد جهزه لغزو القبائل العربية المتاخمة للروم . ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى معسكره بالجرف، ثم قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: " يا أيها الناس؛ إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول الله ﷺ يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمتم فتابعوني، وإن زغت فقوموني، وإن رسول الله ﷺ قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ؛ ضربة سوط فما دونها ، ألا وإن لي شيطاناً يعتريني ، فإذا أتاني فاجتنبوني ؛ لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم ، وأنتم تغدون وتروحون في أجل قد غُيب عنكم علمه ، فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا ، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله ، فسابقوا في

^١ ابن هشام: السيرة النبوية ٢٣٢/٤، الطبري: السابق ٢١٠/٣، السيوطي: السابق ٨٢، ابن الأثير: الكامل ١٩٤-١٩٥

مَهْلَ آجالكم آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال ، فإن قومًا نسوا آجالهم وجعلوا أعمالهم لغيرهم ، فإياكم أن تكونوا أمثالهم ، الجِدِّ الجِدِّ ... فإن وراءكم طالبًا حثيثًا أجلاً مرُّه سريع ، احذروا الموت ، واعتبروا بالأبَاء والأبناء والأخوات ، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطون به الأموات " .. وخطب أبو بكر خطبًا أخرى في ذات السياق تحمل معاني الترهيب من الموت ولقاء الآخرة (١) ..

لقد قرر أبو بكر في هذه الخطب الملامح العامة لمنهجه في الحكم؛ وهو

منهج الإسلام كما طبقه الخليفة الأول؛ ويرتكز على المبادئ التالية:

١- مبدأ المساواة بين المسلمين؛ حكامًا ومحكومين، فالحاكم لا يفضل رعيته بأفضلية خاصة، ولا يمتاز بمزية دونهم، ولذا قال الصديق: " إني وليت عليكم ولست بخيركم "، وقال: " إنما أنا مثلكم .."

٢- إن مهمة الحاكم تتجه قبل كل شيء إلى اتباع أحكام الإسلام؛ طاعةً لله ورسوله، وأن طاعة المسلمين له رهن بذلك الاتباع، وذلك هو شرط التعاقد بين الطرفين، كما في قوله: " إنما أنا متبع ولست بمبتدع "، وفي قوله: " أطيعوني ما أطعت الله ورسوله؛ فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .."

٣- إن الحاكم قد يصيب وقد يخطئ، وهذا يستلزم إقامة الشورى، وإنه لا عصمة له، بخلاف رسول الله ﷺ، فقد قال أبو بكر: " إن الله اصطفى محمدًا على العالمين؛ وعصمه من الآفات " ومن هنا تأتي أهمية فرض الرقابة الكاملة من الأمة عليه، وهذه الرقابة فريضة دينية تنظمها أحكام الإسلام، ولذا فقد قال أبو بكر: " فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني "، وكرر ذلك في خطبته التالية؛ فقال: " فإن استقمتم فتابعوني، وإن زغت فقوموني .."

٤- إن للدولة الإسلامية أسسها الأخلاقية التي تعبر عن هويتها الخاصة، وقد ألمح أبو بكر إلى ذلك بقوله: " الصدق أمانة، والكذب خيانة "، وأن الأمة يجب

^١ راجع الطبري: السابق ٢٢٣/٣-٢٢٥

أن تدافع عن بنائها الداخلي . وهو بناء أخلاقي . من خلال شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذا فقد قال: " ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمَّهم الله بالبلاء " ..

٥- والأساس الأخلاقي للأمة والتحاكم إلى منهج الإسلام يقتضي تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة الكاملة بين أفرادها ، على ذلك فإن الخليفة الأول قد تعهد بأن ينحاز إلى جانب الضعفاء حتى ينتصر لهم ، وألا يدعم نهبة للتظالم والاستغلال ، فقال : " .. والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرد إليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله" ..

٦- إن الدولة الإسلامية دولة عقيدة تدافع عن نفسها من خلال شريعة الجهاد، وأنها إن غفلت عن هذه الفريضة عرضت نفسها لسطوة أعدائها، وأصبحت فريسة للتآكل الداخلي، والتصارع بين أبنائها لتفريغ القوى المختزنة في أوصال الأمة الشابة.. وقد عبر الصديق عن ذلك بقوله: " لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل " ..

وسوف نرصد في الصفحات التالية تطبيقاته العملية لذلك المنهج، وكيف اجتهد في تنفيذها على نحو دقيق.. ونحن نستصحب في ذلك حقيقة أن خلافة أبي بكر لم تطل أكثر من سنتين ونحو ثلاثة أشهر^(١)، وأنها شغلت كلها بقمع المرتدين وبدء الفتوحات في العراق والشام، وحرب فارس والروم، وأنها أول تجربة للمسلمين في الحكم والإدارة في دولة مركزية واحدة؛ وليس بينهم رسول الله ﷺ، بوعيه الثاقب، يسدده الوحي، وتلحظه السماء..

^١ ابن الأثير: أسد الغابة ٢٢٩/٣

١-الاتباع لا الابتداع:

(أ) موقفه مع فاطمة رضي الله عنها:

وكان أول ما واجه أبا بكر أن جاءته فاطمة تطلب منه ميراثها من أبيها ﷺ؛ فكانت إجابته لها كما مر بنا قريباً، وكان أبو بكر في ذلك متسقاً مع منهجه الذي ارتضاه لنفسه في الحكم أنه " متبع وليس بمبتدع "، وهو ما سوف يبدو لنا جلياً في قضية إنفاذ بعث أسامة ﷺ..

(ب) إنفاذ بعث أسامة:

كان رسول الله ﷺ قبيل وفاته قد جهز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام؛ وأمره أن يوطئ خيله تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس ثم باغتهم وفاة رسول الله ﷺ^(١)، وارتدت العرب؛ " إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة، ونجم النفاق، واشربأت اليهود والنصارى، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ، وقتلهم وكثرة عدوهم، فقال له الناس: إن هؤلاء . يعنون جيش أسامة . جل المسلمين، والعرب . على ما ترى . قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين فقال أبو بكر: والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة؛ كما أمر به رسول الله؛ ولو لم يبق في القرى غيري أنفذته"^(٢)، فلما خرج الجيش إلى معسكره بالجرف وتكامل عددهم أرسل أسامة عمر بن الخطاب ﷺ . وكان معه جندياً في جيشه . إلى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس ؛ وقال أسامة: "إن معي وجوه الناس وجلتهم، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ وحرمة رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون، وقال من مع أسامة من الأنصار لعمر بن الخطاب: " إن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ، ألا فامض فأبلغه عنا، واطلب إليه أن يولي أمرنا أقدم سنأ

^١ ابن هشام: السيرة النبوية ٤/٢١٦

^(٢) الطبري: السابق ٣/٢٢٥، ابن الأثير: الكامل ٢/١٩٩

من أسامة"، فخرج عمر بأمر أسامة إلى أبي بكر فأخبره بما قال أسامة، فقال: " لو خطفتني الكلاب والذئاب لأنفذته كما أمر به رسول الله ﷺ، ولا أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته"، فقال عمر: فإن الأنصار يطلبون رجلاً أقدم سنًا من أسامة، فوثب أبو بكر. وكان جالسًا. وأخذ بلحية عمر، وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أعزله؟ ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم، وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب؛ فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله ﷺ لتركبن أو لأنزلن، فقال: والله لا نزلت ولا أركب، وما عليّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله؟ فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترفع له، وسبعمائة سيئة تمحى عنه، فلما أراد أن يرجع قال لأسامة: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل، فأذن له، ثم وصاهم الخليفة فقال: "لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلّوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقواماً قد فحسوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله.. وأوصى أسامة أن يفعل ما أمر به رسول الله ﷺ، فسار أسامة، فأوقع بقبائل من قضاة التي ارتدت، وغنم وعاد، وكانت غيبته أربعين. أو سبعين. يوماً، وكان إنفاذ بعث أسامة أعظم الأمور نفعاً للمسلمين، فإن العرب قالوا: لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه ..(١)

(ج) جمع القرآن:

(١) الطبري: السابق ٢٢٦/٣-٢٢٧، ابن الأثير: السابق ١٩٩/٢-٢٠٠

فقد المسلمون كثيرًا من قراء القرآن في فتال خالد بن الوليد مسيلمة الكذاب في موقعة اليمامة، فأقبل عمر بن الخطاب على أبي بكر فقال له: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بالناس، وإنِّي لأحشى أن يستحرَّ القتل بالقراء في المواطن (١)؟ فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعه، وإنِّي لأرى أن يُجمع القرآن، فقال أبو بكر: كيف أفعال شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجع فيه حتى شرح الله لذلك صدره، فرأى مثل رأيه، فقال أبو بكر لزيد بن ثابت: إنك شاب عاقل ولا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، قال زيد: لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن، فسألهما: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله النبي ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجع حتى شرح الله صدري لما شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتتبع القرآن أجمعه من الرقاع (٢) والأكتاف والعُسب (٣) وصدور الرجال... فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها (٤)، فمنه نسخ الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه نسخ المصحف التي وزعت على الأمصار.. فكانت بداية هذا العمل العظيم الذي به حفظ الله كتابه على يد أبي بكر رغم عظيم تحرجه في بداية الأمر من أن يفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ، اتباعًا لمنهجه الأصيل "إنما أنا متبع ولست بمبتدع"، وفهمًا لحقيقة الاتباع وأنها لا تعني إلغاء الاجتهاد فيما لا نص فيه، وفيما تقتضيه المصالح المتجددة للأمة..

د) محاربة المرتدين:

(١) يعني الحروب والمواقع..

(٢) الرقاع: قطع من جلد كانت تستعمل في الكتابة.

(٣) العسب: جريد النخل.

(٤) راجع البخاري: الصحيح كتاب تفسير القرآن، كتاب الأحكام، كتاب فضائل القرآن، البيهقي: السنن

الكبرى ٤٠/٢، الترمذي: السنن ٢٨٣/٥، أبو يعلى: المسند ٦٦/١

وسوف نفرّد لتلك الحروب حديثاً مسهباً إذ شغلت نحو نصف خلافة الصديق، ولكننا نشير هنا إلى صلابة موقف أبي بكر، وإصراره على حرب المرتدين من مانعي الزكاة، في الوقت الذي كان معظم الصحابة يرون الصبر عليهم، والتراخي عنهم، والانشغال بحرب المتتبئين أولاً، وكان أبو بكر في ذلك واضح الحجة في أنه لا يقبل انتقاصاً لما كان عليه الإسلام في حياة النبي ﷺ، فقد جاءه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم، فإنهم بمنزلة الوحش، فقال أبو بكر: رجوت نصرك وجئتني بخذلانك، جباراً في الجاهلية خوّاراً في الإسلام، بماذا عسيّت أن أتألفهم؟ بشعر مفتعل؟ أو بسحر مفتري؟ هيهات هيهات، مضى النبي ﷺ، وانقطع الوحي، والله لأجاهدنيهم ما استمسك السيف في يدي، وإن منعوني عقلاً، قال عمر: فوجدته في ذلك أمضى مني وأحزم^(١)..

٢- لا مزايًا للحاكم:

لما استخلف أبو بكر أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبتة أثواب يتجر بها، فلقية عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فقالا: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ فقال: السوق، قالا: تصنع ماذا وقد وليت أمور المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ قالا له: انطلق حتى نفرض لك شيئاً، فانطلق معهما، ففرضوا له كل يوم شطر شاة؛ وماكسوه في الرأس والبطن^(٢)؟ وروي أن أبا بكر لما تولى الخلافة قال أصحاب رسول الله ﷺ: افرضوا لخليفة رسول الله ما يغنيه، قالوا: نعم؛ برّدها إذا أخلقهما^(٣) ووضعهما وأخذ مثلهما، وظهره^(٤) إذا سافر، ونفقته على أهله كما

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٨٦

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧٨/٣، ومعنى: ماكسوه: شاكسوه يريدون انتقاصهما منه (ابن منظور:

لسان العرب ٢٢٠/٦-٢٢١)

(٣) أخلق الثوب: أبلاه..

(٤) يعني ما يركبه من دابة..

كان ينفق قبل أن يستخلف، قال أبو بكر: رضيت^(١).. وتلك روايات مرسله^(٢)، وأصح منها ما ذكره ابن سعد عن الزهري عن عروة عن عائشة أن أباها لما ولي الخلافة قال: قد علم قومي أن حرفتي لم تكن لتعجز عن مؤونة أهلي؛ وقد شُغلت بأمر المسلمين؛ وسأحترف للمسلمين في مالهم، وسيأكل آل أبي بكر في هذا المال^(٣)..

وهكذا ترى بعض الروايات أن أبا بكر ﷺ ينوي مواصلة اكتساب رزقه بعدما أصبح خليفة كما كان يكتسبه من قبل، فرأى أصحابه أن ذلك لا يستقيم، فلا يصح أن ينشغل بعمله عن مصالح رعيته، ولا يجوز أن يتجر الخليفة في الأسواق فيتخرج منه الناس، في حين تلمح الرواية الأخرى إلى أن أبا بكر أدرك انشغاله بأمر المسلمين عن اكتساب الرزق؛ فرضي أن يكون أجيرًا للمسلمين في أموالهم ومصالحهم التي باتت في رقبته، ولا تعارض بين الأمرين؛ إذ لا يُتصور أن الخليفة كان غافلاً عن مقتضى مسؤولياته الجديدة، ولكنه ربما لم يرد أن يبادر فيطلب لنفسه شيئاً. وهو الذي أنفق ماله كله في سبيل الله. حتى بادره أصحابه بذلك، وهو تقليد جديد على أية حال تواجهه الحكومة الإسلامية، وقد فرضوا له ما يقوم بحاجته وهو ذو عيال، وظل ذلك متسقاً مع منهجه في إثثار الزهد والورع..

ولما حضرت أبا بكر الوفاة رد جميع ما أخذه من أجر مدة خلافته، فقال لابنته عائشة رضي الله عنها: أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا

(١) السابق والصفحة.

(٢) بعضها يروى عن عطاء بن السائب، وهو ثقة اختلط في أخريات حياته (ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ٣٣٣/٦) وبعضها يروى عن حميد بن هلال وهو تابعي بصري زاهد، توفي في إمارة خالد القسري على العراق، والأغلب أنه ثقة (أبو حاتم: الثقات ١٤٧/٤، ابن حجر: لسان الميزان ٤٨٦/٧، والعقيلي: الضعفاء ٢٦٦/١)

(٣) السابق ٧٩/٣

درهماً، ولكننا قد أكلنا من جريش طعامهم ^(١) في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وليس عندي من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح ^(٢)، وجرد هذه القطيفة ^(٣)، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر، وابرئي منهن، ففعلت، فلما جاء الرسول عمر بكى؛ وقال: رحم الله أبا بكر؛ لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر؛ لقد أتعب من بعده، يا غلام ارفعهن، فقال عبد الرحمن بن عوف: سبحان الله، تسلب عيال أبي بكر عبدًا حبشيًا وبعيرًا ناضحًا وجرد قطيفة ثمن خمسة الدراهم؟ قال: فما تأمر؟ قال: تردهن على عياله، فقال: لا والذي بعث محمدًا بالحق، لا يكون هذا في ولايتي أبدًا، ولا خرج أبو بكر منهن عند الموت وأردهن أنا على عياله، الموت أقرب من ذلك ^(٤).. وهذا الخبر وذلك الجواب أقرب ما يكونان إلى طباع هؤلاء الرجال رضوان الله تعالى عليهم..

وروى ابن الأثير أن عمر رضي الله عنه كان يتعاهد امرأة عجوزًا كبيرة عمياء؛ في بعض حواشي المدينة من الليل، فيستقي لها ويقوم بأمرها، فكان إذا جاء وجد غيره قد سبقه إليها، فرصده عمر فإذا هو أبو بكر؛ فقال: أنت هو لعُمري! ^(٥)..

وروت امرأة من أهل المدينة أن أبا بكر كان يحلب غنم جوارى حيّهم ثلاث سنوات قبل خلافته وستين بعدها ^(٦).. وهذه الرواية تتفق مع أخرى تقول إنه ظل بمنزله بالسُّنح. في عوالي المدينة. بعد استخلافه سبعة أشهر، يوافي المدينة فكان يحلب للحي أغنامهم؛ فلما استُخلف قالت جارية من الحي: الآن لا يحلب لنا

(١) أي خشنه..

(٢) الذي يسقي عليه..

(٣) جرد القطيفة: ما تساقط خملها، وخلقت من كثرة الاستعمال (راجع: ابن منظور: لسان العرب

١١٥/٣)

(٤) ابن سعد: السابق ٩٣/٣، وانظر روايات مشابهة ٨٧/٣-٨٨

(٥) ابن الأثير: أسد الغابة ٢٢٢/٣

(٦) السابق والصفحة.

منأئحنا^(١) ؟ فسمعها أبو بكر فقال: بلى؛ لعمرى لأحلبنها لكم، وإنى لأرجو ألا
يغَيِّرني ما دخلت فيه عن خُلُق كنت عليه، فكان يحلب لهم؛ فربما قال للجارية:
أتحبين أن أرغي لك أو أن أصرِّح^(٢)؟ فأى ذلك قالت فعل^(٣).

٣- تحقيق العدالة والمساواة بين الرعية:

كان أبو بكر يسوي بين المسلمين في العطاء من بيت المال، لا يفرق بين
حر وعبد ولا بين رجل وامرأة ولا بين سابق إلى الإسلام ومتأخر، قالت عائشة
رضي الله عنها: قسم أبي أول عام الفية؛ فأعطى الحر عشرة، وأعطى المملوك
عشرة، والمرأة عشرة، وأمتها عشرة، ثم قسم في العام الثاني فأعطاهم عشرين
عشرين^(٤).. وقال له عمر: تسوي بين أصحاب بدر وسواهم من الناس؟ قال: إنما
الدنيا بلاغ، وخير البلاغ أوسعها، وإنما فضلهم في أجورهم^(٥).

ولم يجعل على بيت ماله حرسًا؛ إذ لم يكن يُبقي فيه ما يخاف عليه، فكان
يقسم منه، ويشترى الإبل والخيل والسلاح فيجعله في سبيل الله، واشترى عامًا أثوابًا
من البادية ففرقها في أرامل أهل المدينة في الشتاء، فلما توفي أبو بكر دعا عمر
الأمناء، ودخلوا بيت المال فلم يجدوا فيه دينارًا ولا درهمًا، ووجدوا خيشة للمال
فنفقت، فوجدوا فيها درهمًا؛ فرحموا أبا بكر، وسئل الرجل الموكل بوزن ما يرد
إلى بيت المال: كم بلغ المال الذي ورد على أبي بكر؟ قال: مائتي ألف^(٦)..

(١) منائح: جمع منيحة، القطعة من الغنم أو الإبل تُمنح للغير؛ ينتفع بلبنها أو صوفها ووبرها زمانًا ثم ترد
إلى أصحابها..

(٢) أرغي: أي أحلب لبنًا تملوه الرغوة، وأصرح: أحلبه صريحًا لا رغوة فيه (راجع: ابن منظور: لسان
العرب ٥١٠/٢، ٣٨٥/٣)

(٣) ابن سعد: السابق ٨٠/٣-٨١، ابن الأثير: السابق ٢٢٣/٣

(٤) ابن سعد: السابق ٨٩/٣

(٥) أحمد بن حنبل: الزهد ١٣٧، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٢٢

(٦) الطبري: السابق ١١٣/٣-١١٤

واعتمر أبو بكر وهو خليفة سنة ١٢ هـ فزار أباه والتزمه، وقبل بين عينيه، وجاء إليه عتاب بن أسيد أمير مكة ومعه جمع من زعمائها فسلموا عليه وهم يقولون: سلام عليكم يا خليفة رسول الله ﷺ؟ فجعل أبو بكر يبكي حين يذكرون رسول الله ﷺ؟ وأوصاه بهم أبوه فقال: يا عتيق؛ هؤلاء الملاء فأحسن صحبتهم، فقال أبو بكر: يا أبت لا حول ولا قوة إلا بالله، طوّقت عظيمًا من الأمر، لا قوة لي به ولا يدان إلا بالله، فلما خرج تبعه أصحابه؛ فنحّاهم؛ ثم قال: امشوا على رِسلكم.. فلما بلغ قريبًا من دار الندوة جلس؛ فقال: هل من أحد يشتكي من ظلامته أو يطلب حقًا؟ فما أتاه أحد، وأثنى الناس على واليهم خيرًا^(١).

٤- الشورى:

كان أبو بكر يجلُّ أصحابه؛ وبخاصة السابقين منهم؛ ورغم ذلك لم يفضلهم على من سواهم في العطاء، ولم يكن يستعمل كبارهم في الولاية عادة، فلما سُئل عن ذلك قال: إني أرى مكانهم؛ ولكنني أكره أن أَدنسهم بالدنيا^(٢).. واستأثر بهم أبو بكر في جواره، فكانوا مجلس شوره ورأيه، واعتمد على بعضهم في بعض الأعمال المهمة بالمدينة فاستعمل عمر . وزيره الأول . على القضاء، واستعمل أبا عبيدة بن الجراح على توزيع الفيء، فكان عمر يأتي عليه الشهر لا يختصم إليه اثنان^(٣).. ثم جعل أبا عبيدة أميرًا على جيشه الذي وجهه لفتح دمشق كما سنرى..

وكان أبو بكر دائم المشاورة لأصحابه والاستماع إليهم، جادله عمر في حرب مانعي الزكاة وفي إنفاذ بعث أسامة، ثم عاد عمر إلى مثل رأي الخليفة الذي كان يصدر في رأيه عن حزم بصير ويقين لا تزعره النوائب؛ ورفض أبو بكر

(١) ابن سعد: السابق ٨١/٣-٨٢

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٢٢

(٣) ابن سعد: السابق ٧٨/٣

مشورة عمر بعزل خالد بن الوليد، وأبى أن يغمد سيفاً سلّه الله على المشركين، وعذر خالدًا في بعض أعماله؛ وعنّفه في بعضها كما سيأتي بيانه. وأشار إليه عمر بجمع القرآن فتخرج أن يفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ، فلما رأى المصلحة في ذلك العمل نهض إليه حتى أتمه على خير الوجوه ..

هـ- الجهاد والحزم:

أعلن أبو بكر منذ بداية خلافته الجهاد، إذ وافقت بدايتها ردة العرب، وكان في إصراره على حربهم حازمًا غاية الحزم، وكان يرسم لقادته خطط السير والقتال على نحو دقيق^(١) ويوصيهم بالصرامة في حروبهم ضد المرتدين بعدما ارتكبوهم من جرائم وقتل ضد من ثبت على إسلامه من قبائلهم، فلما بلغه ما فعل المرتدون حلف: "ليقتلن في المشركين كل قتلة، وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة"^(٢)، فكان مما أوصاهم به: إذا نزلتم منزلًا فأذّنوا (للصلاة) وأقيموا، فإن أذّن القوم وأقاموا فكفوا عنهم، وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة، ثم اقتلوهم كل قتلة؛ الحرق فما سواه.. " (٣) ..

(١) راجع: الطبري: السابق ٣ / ٢٥١-٢٥٢

(٢) السابق ٣ / ٢٤٦

(٣) السابق ٣ / ٢٧٧

المبحث الثاني

حركات الردة: عرض تاريخي

حروب الردة:

استخدم المؤرخون لفظ حروب الردة لتتطبق على عدة حركات تأبى الالتزام بالإسلام نفسه كدين بادعاء النبوة واتباع المتنبئين؛ أو إنكار بعض أركان الإسلام وبخاصة الزكاة؛ والتمرد على سلطان المدينة المنورة؛ أو السلطة المركزية للدولة الإسلامية^(١)..

فقابلها أبو بكر بحزم حديد، حتى قال ابن مسعود: " لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن الله منّ علينا بأبي بكر؛ أجمعنا على ألا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون^(٢)، وأن نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين، فعزم الله لأبي بكر على قتالهم؛ فوالله ما رضي منهم إلا بالخطبة المخزية أو الحرب المجلية؛ فأما الخطبة المخزية فأن يقرؤا بأن من قُتل منهم في النار؛ ومن قتل منا في الجنة، وأن يُدوا^(٣) قتلانا ونغنم ما أخذنا منهم، وأن ما أخذوا منا مردود علينا، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم " ^(٤)..

ويختلف المؤرخون في تحليلهم أسباب حركة الردة فيردها بعضهم إلى جانب بعينه ويردها آخرون إلى جانب آخر، والحق أن حركة ضخمة كحركة الردة

(١) راجع: ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٧٩/٢، ابن حجر: فتح الباري ٣٠٦/١٢

(٢) ابنة مخاض: هي ابنة الناقة حين تبلغ عامًا، وابنة لبون: هي ابنتها حين تبلغ عامين (ابن سلام غريب الحديث ٩٤/٣، ابن منظور: لسان العرب ٢٢٩/٧)

(٣) أي يدفعوا دياتهم..

(٤) ابن الأثير: الكامل ٢٠٥/٢

شغلت المسلمين قرابة عام لا يمكن ردها إلى عامل واحد، ولكنها كشأن كثير من حركات التاريخ تترد إلى عدة عوامل متشابكة يمكن إجمالها في العوامل التالية:

عوامل ظهور حركة الردة:

١- العامل الديني:

أسلمت معظم القبائل العربية خارج مثلث مكة والمدينة والطائف في العامين التاسع والعاشر للهجرة، وبقيت في مواطنها بعيدة عن المدينة المنورة، فلم تنهل قسطاً كافياً من المعرفة بالإسلام، ولم تتعرض لقدر مناسب من الدعوة والتربية على مفاهيم الدين الجديد وقيمه.. فلما مات رسول الله ﷺ اهتزت عقائدهم الهشة، لقد أسر عيينة بن حصن . زعيم فزارة الذي عاون طليحة بن خويلد في رده . لما هزمته جيوش خالد، واقتيد إلى المدينة، فكان صبيان المدينة ينخسونه ويقولون: أي عدو الله؛ أكفرت بعد إيمانك ؟ فيقول: والله ما كنت آمنت بالله قط، وصدق الرجل؛ إذ كان إسلامه من قبل قولاً ظاهرياً لا حقيقة وراءه، ولا يرقى إلى درجة الإيمان^(١)..

وادعى بعض رجال القبائل النبوة، وسعى آخرون إلى التخفف من تكاليف الإسلام والزامات التدين، فأنكروا فرضية الزكاة، وحق ولي الأمر في جبايتها، وأطاعوا شح نفوسهم، فاصطدموا بصلافة موقف الصديق الذي أعلن في وضوح " لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه "، وقد أدرك الخليفة الأول أن التهاون في أحد أركان الإسلام وفروضة سوف يفتح الباب لمزيد من التهاون في فرائضه الأخرى، فكانت الزكاة أول هذه التكاليف التي استتقلتها قبائل العرب؛ ولكنها قد لا تكون الأخيرة..

(١) الطبري: السابق ٢٦٠/٣، وقد قال تعالى في وصف إسلام بعض هؤلاء الأعراب: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) (الحجرات: من الآية ١٤).

٢ - العامل السياسي:

ألف جُلُّ العرب في جاهليتهم الطويلة قبل الإسلام النزعة القبلية، فكانت القبيلة هي الوحدة السياسية والاجتماعية التي توجه حياتهم وتحدد مصيرهم، فلما عرفوا الإسلام عرفوا الوحدة السياسية والدولة المركزية، غير أن إحساسهم بهذه السلطة المركزية ظل خافتاً، إذ ظلت هذه القبائل تعيش في مضاربها كما كانت قبل الإسلام، ولم يجد في حياتها بعد إسلامها من مظاهر الانتماء السياسي للدولة الإسلامية الواحدة إلا وجود أحد الدعاة الذين كان رسول الله ﷺ يرسلهم لتعليمهم أحكام الدين الجديد، أو ذلك العامل على الصدقات الذي يأتيهم كلما استدار الحول ليجمع زكواتهم، فينفق منها على فقرائهم، ثم يحمل ما زاد عن ذلك إلى المدينة.. ولم يطل عهدهم بتلك المظاهر التي لم يألفوها؛ إذ سرعان ما قبض رسول الله ﷺ فعادت تلح عليهم نزعتهم الاستقلالية، ورأوا أن أبرز مظاهر التبعية السياسية للمدينة هي جباية الزكاة؛ فبادروا إلى التحلل من ذلك الرباط..

إن ذلك العامل السياسي قد حظي باهتمام بالغ من بعض المستشرقين الذين لا يدركون عمق الصلة في الإسلام بين الدين والدنيا، وشمول تشريعه للحياة، فقرر بعضهم أن كثيراً من حركات الردة لا تعد ردة بالمعنى الدقيق للكلمة؛ ولا تعدو أن تكون تمرداً سياسياً على سلطة المدينة والخليفة الجديد، وأن الامتناع عن دفع الزكاة للمدينة هو مظهر لذلك التمرد لا كفراً بفرضيتها ووجوبها^(١)، غير أن بعضهم مثل مونتجمري وات أدرك أن المؤرخين المسلمين كانوا على حق عندما اعتبروا الردة حركة دينية، وأن المستشرقين أخطئوا لما نظروا إلى "الدين" بمفهوم أوربي وليس عربياً، فالردة كانت "حركة ابتعاد عن النظام الإسلامي دينياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، وعليه فهي ضد الإسلام"^(٢)

(١) راجع: إلياس شوفاني: حروب الردة، دراسة نقدية في المصادر ص ١٠١ وما بعدها

(٢) السابق ص ١٠٥

لقد أدرك الصحابة أن هناك اختلافاً بين من ادعى النبوة كمسيلمة والأسود العنسي ومن امتنع عن الزكاة وأقر ببقية أركان الإسلام، فقد قال عمر: يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله، فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق (١) ..

ورأي أبي بكر هنا يعبر عن الفهم الشامل للإسلام، وعن أن للعقيدة محتواها المادي الذي ينبغي أن تعبر عنه، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن مانعي الزكاة كانوا البادئين بالعدوان على المدينة وعلى المسلمين الذين ظلوا على إسلامهم من قبائلهم؛ كما سيأتي، فضلاً عن امتناعهم المسلح عن طاعة الخليفة.. فإن كانوا منعوا الزكاة بشبهة أن الرسول ﷺ فقط هو المكلف بأخذها منهم (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) فقد استقر "الإجماع في حق من جحد شيئاً من الفرائض بشبهة فيطالب بالرجوع، فإن نصب القتال قوتل، وأقيمت عليه الحجة" (٢)، وأن أبا بكر "لم يعذرهم بالجهل لأنهم نصبوا القتال، فجهز إليهم من دعاهم إلى الرجوع؛ فلما أصروا قاتلهم" (٣) ..

ويتصل بالعامل السياسي ما يراه بعض المؤرخين . وقد يكونون على حق فيما يرون . من أن سجاح التميمية التي ادعت التنبؤ وهي في ديار أخوالها من تغلب في شمالي العراق؛ ثم قدمت في أنصارها إلى مضارب قبيلة تميم لتزيد من

(١) البخاري: الصحيح، كتاب استنابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، حديث رقم ٦٩٢٤، ٦٩٢٥

(٢) ابن حجر: فتح الباري ٢٩٢/١٢

(٣) السابق ٣٠٧/١٢

تأجج حركة الردة في هذه الأنحاء . كما سيأتي بيانه . لم تأت من هناك مدفوعة بكهانتها ومطامعها الذاتية فحسب؛ " وإنما انحدرت مدفوعة بتحريض الفرس وعمالهم في العراق، كي تزيد الثورة في بلاد العرب ضراماً، ليستعيدوا ما كان لهم في كثير من أرجائها من سلطان ... وقد يرجح رواية هؤلاء المؤرخين أن سجاح كانت الأنثى الوحيدة التي ادعت النبوة، وأن مثيلاتها اتخذت في كل العصور أداة للتجسس والدعاية، وأنها لم تلبث في بلاد العرب إلا ريثما بثت دعوة الانتفاض، ثم عادت إلى العراق فسكنت إلى حياتها بها " (١)، ويؤكد الأستاذ العقاد أن بني يربوع رهط سجاح كانوا أقرب بطون بني تميم إلى نفوذ فارس (٢)؛ وأنهم هم وبنو حنيفة كانوا ممن يعتزون بنفوذ الأكاسرة، وأن اختيارها من بين بني تغلب، وهم أخوالها، وفي بلادهم تزوجت، أدنى شيء إلى المعقول والمنظور؛ لأنهم أعداء بني بكر الذين تصدوا للفرس وهزموهم في وقعة ذي قار قبيل ظهور الإسلام، وأن رحلة سجاح إلى جزيرة العرب هي أولى الطلائع في حرب الأكاسرة والإسلام (٣) ..

٣- العامل القبلي:

وكان تأثير الاعتزاز بالانتماء القبلي ماثلاً في حركة الردة، فقد فهم بعض زعماء الردة أن وجود نبي من قريش قد بوأها مكانة عليّة بين قبائل العرب؛ حتى باتت نطالب الجميع بالطاعة لها، وترى أنها الأجدر بقيادة الدولة الإسلامية بعد وفاة رسول الله ﷺ، ولذا فقد سرت دعوى التنبؤ بين عدد من زعماء هذه التجمعات القبلية القوية في اليمن واليمامة وغيرها، يحسبون أن ذلك يفتح أمامهم سبل المجد، ويؤيّد قبائلهم مراتب الصدارة، ورأوا أنهم قادرون على ما قدر عليه محمد ﷺ، وأن

(١) هيكل: الصديق أبو بكر ص ١٣٦-١٣٧

(٢) عبقرية خالد ص ٦٣

(٣) السابق ص ٦٣-٦٥

المسألة كلها مسألة كهانة وأسجاع؛ وقيادة وأتباع " (١)، وبإدراك عديد من زعامات هذه القبائل . فضلاً عن عوامها وحلفائها . إلى تأييد ادعاءات هؤلاء المنتبئين من باب العصبية القبلية المتأصلة في نفوس العرب حديثي العهد بالإسلام..

وقد كان ادعاء النبوة أمراً جليلاً لا يركبه العرب من قبل، فقد قال أحد شيوخ بني عامر لقومه . الذين عرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام والنصرة قبل هجرته فرفضوا : " يا بني عامر؛ هل لها من تلافٍ.. والذي نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلي قط، وإنما لحق.. " (٢)، إلا أننا رأينا في جزيرة العرب . بعد نجاح دعوة الإسلام . عدة يدعون النبوة في وقت يسير، ووجدنا لهم أنصاراً من رجال قبائلهم يحتشدون خلفهم (٣)؛ فيشكلون خطراً جسيماً على الدولة الإسلامية، وقد كان بعضهم ممن ادعى النبوة في أخريات حياة النبي، مثل الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب في بني حنيفة باليمامة وطلحة بن خويلد في بني أسد.. وادعاها آخرون بعد وفاته ﷺ مثل سجاح التميمية وذي التاج لقيط ابن مالك الأزدي في عمان..

ومن أمثلة تأثير العصبية القبلية في تأجيج حركة التنبو أنه قد كان بين أسد وغطفان وطيء حلف في الجاهلية ثم انفض، فلما ادعى طلحة بن خويلد الأسدي النبوة أراد عيينة بن حصن زعيم غطفان تجديد الحلف القديم، فقام في غطفان فأعلن ذلك وأنه؛ ثم قال: " وإني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم،

(١) العقاد: عبقرية خالد ص ٦٢

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢ / ٢٦

(٣) لعله من المفيد هنا أن نقارن بين النبوة الصادقة لرسول الله ﷺ الذي رمته العرب عن قوس واحدة سنين عدداً، فلم يجتمع حوله في مكة طوال ثلاث عشرة سنة إلا عشرات الرجال المضطهدين والمطاردين، وظلوا بعد هجرتهم في جهاد طويل حتى فتحت مكة بعد نيف وعشرين سنة من البعثة، أما مدعو النبوة الكذابون فقد احتشدت خلفهم عصبياتهم في الحال، ثم انفضوا عنهم بعد أول هزيمة، كأنما حائط هُدم..

ومتابع طليحة، والله لأن نتبع نبياً من الحليقين أحب إلينا من أن نتبع من قريش، وقد مات محمد وبقي طليحة، فوافقته غطفان على رأيه (١) .. وتبعت كثير من هذه القبائل طليحة عصبية، فكان " أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطيء (٢) .. ولما سار خالد لقتال طليحة كانت معه طيء بعدما نجح زعيمهم عدي بن حاتم في إقناعهم بالعودة إلى الإسلام، فلما التقى الجمعان سألت طيء خالداً أن تقاتل قيساً حلفاء طليحة وألا تقاتل أسداً لما كان بينهم من حلف، فقال خالد: والله ما قيس بأوهى الشوكتين، اصمدوا لأي القبلتين أحببتم، فاعترض عدي على المنطق القبلي لأهله فنصحه خالد أن يترك قومه من طيء يقاتلون من هم أنشط لقتاله فإن " جهاد الفريقين جميعاً جهاد " (٣) ..

وقال أحد أصحاب مسيلمة . واسمه طلحة النّمري : "أشهد أنك كذاب، وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر" (٤) !! .. وكان مسيلمة نفسه لما ادعى النبوة في أواخر حياة رسول الله ﷺ أرسل إليه يقول: " لنا نصف الأمر؛ ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون " (٥) ..

حركة الجهاد ضد المرتدين:

يصعب الفصل في دراسة جهاد المسلمين ضد حركة الردة بين مواجهتهم نوعي الردة: منع الزكاة والتنبؤ، بسبب التداخل بين حركة الجيوش الإسلامية في مواجهة كلا الفريقين، والتحالف الذي كان يتم بين زعامات المرتدين ومناعي الزكاة.. وعلى ذلك جرت دراسة كلا النوعين في مصادرنا الأولى، فكان اتباع

(١) الطبري: السابق ٢٥٧/٣

(٢) ابن الأثير: الكامل ٢٠٦/٢

(٣) الطبري: السابق ٢٥٥/٣

(٤) السابق ٢٨٦/٣

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ٦٦/٣

الترتيب التاريخي مع مراعاة وحدة الحدث والموضوع هو الأقرب للسلامة والوضوح.. وذلك ما سنلتزمه في الصفحات التالية..

حرب مانعي الزكاة القريبيين من المدينة:

تجمعت هذه القبائل التي تقطن على مقربة من المدينة وعلى رأسها فزارة وغطفان وأسد وعبس وناس من كنانة وغيرهم، وقد أضمروا الامتناع عن أداء الزكاة، فاجتمعوا قريباً من المدينة فافترقوا فرقتين؛ أقامت واحدة بالأبرق (١) وصارت الأخرى إلى ذي القصة (٢)، وبدا نوع من التحالف بين طليحة المتبئ وأتباعه من جانب وهذه القبائل التي منعت الزكاة من جانب آخر، وأمدهم طليحة بأخيه حبال فكان أميراً عليهم، وأرسلوا إلى المدينة يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة، فقال أبو بكر: لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه، وردّهم فرجع ودهم، وكان جيش أسامة قد سار إلى الشام فأخبروا قومهم بقله من في المدينة فأطمعوهم فيها، وتأهب أبو بكر بعد مسيرهم فجعل على أنقاب المدينة جماعة من كبار الصحابة في جماعة من المقاتلين، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد خوف الغارة من العدو لقربهم، فما لبثوا إلا ثلاثاً حتى طرقت المدينة غارة مع الليل، وخلفوا بعضهم بذي حسي (٣) ليكونوا لهم رداءً، فوجدوا الحرس على أنقاب المدينة فصدوهم، وبلغ الخبر أبا بكر فخرج في أهل المسجد على إبلهم فتراجع المغيرون واتبعهم المسلمون حتى بلغوا ذا حسي، فخرج إليهم الردء بأنحاء (٤) قد نفخوها، وجعلوا فيها الحبال، ثم دفعوها بأرجلهم في وجوه الإبل، فنفرت أبل المسلمين وهم عليها، فلم يملكو أمرها إلى المدينة، ولم يُصب منهم أحد، فظن القوم بالمسلمين الوهن،

(١) موضع كان من منازل بني ذبيان

(٢) موضع على بريد من المدينة

(٣) وادٍ بديار عبس وغطفان

(٤) الأنحاء: القرب

وبعثوا إلى أهل ذي القصة بالخبر، فقدموا إليهم، وهم لا يشعرون . لأمر الله عز وجل . الذي أَرادَه، وأحب أن يبلغه فيهم، فبات أبو بكر في جنده ليلته يتهياً، ثم خرج آخر ليلته فباغت المرتدين مع مطلع الفجر، فما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً، حتى وضع المسلمون فيهم السيف، فما أشرقت الشمس إلا وقد ولوا الأدبار، وقتل حبال بن خويلد أخو طليحة المتنبئ^(١)، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة، وترك بها جماعة من جيشه، ثم عاد إلى المدينة، فذل المرتدون، وكان أول فتح للمسلمين، ووثب المرتدون من بني نبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة، وفعل من وراءهم فعلهم، فحلف الصديق ﷺ ليقتلن في المشركين كل قتلة، وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة، وكان لذلك النصر الأثر العجيب في نفوس المسلمين الذين زادوا يقيناً وثباتاً، ونفوس المرتدين الذين زادوا ذلة وصغاراً، فبادر كبارؤهم بإرسال صدقات قومهم إلى المدينة، ففي الليلة التي أعقبت النصر طرقت المدينة صدقات من جماعات من تميم وطيء^(٢)

قدم جيش أسامة بعد تلك الواقعة بأيام، وقيل: كانت غزوته وعودته في أربعين يوماً أو سبعين، فلما قدم أسامة استخلفه أبو بكر على المدينة ومعه جنده ليستريحوا ويريحوا ظهورهم، ثم خرج أبو بكر فيمن كان معه فقال له المسلمون: ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرض نفسك؛ فإنك إن تُصب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشد على العدو، فابعث رجلاً؛ فإن أصيب أمّرت آخر، فقال: لا والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي، وسار حتى قاتل من بالأبرق من المرتدين، فهزمهم الله ففرت عبس وبنو بكر، وأقام أبو بكر بالأبرق أياماً، وغلب على بني

(١) زعم ابن الأثير: الكامل ٢/٢٠٩ أن حبالاً قتل فيما بعد بيد طليعة جيش خالد الذي توجه لقتاله

(٢) الطبري: السابق ٣/٢٤٤-٢٤٧، ابن الأثير: السابق ٢/٢٠٦-٢٠٧

ذبيان وبلادهم، وحماها لدواب المسلمين وصدقائهم، ولجأت عبس وذبيان إلى طليحة وهو مقيم في بُزَاخَة (١)، وعاد أبو بكر إلى المدينة (٢)..

أبو بكر يوجه أحد عشر جيشًا لقتال المرتدين:

بعدما جمَّ جيش أسامة وعاد أبو بكر مظفرًا وجَّه أحد عشر جيشًا عقد لِقَادَتِهَا الْأَوْلِيَةَ عَلَى النُّحُو التَّالِي:

عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة ومن ارتد معه من بني تميم إن أقام له..

وعقد لعكرمة بن أبي جهل؛ وأمره بحرب مسيلمة الكذاب في اليمامة.

وعقد للمهاجر بن أبي أمية وأمره بحرب المرتدين باليمن وحضرموت.

وعقد لخالد بن سعيد بن العاص وأمره بالتوجه إلى مشارف الشام.

وعقد لعمر بن العاص وأرسله إلى قضاة.

وعقد لحذيفة بن مِحْصَن الغلفاني وأمره بالتوجه إلى أهل دَبَا (٣)..

وأمر عَزْرَجَةَ بن هُرْثَمَةَ بالتوجه إلى المرتدين في مَهْرَةَ بنو نواحي عمان.

وبعث شُرْحُبِيل بن حَسَنَةَ في أثر عكرمة بن أبي جهل، وقال: إذا فرغ من اليمامة فالحق بقضاة.

وعقد لَطْرَيْفَةَ بن حاجز وأمره ببني سُليْم ومن معهم من هوازن.

وعقد لِسُوَيْد بن مَقْرَن وأمره بالتوجه إلى تهامة اليمن.

وأمر العلاء بن الحضرمي بالتوجه لحرب المرتدين بالبحرين.

وكتب أبو بكر إلى كل أمير من أمرائه بعهدده بتقوى الله وبدعوة المرتدين إلى الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإلا قتلهم وجدَّ في قتالهم، حتى يقرؤا له؛ فإن فعلوا

(١) ماء لبني أسد بأرض نجد

(٢) الطبري: السابق ٢٤٧/٣-٢٤٨، ابن الأثير: السابق ٢٠٧/٢

(٣) سوق من أسواق العرب بعمان

أخذ ما عليهم وأعطاهم الذي لهم، وأمره بالعدل في جنده والرفق بهم، والاحتراس من عيون الأعداء وجواسيسهم، وكتب إلى المرتدين كتابًا واحدًا نكّرهم فيه بفضل الله عليهم بالإسلام، وأنه " كل من لم يهده الله ضال، وكل من لم يُعافه مبتلى، وكل من لم يُعنه الله مخذول، وأني بعثت إليكم فلاتًا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان؛ وأمرته ألا يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الإسلام، فمن استجاب لله وأقر وكفّ وعمل صالحًا قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك، ثم لا يبقي على أحد منه قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار، ويقتلهم كل قتلة، وأن يسبي النساء والذراري، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم، والداعية الأذان، فإذا أذن المسلمون فأذّنوا كُفّوا عنهم، وإن لم يؤذّنوا عاجلوهم، وإن أذّنوا أسألوهم ما عليهم (يعني الزكاة) فإن أبوا عاجلوهم.. " (١) ..

خبر طليحة بن خويلد الأسدي:

كان طليحة بن خويلد الأسدي من بني أسد بن خزيمة قد تنبأ في حياة رسول الله؛ فوجه إليه النبي ﷺ ضرار بن الأزور عاملاً على بني أسد، وأمرهم بالقيام على من ارتد، فضعف أمر طليحة حتى لم يبق إلا أخذه، ومات النبي ﷺ في هذه الأثناء فغلظ أمر طليحة وتبعه كثير من العرب عصبية، وكان أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطيء وفزارة (٢) ..

كان على خالد بن الوليد أن يتوجه إلى طيء ثم إلى طليحة ببزاة، ثم إلى مالك بن نويرة بالبطح، وأرسل أبو بكر عدي بن حاتم سيد طيء إليهم قبل خالد ليدعوهم إلى العودة إلى الإسلام، وقد أفلح عدي في مسعاه، فجنّب قبيلته الصراع الدامي ولحقت بجيش خالد، وتوجه خالد بعدها إلى بزاة لحرب طليحة

(١) الطبري: السابق ٢٤٨/٣-٢٥٢

(٢) راجع ابن الأثير: الكامل ٢٠٦

ابن خويلد، وكان عُيَيْنة بن حصن في سبعمائة من بني فزارة يقاتلون مع طليحة؛ فلمي التقى الجيشان وهزت عيينة الحرب كَرَّ على طليحة وهو متلفف في كسائه يتنبأ لهم، فقال له: هل جاءك جبريل بعد ؟ فقال: لا، وفعل عيينة ذلك مرتين، فلما أعياه الأمر وطحنته الحرب جاءه الثالثة فقال: نعم، قال: ماذا قال لك ؟ قال: قال لي: " إن لك رحا كرحاه؛ وحديثاً لا تنساه "، فقال عيينة: أظن أن قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنساه، يا بني فزارة هكذا فانصرفوا، فهذا والله كذاب، فانصرفوا وانهزم الناس، فغشوا طليحة يقولون: ماذا تأمرنا ؟؟ فقام ووثب على فرس كان قد أعده؛ وحمل امرأته؛ ثم نجا بها وقال: " من استطاع منكم أن يفعل مثلما فعلت وينجو بأهله فليفعل "، ثم لحق بالشام وانفض جمعه.. وقتل من قتل منهم، وأسلمت أسد وغطفان ليحرزوا أنفسهم وعيالهم، وكانت بنو عامر وقبائل من سليم وهوازن تتربص بالفريقين تنتظر إلى من ستكون الدائرة، فلما رأوا نصر المسلمين أقبلوا يقولون: ندخل فيما خرجنا منه؛ ونؤمن بالله ورسوله؛ ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا^(١).. فقبل خالد منهم إسلامهم كما قبل من أسد وغطفان، وكان خالد قد اشترط عليهم أن يسلموه الذين حرقوا ومثّلوا بالمسلمين فأسلموهم، فقتلهم خالد كل قتلة، وأسر عيينة بن حصن وقرّة بن هبيرة سيد بني عامر فأرسلهما إلى المدينة، وكانت يدا عيينة مجموعة إلى عنقه بجبل، ومضى غلمان المدينة ينخسونه بجريد النخل ويقولون: أي عدو الله؛ أكفرت بعد إيمانك ؟ فيقول: والله ما كنت آمنت بالله قط، يعني أن إسلامه من قبل كان رقيقاً لا يبلغ حد الإيمان، فتجاوز عنه أبو بكر وحقق دمه، وفعل مثل ذلك مع قرّة بن هبيرة^(٢)

سار طليحة إثر هزيمته إلى الشام؛ فلما بلغه إسلام أسد وغطفان وعامر أسلم هو أيضاً، ثم خرج إلى مكة معتمراً في إمارة أبي بكر، ومرّ بجنابات المدينة؛

(١) الطبري: السابق ٢٥٣/٢-٢٥٦، ابن الأثير: السابق ٢٠٨/٢-٢٠٩

(٢) الطبري: السابق ٢٦٠/٣، ٢٦٢-٢٦٣، ابن الأثير: السابق ٢٠٩/٢-٢١٠

فقيل لأبي بكر: هذا طليحة، فقال: ما أصنع به؟ خلوا عنه؛ فقد هداه الله للإسلام، فلما عاد طليحة من عمرته كان أبو بكر قد مات واستخلف عمر فقال له عمر: أنت قاتل عكاشة وثابت^(١)؟ والله لا أحبك أبدًا، فقال: يا أمير المؤمنين ما يهْمُك من رجلين أكرمهما الله بيدي؛ ولم يُهَيَّي بأيديهما! فبايعه عمر^(٢)..

ردة أم زمل الفزارية:

واجتمع فُلَّالُ أسد وغطفان وهوازن وسُلَيْمٍ وطِيء ممن انهزم وأبى الإسلام إلى أم زمل سلمى مالك بن حذيفة بن بدر من بني فزارة؛ وكانت أمها أم قُرُوفَة من أشرف العرب؛ يُضرب بها المثل في العزة والشرف لكثرة أولادها وعزة بيتها؛ فلما اجتمعوا إليها حرصتهم على حرب خالد فهاجوا لذلك، وغلظ جمعهم، واستفحل خطرهم، فسار إليها خالد والتقى بجيشها وهي على جمل أمها . الذي كان يقال عنه: إن من نخسه له مائة من الإبل لعزها . وقد أحدق به فرسان قومها يمنعونها، فقتل حوله مائة فارس ثم أمر خالد بعقره فانهزموا، وقتلت أم زمل، وبعث خالد إلى الخليفة بالفتح^(٣)..

خبر الفجاءة:

ومن هؤلاء المرتدين الفجاءة إياس بن عبد ياليل من بني سليم، وكان قد قدم على أبي بكر يُخادعه؛ فقال: أعنِّي بسلاح ومرني بقتال من شئت من أهل الردة، فأعطاه سلاحًا وأمره بأمره، فترك ما أمره به ومضى يقتل من وجده في طريقه من المسلمين والمرتدين من سليم وعامر وهوازن؛ ويأخذ أموالهم، وبلغ ذلك أبا بكر

(١) عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم من سادات المسلمين؛ كان خالد قدمهما طليحة بين يديه في زحفه لحرب طليحة فقتلهم طليحة قبل نشوب القتال..

(٢) الطبري: السابق ٢٦١/٣، ابن الأثير: السابق ٢٠٩/٢

(٣) الطبري: السابق ٢٦٣-٢٦٤، ابن الأثير: الكامل ٢١١/٢، ابن كثير: البداية والنهاية ٣/٨٦٥-

فثارت ثأثرته لتلك الاستهانة وذلك الاجتراء، فأرسل إلى طُريفة بن حاجز يأمره بمناجزته؛ فظفر به وأسره، وقدم به إلى أبي بكر؛ فأمر فأوقدت له نار في مصلى المدينة ثم رُمي فيها مقموطاً (١) ..

ردة سجاح وبني تميم:

اختلفت آراء بني تميم إزاء الردة فمنهم من ارتد ومنع الزكاة؛ ومنهم من بعث بها إلى أبي بكر، ومنهم من توقف لينظر في أمره، وعسكرت جيوش المسلمين قريباً منهم على رأسها ثُمَامَة بن أثال؛ ثم وافاه عكرمة بن أبي جهل؛ فبينما هم على ذلك إذ أقبلت سجاح بنت الحارث بن سُويد بن عُقْفان التميمية في أخوالها من بني تغلب بالجزيرة العراقية؛ وكانوا نصارى (٢)، وكانت هي راسخة في النصرانية (٣) غير أنها في حمى التنبؤ التي سرت في جزيرة العرب آنذاك ادعت النبوة والتف حولها كثير من قومها؛ وعزموا على غزو المسلمين بالمدينة، فلما مرت ببلاد تميم دعتهم إلى أمرها فاستجاب لها عامتهم وجماعة من زعمائهم مثل مالك بن نويرة وشبث بن ربعي وعطار بن الحاجب الذي قال:

أُمت نبيئنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا (٤)

وتخلف آخرون من بني تميم عنها، ثم اصطلحوا على ألا حرب بينهم؛ إلا أن مالك بن نويرة لما وادعها ثناها عن المخاطرة بغزو المدينة، ووادعها أيضاً وكيع بن مالك التميمي، وانتقوا على مهاجمة خصومهم من بني تميم ممن لم ينضم إليهم، فكانت بينهم قتلى وأسارى، ثم تصالح الفريقان، وأخيراً أشارت سجاح إلى أتباعها بمهاجمة اليمامة، وفيها بنو حنيفة وزعيمهم مسيلمة الكذاب أعظم هؤلاء

(١) أي شدت يده إلى رجليه بحبل. راجع الطبري: السابق ٢٦٤/٣، ابن الأثير: السابق ٢١١/٢

(٢) الطبري: السابق ٢٦٧-٢٦٩، ابن الأثير: السابق ٢١٤/٢

(٣) الطبري: السابق ٢٧٢/٣

(٤) السابق ٢٧٤/٣

المتنبئين خطرًا وشوكة، فخاف مسيلمة إن تشاغل بها أن تهاجمه جيوش المسلمين الرابضة بالقرب منه تنتظر قدوم خالد؛ فأرسل إليها أن تؤمنه حتى يأتيها، فجاءها في أربعين من بني حنيفة فقال لها: لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لو عدلت، وقد رده الله عليكِ النصف الذي ردتُ قریش فحباكِ به، فوافقته، وظل أحدهما يسمع سجع الآخر مما يزعم أنه أوحى إليه، وقيل إنه عرض عليها الزواج فقبلت، وجعل مهرها أن أسقط عن أتباعها صلاتي الفجر والعشاء، وهكذا تم الصلح بين سجاح ومسيلمة على أن يحمل إليها نصف غلات اليمامة، وأبت إلا أن تحمل نصيبها من هذه الغلات للعام المقبل، فوافقها على أن تحمل هي نصف غلات العام وتترك عنده من يجبي لها نصف غلات العام القادم، ومضت سجاح إلى الجزيرة على ذلك غير أن دنو خالد بن الوليد من اليمامة جعل أتباعها الباقين يبادرون بالهرب، ولم تنزل سجاح في بني تغلب، وقيل إنها أسلمت بعد وحسن إسلامها^(١)..

خبر مالك بن نوية:

لما رجعت سجاح إلى الجزيرة العراقية ندم مالك بن نوية وتحرّر في أمره، وتحرك خالد في قواته نحو البطح موطن بني تميم؛ فاستقبله زعماءهم بما عليهم من صدقات؛ وعادوا إلى الإسلام، وبقي مالك بن نوية فيمن تجمع إليه متحيزًا.. وكان خالد حين أراد التحرك نحو مالك بن نوية وبني تميم خالفت عليه الأنصار؛ وقالوا ما هذا بعهد الخليفة إلينا، إن الخليفة عهد إلينا إن نحن فرغنا من البرازحة (يعنون: حرب طليحة الأسدي) واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا، فقال خالد: إن يك عهد إليكم هذا فقد عهد إليّ أن أمضي، وأنا الأمير، وإليّ تنتهي الأخبار، ولو أنه لم يأتيني له كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فاتتني لم أعلمه حتى أنتهزها، كذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه لن ندع

(١) السابق ٢٧١/٣-٢٧٥، ابن الأثير: السابق ٢١٤-٢١٦

أن نرى أفضل ما بحضرتنا ثم نعمل به، وهذا مالك بن نويرة بحياننا، وأنا قاصد إليه، ومن معي من المهاجرين والتابعين بإحسان، ولست أكرهكم، ومضى خالد، وندمت الأنصار وقالوا: إن أصاب القوم خيرًا إنه لخير حرتموه، وإن أصابتهم مصيبة ليجتنبكم الناس، فلحقوا بخالد (١)، ويروي سيف بن عمر أن خالدًا سار إلى البطاح فلم يجد هناك أحدًا، ووجد مالكًا قد فرقهم ونهاهم عن الاجتماع حين تردد عليه أمره، وبتَّ خالد سراياه فأمرهم . حسب وصية الخليفة . بالأذان للصلاة، وأن يأتيه بكل من لم يُجب، فجيء له بمالك بن نويرة في نفر من قومه، فاختلفت فيهم السرية . وفيهم أبو قتادة الأنصاري . فكان فيمن شهد أنهم قد أذّنوا وأقاموا وصلوا، فلما اختلف فيهم أمر بهم خالد فحُبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء، وجعلت تزداد بردًا، فأمر خالد منادياً فنادى: " أذفنوا أسراكم "، وكلمة أذفنوا في لغة كنانة تعني: اقتلوا، فظن القوم أنه أراد قتلهم فقتلوهم ومعهم مالك بن نويرة، فسمع خالد الواعية (٢) فخرج وقد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمرًا أصابه، فقال أبو قتادة الأنصاري لخالد: هذا عملك، فزجره خالد؛ فمضى حتى أتى أبا بكر، فغضب عليه الصديق لمغادرته جيشه، وتشفع له عمر؛ فلم يرص أبو بكر إلا أن يرجع إلى خالد وجيشه الذي تركه ففعل (٣) ..

ورواية سيف بن عمر هذه تبدو متكلفة حين تقترض أن النفر الذين أمرهم خالد بإدفاء أسراهم كانوا من كنانة؛ وأنهم أساءوا المقصود من أمره فقتلوه، وأن خالدًا تأخر في الخروج إليهم حتى فرغوا من قتلهم.. ويزيد من ضعف هذه الرواية ما شملته من عناصر المبالغة والشطط، مثل زعمها بأن عسكر خالد جعلوا رءوس

(١) الطبري: السابق ٢٧٦/٣-٢٧٧

(٢) الجليلة والصراخ على الميت

(٣) الطبري: السابق ٢٧٧/٣-٢٧٨

مالك وأصحابه أثنافي للقدور؛ فما منهم رأس إلا وصلت النار إلى بشرته ما خلا مالكا؛ فإن غزارة شعره أنضجت القدر؛ وما نضجت رأسه (١) ..

وقد روى ابن إسحق بسنده رواية هي أقرب إلى الصحة؛ حيث ذكر أن أبا قتادة كان يحدث أنهم لما باغتوا القوم ليلاً بادروا إلى أسلحتهم " فقلنا: نحن المسلمون، فقالوا: ونحن المسلمون، قلنا: فما بال السلاح معكم ؟ .. فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح، فوضعوها، ثم صلينا وصلوا، وكان خالد يعتذر في قتله أنه قال له وهو يراجع: ما إخال صاحبكم . يعني رسول الله ﷺ . إلا وقد كان يقول كذا وكذا، فقال خالد: أو ما تعده لك صاحباً ؟ ثم قدمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه " (٢).

وعلى أية حال لم يكن مالك ذلك الرجل المسلم الذي يؤكد تاريخه إسلامه، وقد مر بنا تحالفه مع سجاح، وتباطؤه عن بقية قومه حين استقبلوا خالدًا بصدقاتهم لما علموا بمسيره إليهم، واعتذارهم له، ولو كان مسلماً حقاً لفعل كما فعلوا، أو إن الرجل كان متردداً متشككاً حتى ظهر تردده وشكته في فلتة لسانه أمام خالد فعاجله بالقتل؛ ولم يتريث ليتحقق من صدق عقيدته، لذلك دفع أبو بكر ديبته وعذر خالدًا بما فعل ..

وقد تزوج خالد أم تميم ابنة المنهال امرأة مالك بعد انقضاء عدتها، وكانت العرب تكره تزوج النساء في الحروب وتتعايره، فقال عمر لأبي بكر: إن في سيف خالد رهقاً - أي عجلة وظلماً - فإن لم يكن هذا حقاً حق عليه أن يُقَيِّده، وأكثر عليه في ذلك، فقال أبو بكر: هيه يا عمر! تأول فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد، وقال أبو بكر: لم أكن لأشيم سيفاً سلَّه الله على الكافرين، وودى مالكا (٣)، وكتب

(١) السابق ٣ / ٢٧٩

(٢) السابق ٣ / ٢٧٩ - ٢٨٠

(٣) أي دفع ديبته.

إلى خالد أن يقدم عليه ففعل، وأخبره خبره، فعذره وقبل منه، وعنقه على التزويج الذي كانت تعيب عليه العرب (١) ..

وكان خالد لما استقدمه أبو بكر إلى المدينة دخل المسجد وعليه قناب، قد علاه صدأ الحديد، معتجراً بعمامة قد غرز فيها أسهماً (٢)، فقام إليه عمر فنزع أسهمه فحطمها؛ وقال: أرئاء! قتلت امرأ مسلماً ثم نزوت على امرأته؟ والله لأرجمنك بأحجارك، فلم يكلمه خالد إذ ظن أن رأي أبي بكر فيه مثل رأي عمر، فلما دخل على الخليفة وعذره وتجاوز عما كان منه خرج خالد إلى المسجد فقال لعمر: هلم إلي، فعرف أن أبا بكر قد رضي عنه فلم يكلمه (٣) ..

ردّة مسيلمة الكذاب:

مسيلمة زمن النبي ﷺ:

روى البخاري عن ابن عباس قال: قدم مسيلمة الكذاب (٤) على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته، وقدمها في بشر كثير من قومه، فأقبل عليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس؛ وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد؛ حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال: " لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، إنني أراك الذي أريت فيه ما رأيت، وهذا ثابت يجيبك عني"، ثم انصرف عنه (٥)، وقال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله ﷺ: "إنك الذي أريت فيه ما رأيت"، فأخبرني أبو هريرة أنه ﷺ قال: بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب؛ فأهمّني

(١) الطبري: السابق ٢٧٨/٣-٢٧٩، ابن الأثير: السابق ٢١٦/٢-٢١٧

(٢) قال ابن كثير: إن الأسهم كانت مضمخة بدماء قتلاه..

(٣) الطبري: السابق ٢٨٠/٣، ابن كثير: السابق ٨٧٠/٣

(٤) هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بني حنيفة، ادعى النبوة سنة عشر للهجرة)

راجع ابن حجر: فتح الباري ٧ / ٦٩١).

(٥) البخاري: كتاب المناقب حديث رقم ٣٦٢٠، وانظر رقم ٤٣٧٣، ٧٠٣٣، ٧٤٦١

شأنهما، فأوحى إليّ في المنام أن انفخهما؛ فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان بعدي: أحدهما العنسي والآخر مسيلمة^(١).

وروى ابن إسحق بسند مجهول عن شيخ من بني حنيفة من أهل اليمامة ^(٢) أن وفد بني حنيفة أتوا رسول الله ﷺ وخلفوا مسيلمة في رحالهم، فلما أسلموا ذكروا مكانه فقالوا: يا رسول الله، إنا قد خلفنا صاحبنا لنا في رحالنا وفي ركابنا يحفظها لنا، فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم وقال: " أما إنه ليس بشركم مكاناً، " أي لحفظ ضيعة أصحابه، وذلك الذي يريد رسول الله، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ وجاءوه بما أعطاه، فلما انتهى إلى اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ وتكذب لهم، وقال: إني قد أشركت في الأمر معه، وقال لوفده الذين كانوا معه: ألم يقل لكم حين ذكرتوني له: إنه ليس بشركم مكاناً، وما ذلك إلا لما كان يعلم أنني قد أشركت في الأمر معه، ثم جعل يسجع لهم الأساجيع، وأحل لهم الخمر والزنا ووضع عنهم الصلاة، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ بأنه نبي، فأصفت معه بنو حنيفة على ذلك ^(٣)..

ورواية ابن إسحق قد رويت عن مجهول، وتعارضت ظاهرياً مع ما في الصحيح من أن رسول الله ﷺ هو الذي ذهب إلى مسيلمة وحدثه وحذره، وفي أنها تدعي مطالبة مسيلمة بالشركة مع رسول الله ﷺ في الرسالة، بينما الذي في الصحيح أنه اشترط لاتباعه ﷺ أن يكون له الأمر من بعده، على أنه يمكن الجمع بين الروایتين إذا افترضنا أن إقامته في رحالهم كانت "باختياره، أنفة منه واستكباراً أن يحضر مجلس النبي ﷺ، وعامله ﷺ معاملة الكرم على عادته في الاستئلاف، فقال لقومه: إنه ليس بشركم؛ أي بمكان، لكونه كان يحفظ رحالهم، وأراد استئلافه

(١) السابق كتاب المغازي، حديث رقم ٤٣٧٤

(٢) تقع اليمامة في منتصف الطريق بين مكة والمنطقة التي كانت تعرف بالبحرين، الواقعة على ساحل الخليج العربي.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/١٦٠-١٦١

بالإحسان بالقول والفعل، فلما لم يُفد في مسيلمة توجه بنفسه إليهم؛ ليقم عليهم الحجة ويُعذر إليه بالإنذار " (١) .. ولعل تهديد النبي ﷺ له لم يكن على مأل من قومه فيتصدوا لأكاذيبه فيما بعد وهم على بينة من الأمر.. ولا تعارض بين اشتراط مسيلمة على النبي ﷺ جعل الأمر له من بعده وزعمه الشركة في الرسالة؛ فهو لم يزعم ذلك ويتنبأ إلا بعد أن عاد إلى بلده، وبخاصة بعدما شهد له بذلك الرجال نهار بن عُنُقوة . أحد زعماء بني حنيفة . وكان قد أسلم وصحب النبي ﷺ مدة، وألقى إلى مسيلمة شيئاً مما كان يحفظه من القرآن؛ فادعاه لنفسه، فكانت فتنة بني حنيفة بالرجال أعظم من فتنهم بمسيلمة (٢) ..

وجاهر مسيلمة بدعواه حتى إنه أرسل إلى النبي ﷺ: " بكتاب يقول: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله؛ سلام عليك؛ أما بعد فإنني قد أشركت في الأمر معك، فإن لنا نصف الأمر ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون"، فرد عليه رسول الله ﷺ " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين "، وسأل رسولي مسيلمة: وأنتما تقولان مثلما يقول؟ قالوا: نعم، قال: أما والله لولا أن الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما (٣) ..

حرب مسيلمة:

وجه أبو بكر عكرمة بن أبي جهل لحرب مسيلمة؛ ثم أتبعه بشرحبييل بن حسنة؛ فتعجل عكرمة لمصادمة مسيلمة ولم ينتظر شرحبييل فلاحقت به الهزيمة،

(١) ابن حجر : فتح الباري ٦٩١/٧

(٢) مرّ رسول الله ﷺ على الرجال وهو جالس مع أبي هريرة وقرات بن حيان فقال لهم: " إن أحدكم ضرسه في النار مثل أحد "، فلم يزلوا خائفين حتى ارتد الرجال مع مسيلمة وشهد له زوراً أن رسول الله ﷺ أشركه في النبوة والرسالة، ويروى اسم الرجال: الرجال بالجيم كما في معظم روايات الطبري وابن الأثير، والأرجح أنه بالحاء المهملة (راجع الطبري: السابق ٢٨٩/٣، ابن كثير: السابق ٦٥ /٣)

(٣) ابن كثير: السابق ٦٦/٣

فلما علم شرحبيل بما حدث أقام مكانه وأرسل إلى الخليفة بما حدث، وأرسل إليه عكرمة بالخبر فنها أن يعود إلى المدينة منهزمًا لئلا يوهن الناس، وأمره أن يتجه ليساند جيوش المسلمين في قتال المرتدين بعمان، وكتب إلى شرحبيل يأمره بانتظار قدوم خالد إليه (١) ..

ولما قدم خالد على أبي بكر وترضاه بعدما كان من قتل مالك وجهه إلى مسيلمة وحشد معه الناس، إذ كان الخليفة يدرك قوة بني حنيفة وعناد مسيلمة، وتعجل خالد حتى قدم على عسكره الذي تركه في البطاح منذ فرغ من أمر بني تميم؛ وأقام ينتظر المدد القادم من المدينة، فلما أتوه مضى بهم إلى اليمامة وبها نحو أربعون ألف مقاتل من بني حنيفة (٢) عسكر بهم مسيلمة في طرف اليمامة وجعل الريف وراء ظهره، وأمر على مجنبتني جيشه المحكم بن الطفيل ونهار الرحال بن عنفة، أما خالد فقد قدم أمامه شرحبيل بن حسنة وجعل على مجنبتيه زيد بن الخطاب . أخا عمر رضي الله عنه . وأبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة.. ولما كان خالد على مسيرة ليلة من عسكر مسيلمة أسر جماعة من بني حنيفة فيهم مجاعة بن مزارة . أحد زعمائهم . فسألهم خالد: ما تقولون ؟ فقالوا: منا نبي ومنكم نبي فضرِب خالد أعناقهم، ولم يستبق إلا مجاعة إذ قال له أحدهم: إن كنت تريد بأهل اليمامة عدًا خيرًا أو شرًّا فاستبق هذا ولا تقتله، فحبسه خالد عنده كالرهينة، وأوثقه، ودفعه إلى امرأته أم تميم، وأوصاها به خيرًا (٣) ..

والتقى الناس فكانت الحرب الضروس التي لم يلق المسلمون مثلها قط في حروب العرب، فانهزموا أول الأمر حتى خلاص بنو حنيفة إلى فسطاط خالد؛ وقد زال خالد عنه؛ وفيه امرأته أم تميم وأسيرها مجاعة، وحمل أحدهم عليها بالسيف

(١) الطبري: السابق ٢٨١/٣

(٢) السابق والصفحة

(٣) الطبري: السابق ٢٨٦/٣-٢٨٩

فقال مجاعة: " مَهْ، أنا لها جار، فنعمت الخُرَّة، عليكم بالرجال "، فمزقوا الفسطاط بالسيوف، ثم إن المسلمين تداعوا فقال ثابت بن قيس: بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين، اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء . يعني أهل اليمامة . وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء . يعني المسلمين، ثم جالد بسيفه وهو يهتف في المسلمين: " يا معشر المسلمين؛ أنتم حزب الله وهم أحزاب الشيطان، والعزة لله ولرسوله ولأحزابه، أروني كما أريكم " حتى قُتل^(١)، وقال زيد ابن الخطاب حين رأى انكشاف الناس عن رجالهم: " لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم، أو ألقى الله فأكلمه بحجتي ! عضوا على أضراسكم أيها الناس؛ واضربوا في عدوكم، وامضوا قُدماً "، وقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: " يا أهل القرآن؛ زَيِّتوا القرآن بالفعال "، وقاتل حتى استشهد، وتناول سالم مولى أبي حذيفة راية المهاجرين وقد استشهد صاحبها عبد الله بن حفص، فقال سالم: ما أعلمني لأي شيء أعطيتمونيها، قلت: صاحب قرآن وسيثبت كما ثبت صاحبها قبله حتى مات، قالوا: أجل فانظر كيف تكون، قال: بئس حامل القرآن أنا إن لم أثبت " وصبر حتى قتل.. وقال خالد لما اشتد القتال: "أيها الناس امتازوا لنعلم بلاء كل حيٍّ، ولنعلم من أين نؤتى"، وتنافس المهاجرون والأنصار مع أهل البادية في القتال، وجبَّ بعضُهم بعضًا، فقال بعضهم لبعض: امتازوا كي نُستحيا من الفرار اليوم ونعرف من أين نؤتى، ففعلوا؛ فما رُئي يوم كان أحدًا ولا أعظم نكاية مما رُئي يومئذ، ولم يُدر أي الفريقين كان أشد فيهم نكاية.. فقال:الدائرة على بني حنيفة؛ وكان زيد بن الخطاب قد قتل الرجال بن عنفوة، فخر مسيلمة أبرز رجاله، وثبت هو؛ فدارت رحى الحرب عليه، فعرف خالد أنها لا تترك إلا بقتله، فبرز خالد ودعا إلى المبارزة ونادى بشعار المسلمين يومئذ وكان: " يا محمداه " فجعل لا يبرز له أحد إلا قتله، واشتد الخطب ببني حنيفة حتى حلت بهم الهزيمة، وركبهم الفرار، فقال خالد: دونكم لا تُقيلوهم، وهتف بنو

(١) السابق ٢٨٨/٣-٢٩١، وراجع البخاري: الصحيح، كتاب الجهاد والسير باب التحنط عند القتال..

حنيفة بمسيلمة: أين ما كنت تعدنا ؟ فقال: قاتلوا عن أحسابكم، وهكذا انفضح كذبه، فلا رسالة تَمَّ ولا نبوة، وإنما هي الحمية والعصبية..
وانحاز بنو حنيفة إلى حديقة لهم مسورة عُرِفَت فيما بعد بحديقة الموت لما أبيدوا فيها، وتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى دخلوها فأغلقوها عليهم، وأحاط بهم المسلمون، وصرخ البراء بن مالك: " يا معشر المسلمين، احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه، ففعلوا، فلما وضعوه على الحائط اقتحم على المرتدين فقاتلهم على الباب حتى فتحه للمسلمين، فدخلوه، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يروا مثله، ورمى عبد الرحمن بن أبي بكر المُحَكَّم بن الطفيل بسهم فقتله، وأببر من في الحديقة من بني حنيفة، وقُتِلَ مسيلمة، قتله وحشي بن حرب قاتل حمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنه يوم أحد ^(١)..

وبث خالد خيله فاستولت على ما وجدته من مال ونساء وصبيان، ثم نادى بالرحيل لينزل على حصون بني حنيفة، فخادعه مجاعة أسيره الذي استبقاه، فقال: إنه والله ما جاءك إلا سرعان الناس، وإن الحصون لمملوءة رجالاً، فهلمَّ لك إلى الصلح على ما ورائي، فصالحه على كل شيء يأخذه خالد دون النفوس، ثم استأذنه أن ينطلق إليهم ليشاورهم في هذا الصلح ! فدخل مجاعة الحصون وليس فيها إلا النساء والصبيان ومشixe فانية ورجال ضعفى، فظاهر الحديد على النساء وأمرهن أن ينشرن شعورهن وأن يشرفن على رءوس الحصون، ثم أتى خالدًا فقال: قد أبوا أن يجيزوا ما صنعت، وقد أشرف لك بعضهم نقضًا عليّ، وهم مني برآء، فنظر خالد إلى رءوس الحصون وقد اسودّت، وقد نهكت المسلمين الحرب، وطال اللقاء، وأحبوا أن يرجعوا على الظفر.. وقد قتل من المهاجرين والأنصار من أهل قسبة المدينة ثلاثمائة وستون؛ ومن غيرهم من المسلمين ستمائة أو يزيدون، بينما

(١) البخاري: السابق كتاب المغازي، حديث رقم ٤٠٧٢، وراجع في أحداث ذلك القتال: الطبري: السابق

قتل من بني حنيفة . فيما يزعم الرواة . في الفضاء بعقرباء سبعة آلاف، وفي الحديقة مثلهم، وفي الطلب بعد القتال نحو هؤلاء، فاصطاح خالد مع مجاعة على أن للمسلمين الذهب والفضة والسلاح ونصف السبي . وقيل: ربه . فلما فتحت الحصون ورأى خالد بها النساء والصبيان والضعفاء قال لمجاعة: ويحك، خدعتني!! فقال: هم قومي، ولم أستطع إلا ما صنعت، ووصلت رسالة أبي بكر إلى خالد تأمره أن يقتل كل محتلم، وكان قد صالحهم فوفى لهم ولم يغدر، ورغم ذلك فقد حاول أحد الموتورين منهم . واسمه سلمة بن عمير . اغتياه فلم يفلح، وتتابع الناس يبايعون خالدًا على البراءة مما كانوا عليه (١) ..

كانت خسائر بني حنيفة أضعاف المسلمين كما تقدم، غير أن جماعة من خيرة الصحابة قد أفناهم القتل يوم اليمامة مما ترك لوعة في نفوس المسلمين تتمثل في حوار عمر بن الخطاب وابنه عبد الله بن عمر . رضي الله عنهما . وكان قد شهد المعركة وسلم؛ على حين استشهد عمه زيد بن الخطاب، فقال له عمر: ألا هلكت قبل زيد ! هلك زيد وأنت حيّ ! فقال عبد الله: قد حرصت على ذلك أن يكون، ولكن نفسي تأخرت، فأكرمه الله بالشهادة، وقيل: إنه سأله: ما جاء بك وقد هلك زيد؟ ألا وارىت وجهك عني؟ فقال: سألت الله الشهادة فأعطيها؛ وجهدت أن تساق إليّ فلم أعطها (٢) ..

وكانت كثرة عدد الشهداء من الصحابة القراء من حملة القرآن سببًا في تفكير الصحابة في جمع القرآن وتدوينه وموافقة أبي بكر على ذلك .. ومن العجيب أن خالدًا في هذا الأجواء قد تزوج ابنة أسيره مجاعة، فبلغ ذلك أبا بكر فكتب إليه كتابًا يقطر بالدم يقول: لعمري يا ابن أم خالد إنك لفارغ؛

(١) الطبري: السابق ٢٩٣/٣-٣٠٠

(٢) السابق ٢٩٢/٣

تتكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل لم يجفف بعد !! فلما قرأ خالد الرسالة جعل يقول: هذا عمل الأعرس، يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١) ..

ردة الأسود العنسي باليمن:

الأسود العنسي هو عبهلة بن كعب بن عوف، وعنس بطن من مذحج؛ إحدى القبائل اليمانية الكبرى، ويُلقب بذئ الخمار إذ كان دائماً معتماً متخماً (٢). ولما مات باذان (أو بأدام عند بعض الرواة) (٣) عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم اليمن بين جماعة من الأمراء منهم شهر بن باذان الذي جعله أميراً على صنعاء وأرسل إليه معاذ بن جبل معلماً، وادعى الأسود العنسي النبوة بعدما عاد النبي صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع سنة ١٠ هـ، فاتبعته مذحج، وكان مشعباً يريهم الأعاجيب، فكانت ردة أول ردة في الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وظل يوسع سلطانه في منطقة اليمن حتى شمل ما بين مفازة حضرموت إلى الطائف ومناطق البحرين والإحساء إلى عدن، " واستطاع أمره كالحريق "، وقتل شهر بن باذان وتزوج امرأته آزاد.. وتجمع من ثبت على الإسلام في مناطق محدودة مثل حضرموت، وبين بعض التجمعات القبلية.

وجاء كتاب من النبي صلى الله عليه وسلم إلى من باليمن من أمرائه ومن والاهم من المسلمين يأمرهم بقتال الأسود، واستطاع بعضهم بالفعل اغتياله بمساعدة زوجته آزاد. وكانت من قبل امرأة لشهر بن باذان الأمير القتل. ونشبت بين أنصاره والمسلمين منازعة يسيرة انتهت إلى أن يتركوا للمسلمين ما بأيديهم ويترك لهم

(١) السابق ٣/٣٠٠

(٢) ابن الأثير: الكامل ٢/٢٠١

(٣) أسلم باذان بعدما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى يدعو إلى الإسلام فأمر كسرى باذان عامله على اليمن أن يبعث رجلين جليدين يأمران محمداً صلى الله عليه وسلم ويأتيانه به، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم الرسولين أن كسرى قد هلك، وأن ابنه شيرويه قد قتله وسلب ملكه، فرجعا إلى باذان بالخبر، فلما استوثق منه أعلن إسلامه ومعه جماعة من أبناء فارس باليمن، فعرفوا بالأبناء (ابن الأثير: السابق ٢/٩٧-٩٨)

المسلمون ما بأيديهم، وتراجع أمراء النبي ﷺ إلى أعمالهم، وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ بما حدث . وكان الوحي قد أعلمه به ليلة حدوثه . ولم تصل رسالهم إلا بعد وفاته، فتلقاهم أبو بكر، فكانت أول بشارة تأتيه بالمدينة..

غير أن أمور اليمن لم تلبث أن انتقضت من جديد عقب علمهم بوفاة النبي ﷺ (١).. واتجه إلى اليمن من قادة المسلمين عكرمة بن أبي جهل بعد فراغه من ردة مهرة . كما سيأتي . والمهاجر بن أبي أمية في جمع من مكة والطائف وجريز بن عبد الله البجلي في قبيلته بجيلة، وانضم إليهم من بقي على إسلامه من أهل اليمن، والتقت جيوش المسلمين مع قوات المرتدين والمتمردين هناك فهزمتها شر هزيمة، وأسروا قائديها قيس بن مكشوح وعمرو بن معديكرب؛ وقادوهما إلى أبي بكر، فقال الخليفة لقيس: قتلت عباد الله، واتخذت المرتدين والمشركين وليجة من دون المؤمنين، وهم بقتله، وقال لعمر: أما تستحي أنك كل يوم مهزوم أو مأسور؛ لو نصرت هذا الدين لرفعك الله، ثم خلى سبيلهما، فعادا إلى عشائرها، واستطاعت جيوش المسلمين إنهاء ردة أصحاب العنسي وقتلهم بكل سبيل (٢)..

ردة حضرموت:

قاتل أمير حضرموت زياد بن أبيد . ومعه من أسلم من أهلها . المرتدين من مانعي الزكاة من كندة وزعيمهم الأشعث بن قيس الكندي وهزمهم، ولكنهم عادوا إلى التحصن منه، وأدركه المهاجر بن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل؛ فاشتدوا في قتالهم وحصرهم، حتى اضطر الأشعث بن قيس ومعه زعمائهم إلى طلب الأمان من زياد لأنفسهم دون غيرهم ويفتحوا له باب الحصن، فكتبوا الأمان وختمه زياد؛ ونسي الأشعث أن يكتب اسمه ضمن المستأمنين، ودخل المسلمون الحصن فقتلوا من فيه، خلا من استأمن من الزعماء وليس فيهم الأشعث، فشدوا وثاقه وسيروه

(١) الطبري: السابق ٣٠٢٢٧-٢٣٩، ابن الأثير: السابق ٢/ ٢٠١-٢٠٤

(٢) الطبري: السابق ٣/ ٣٢٣-٣٣٠، ابن الأثير: السابق ٢/ ٢٣١-٢٣٣

إلى أبي بكر، وقيل إن الأشعث إنما استأمن لنفسه وماله فقط دون غيره؛ وفتح باب الحصن ليقتل الباقيين ويظفر المسلمون بالأموال والسبايا، فلما قدم على أبي بكر كان المسلمون يلعنونه في الطريق؛ ويلعنه سبايا قومه، وكان الأشعث قد خطب في حياة النبي ﷺ أم فروة أخت أبي بكر، ولم يدخل بها، فلما خشي على نفسه الموت بحضرة الخليفة قال له: أو تحتسب فيّ خيرًا فتطلق إيساري؛ وتقيلني عثرتي، وتفعل بي مثلما فعلت بأمثالي، وترد عليّ زوجتي، فإن فعلت ذلك تجدني خير أهل بلادي لدين الله، فأطلقه أبو بكر . الذي كان يعلم مكانته في قومه . ومنّ عليه؛ ورد عليه زوجته، وأقام بالمدينة حتى فتحت العراق فسار إليها (١) ..

ردة أهل البحرين:

كان رسول الله ﷺ قد بعث العلاء بن الحضرمي إلى ملك البحرين (٢) المنذر بن ساوى العبدى؛ فأسلم على يديه وأقام في أهلها الإسلام والعدل، ثم توفي عقب وفاة رسول الله ﷺ بقليل، فلما مات ارتد بعده أهل البحرين، أما بنو بكر منهم فتمّوا على ردتهم، واستطاع أحد زعمائهم . واسمه الحُطَم بن ضُبَيْعة أن يتزعم حركة ردتهم ويجمع حوله من ارتد ومن كان قد ظل على شركه ولم يسلم، وبعث بعثًا إلى جزيرة قريبة من ساحل الخليج تُعرف بدارين فضمها إليه، أما بنو عبد القيس فإنهم بعد وفاة ملكهم المنذر بن ساوى همّوا أن يرتدوا وقالوا: لو كان محمد نبيًا لم يمت، فجمعهم الجارود بن المعلّى العبدى . وكان قد أسلم وصحب النبي ﷺ وتفقّه في الإسلام ثم عاد إلى قومه . فقال لهم: أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا، قال: فإن محمدًا ﷺ قد مات كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فثبتوا على إسلامهم،

(١) الطبري: ٣/٣٣٠-٣٣٩، ابن الأثير: السابق ٢/٢٣١-٢٣٦

(٢) البحرين اسم جامع للبلاد الواقعة على ساحل الخليج العربي بين البصرة وعمّان. راجع ياقوت: معجم البلدان

وهكذا انقسم أهل البحرين إلى مرتدين . وهم معظم أهلها . ومسلمين، وقد حصرهم أهل الردة وضيّقوا عليهم حتى أرسل إليهم أبو بكر العلاء بن الحضرمي في جيشه، لينفذهم ويحارب بهم أهل الردة، وانضمت إليه في طريقه جماعات من مسلمة بني حنيفة وبني تميم (١) ..

وكان العلاء من سادات الصحابة، وقد نسبت إليه الروايات كرامات هائلة في هذه المعارك يصعب التحقق منها.. وأرسل العلاء إلى الجارود بن المعلّى يأمره أن ينزل بمن معه ممن ثبت على الإسلام من بني عبد القيس على الحُطَم والمرتدين من ناحيتهم، وسار العلاء فيمن معه من المسلمين فنزل عليه من ناحية هجر . قاعدة البحرين . وخذق المسلمون على أنفسهم، وكذلك فعل المرتدون، وكانوا يتراوحون القتال ثم يعودون إلى خنادقهم، وبينما هم على تلك الحال إذ سمع المسلمون في معسكر أعدائهم ضوضاء هزيمة أو قتال، فأرسل العلاء من يستطلع الخبر؛ فإذا القوم سكارى، فهجم المسلمون عليهم فهزموهم، وقتلوا كبيرهم الحُطَم، وكانت غنائم المسلمين عظيمة، ثم ركب المسلمون في آثار من فر منهم يتخطفونهم بكل طريق، واستطاع العلاء أن يستكمل جهوده لإنهاء حركة الردة في هذه الأنحاء، وكتب إلى أبي بكر بالنصر (٢)

الردة في عُمان ومَهْرَة (٣):

ادعى رجل من أهل عمان النبوة؛ واسمه ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي، وتبعه كثير من أهلها، فأرسل إليهم أبو بكر حُدَيْقَة بن مِحْصن الغلفاني الحميري ووجهه إلى عُمان وعَرْقَجَة بن هَرْثَمَة البارقي ووجهه إلى مهرة، ثم سرح الخليفة إليهم عكرمة بن أبي جهل بعدما كان من تسرعه في حرب مسيلمة وهزيمته هناك،

(١) الطبري: السابق ٣/٣٠١-٣٠٥

(٢) الطبري: السابق ٣/٣٠٦-٣١٣، ابن الأثير ٢/٢٢٦-٢٢٨، ابن كثير: السابق ٣/٨٧٧-٨٧٩

(٣) مهرة بسكون الهاء . كما يرويها عامة الناس . ويفتحها وهو الصحيح: تقع في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة العرب على المحيط الهندي بين عمان وحضرموت (راجع: ياقوت الحموي: معجم البلدان)

فاستطاعوا . بمعاونة من ظل على إسلامه من أهل هذه الجهات . إنهاء حركة الردة هناك، وبعثوا بالبشارة وخمس الغنائم إلى المدينة^(١) ..

الردة في تهامة:

كانت مكة . وأميرها عتّاب بن أسيد . والطائف . وأميرها عثمان بن أبي العاص . ممن ثبت مع المدينة على الإسلام، فأمر أبو بكر عتاب بن أسيد أن يواجه أخاه خالدًا لحرب من ارتد من أهل تهامة فظفر بهم، وأمر عثمان بن أبي العاص أن يواجه بعضًا لقمع المرتدين من أزد شنوءة وبجيلة وختعم فهزمهم وتفرقوا في البلاد، أما الطاهر بن أبي هالة . أحد الأمراء المسلمين باليمن فقد سار ومعه المسلمون من عكّ فحاربوا المرتدين منهم في تهامة فقتلوهم قتلاً ذريعاً، وأما من ثبت على إسلامه من بجيلة فإن زعيمهم جرير بن عبد الله البجلي خرج بهم فلم يقم له ممن ارتد منهم إلا يسير؛ فقتلهم وتبعهم^(٢) ..

(١) الطبري: السابق ٣/٣١٤-٣١٧، ابن الأثير: السابق ٢/٢٢٩-٢٣٠، ابن كثير: السابق ٣/٨٧٩-

(٢) الطبري: السابق ٣/٣١٨-٣٢٢، ابن الأثير: السابق ٢/٢٣٠-٢٣١

المبحث الثالث

الفتوحات الإسلامية نرمن أبي بكر الصديق ؓ

حول دوافع الفتوحات الإسلامية:

تختلف مذاهب المؤرخين حول الدوافع التي حدثت بالمسلمين إلى بدء حركة الفتوحات الكبرى ومصادمة الفرس والروم، وتتباين هذه الدوافع عندهم بين الدافع الديني والدافع الاقتصادي والدافع السياسي والعسكري.. ويجتهد أصحاب كل تفسير في نفي تفسيرات الآخرين..

والحق أن الدافع الديني هو أبرز هذه الدوافع وأعمقها في تفسير هذه الفتوحات؛ ولكن ذلك لا يعني إهمال الدوافع الأخرى . وبخاصة أننا نجد لها صدق في مروياتنا التاريخية الباكرة، ومن الضروري أن نقول إن حركة تاريخية ضخمة مثل حركة الفتوحات الإسلامية لا يمكن أن تتردد دائماً إلى عامل وحيد، بل إنها نتيجة مجموعة من العوامل المتداخلة والمتمازجة، وليس ثمة ما يدفعنا إلى استبعاد العوامل المادية إلا إذا نظرنا إلى الدين كما ينظر إليه المستشرقون وتلاميذهم من أنه علاقة محضة بين العبد وربّه، فالإسلام كدين شامل يتسع ليشمل هذه الدوافع كلها وينسج بينها في منظومته..

فالإسلام يرى أن الملكية الحقيقية للمال هي لله وأنه استخلف فيها البشر لينفقوه حسب مشيئته سبحانه؛ وبالتالي فإن الإسلام لا ينظر إلى السيطرة على اقتصاديات المحاربين له؛ الكافرين به واغتنامها على أنها عمل دنيوي.. بل يراها واجباً دينياً إذا أنفقت حسب تشريع الله ومراده..

والإسلام يدفع أصحابه إلى القوة والعزة؛ فإذا سعى أتباعه إلى دفع احتمالات العدوان الأكيدة من أعدائه . كما كان ذلك متوقعًا من الفرس والروم .
فذلك أمر له تبريره الديني الأصيل.. وهكذا دواليك..

على أننا يجب أن نحذر دائمًا من الخط بين ما كان دافعًا للغزو وبين ما كان نتيجة له، فالمسلمون لم يستهدفوا في حروبهم الغنائم إلا في إطار السياق السابق ذكره، أما كونها جاءتهم نتاجًا لغزوهم فسعدوا بفضل الله فذلك أمر مختلف...والمسلمون لم يستهدفوا تكوين إمبراطورية عربية بل حارب المسلمون العرب المرتدين العرب حربًا لا هوادة فيها، فإذا حدث بعد ذلك أن دخل هؤلاء العرب في الإسلام ودانوا به فجمعتهم بالمسلمين الآخرين أوامر الدين فضلًا عن أوامر اللغة والجنس فذلك أمر مختلف.. وهكذا تقود التفرقة بين الأسباب والدواعي وبين النتائج إلى توضيح الرؤية وتحريرها..

أولاً: فتوح العراق:

كان المثنى بن حارثة الشيباني ممن ثبت على الإسلام من بني بكر بن وائل؛ وكان ممن أعان العلاء بن الحضرمي حين قدم لحرب المرتدين في منطقة البحرين^(١)، واستمر المثنى يحارب بقواته قوات الفرس وأتباعهم في هذه المناطق الواقعة على الخليج العربي، ويحرز عليهم النصر تلو الآخر، حتى وصلت أخباره أبا بكر ﷺ فقال: من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه؟ فقال قيس بن عاصم . أحد زعماء بني تميم .: " أما إنه غير خامل الذكر؛ ولا مجهول النسب، ولا قليل العدد ولا ذليل الغارة، ذلك المثنى بن حارثة الشيباني،" ثم قدم المثنى بعد ذلك إلى أبي بكر فقال: ابعثني على قومي أقاتل بهم أهل فارس، وأكفيك أهل ناحيتي

(١) الطبري: السابق ٣/٣١٠

من العدو، ففعل أبو بكر، وقام المثنى يغير على أهل السواد^(١)، ثم أرسل إلى أبي بكر يسأله المدد فأمده بخالد بن الوليد أميرًا وقائدًا عامًا، فكان المثنى هو الذي أطمع المسلمين في أمر فارس^(٢).

وقد قيل: إن أبا بكر كتب إلى خالد بعد ما أتم انتصاره على مسيلمة في اليمامة بالمسير إلى العراق، وقيل أيضًا: بل استقدمه إلى المدينة ثم سيّره لفتح العراق^(٣)، وقد رجح بعض الباحثين العسكريين الاحتمال الأخير، "لأن تكليف خالد بمهمة شاقة كفتح العراق لا بد أن يحتاج إلى الاتصال الشخصي بينه وبين أبي بكر بالمدينة للمذاكرة حول هذه المهمة، وتأمين كل متطلباتها العسكرية والإدارية"^(٤).. وعلى هذا الافتراض يكون خط سير خالد . كما حدده الرواة ومنهم ابن إسحق وهشام الكلبي . أنه سلك طريق فيد والثعلبية . وهما في الطريق من مكة إلى الكوفة . ثم نزل بانقيا وباروسما، وهما من قرىات السواد، ثم افتتح الحيرة^(٥).. بينما ذكر سيف بن عمر أن أبا بكر كتب إلى خالد أن يدخل العراق من أسفلها، وإلى عياض بن غنم أن يدخلها من أعلاها، ثم يستبقا إلى الحيرة؛ فأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه، وقال: "إذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس؛ وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحكما ردةً للمسلمين

(١) هي أرض العراق؛ عُرِفَت بذلك لكثافة زرعها ونخيلها وأشجارها، ولأنها تاخمت أرض الجزيرة العربية التي لا زرع فيها، فكان أهلها إذا خرجوا تجاه العراق ظهرت لهم خضرة الزروع والأشجار فيسمونها: السواد. راجع ياقوت: معجم البلدان.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤٢، الطبري: السابق ٣/٣٤٤، ابن الأثير: أسد الغابة ٤/٢٦٦

(٣) البلاذري: السابق ٢٤٣، الطبري: السابق ٣/٣٤٣

(٤) اللواء الركن محمود شيت خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة ص ١١٩

(٥) البلاذري: السابق والصفحة، الطبري: السابق ٣/٣٤٣-٣٤٦

ولصاحب الحيرة، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم
ومستقرّ عزهم: المدائن " (١) ..

وهذه الرواية تبدو أصح من سابقتها لعدة أسباب منها:

- أن قرار فتح العراق سياسي في المقام الأول؛ وقد اتخذه الخليفة في المدينة
بمشاورة كبار الصحابة كما هو مفترض، أما الخطة العسكرية فليس من الضروري
استقدام خالد بشأنها من اليمامة إلى المدينة، ويمكن أن يكتفي الخليفة بتوضيحها
عن طريق رسول يحمل الخطة التفصيلية كما ورد في هذه الرواية..

- إن هذه الرواية تجعل خط سير خالد يبدأ من جنوبي العراق . من الأُبلة (٢). وهو
ما يبدو راجحاً؛ " لأن قوات المثنى بن حارثة كانت تقاتل في تلك المنطقة، وهي
القوة الرئيسية التي تقاتل في العراق، ولأن قوات خالد الأصلية في اليمامة، وهي
أقرب إلى منطقة البصرة، ولأن أبا بكر أمر خالدًا أن يبدأ بالأبلة، وأمر عياضًا أن
يبدأ بالمصيخ؛ أي أن خالدًا يهاجم العراق من جنوبه؛ وأن عياضًا يهاجمه من
شماله، وهذا قرار صحيح من الناحية العسكرية، لتفريق قوات العدو من جهة؛
ولتضليل الفرس عن اتجاه التعرض الأساسي لقوات المسلمين من جهة أخرى، كما
لا يمكن البدء من الحيرة وترك قوات معادية في الجنوب؛ وذلك لاحتمال تطويق
قوات المسلمين وتهديد سلامة تقدمها إلى أهدافها بعد الحيرة باتجاه الشرق أو
الشمال أو الجنوب " (٣) ..

(١) الطبري: السابق ٣/٣٤٧

(٢) تقع الأبلة جنوبي مدينة البصرة القديمة بخمسة عشر ميلاً (راجع: ياقوت. السابق)، وكانت مرفأً للسفن

القادمة من الصين (راجع الطبري: السابق ٣/٣٤٨)

(٣) محمود شيت خطاب: السابق ١٢١-١٢٢، وهذا يعني أنه يختار من الرواية الأولى استقدام أبي بكر
خالدًا إلى المدينة لتدارس الخطط العسكرية معه، ويأخذ من الرواية الثانية خط سير قوات خالد لفتح
العراق، وهذا قد لا يبدو متسقًا مع افتراض أن إحدى الروايتين صحيحة دون الأخرى..

موقعة ذات السلاسل:

كتب خالد إلى هرمز قائد الفرس في جنوب العراق " أما بعد، فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذمة، وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .. وكان هرمز من أسوأ أمراء هذه المنطقة جوارًا للعرب حتى ضُرب مثلاً في الخبيث؛ فقالوا: " أخبث من هرمز، وأكفر من هرمز "، ولما لم يستجب لدعوة خالد التقى الفريقان عند موضع يُعرف بكأظمة^(١)، واقترب رجاله بالسلاسل كيلا يفروا، وأمر بعضهم بالغدر بخالد، فلما دعاه ابن الوليد إلى المبارزة اختلفا ضربتين، واحتضنه خالد، وحملت حامية هرمز على خالد لتعذر به، فما شغله ذلك عن قتل هرمز، وانهزم الفرس فطاردهم المسلمون إلى الليل، وعرفت هذه المعركة بذات السلاسل، وغنم المسلمون فيها غنائم هائلة^(٢)، وأرسل خالد المثنى بن حارثة ليتابع مطاردة القوم؛ بينما أرسل معقل بن مُقرن إلى الأبله فافتتحها، وجمع ما بها من أموال وسبي^(٣)، ويذكر الطبري أن ذلك خلاف ما يعرفه أهل السير؛ وما جاءت به الآثار الصحيحة من أن فتح الأبله كان على يد عُتْبة بن غزوان سنة ١٤هـ في خلافة عمر بن الخطاب، غير أن الأمر يمكن فهمه على أن الأبله عادت فاننقضت وسيطر عليها الفرس، فأعاد المسلمون فتحها في خلافة عمر، وهذا الأمر معهود في كثير من الفتوحات..

(١) تقع على ساحل الخليج العربي في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان. راجع: ياقوت: السابق.

(٢) وكان منها قلنسوة هرمز وقيمتها مائة ألف، وكان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قد أحسابهم في عشائهم، فمن تمّ شرفه كانت قلنسوته مائة ألف، وكان هرمز ممن تمّ شرفه، فكانت قلنسوته مفصصة بالجواهر، فنقلها أبو بكر خالدًا.

(٣) الطبري: السابق ٣/٣٤٧-٣٥٠، ابن الأثير: الكامل ٢/٢٣٩-٢٤٠.

موقعة المذار أو الثَّني:

كان أحد قادة الفرس الكبار ويدعى: قارن قد أرسله كسرى مددًا لهرمز، فلما انتهى إلى المذار^(١) بلغه مقتل هرمز؛ فجمع إليه فلول القائد القتيل، واستعد لملاقاة خالد، والتقى الجيشان بالمذار على حنق وحفيظة؛ وخرج قارن يدعو للمبارزة، فبرز إليه خالد وأحد فرسانه ويدعى أبيض الركبان معقل بن الأعشى؛ فابتدراه فسبق إليه معقل فقتله، وقتل المسلمون أكبر قادته وعامة جيشه، حتى قدر عدد القتلى بثلاثين ألفًا، سوى من غرق منهم، ومن وقع في سبي المسلمين، وأقر خالد الفلاحين ومن أجاب من الناس إلى الخراج، وذلك في صفر سنة ١٢هـ^(٢)..

موقعة الوَلْجَة:

استمر خالد في مسيره نحو الحيرة، فالتقى بجيش فارسي عند موضع يعرف بالوَلْجَة في صفر سنة ١٢هـ؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكان خالد قد خبأ كميناً له في ناحيتين، فاستبطأ الكمين؛ إلا أنه خرج آخر الأمر من وجهين فحاصر قوات الفرس ومن عاونهم، فأخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم، "فلم يَرَّ رجل منهم مقتل صاحبه".. وسار خالد في الفلاحين سيرته فلم يقتل منهم أحدًا، ودعا أهل الأرض إلى الجزية والذمة فأجابوه " (٣) ..

موقعة أَلْيَس:

أصاب خالد في موقعة الولجة كثيرًا من العرب النصاري من بني بكر ابن وائل الذين ناصروا الفرس، فغضب لهم نصارى قومهم، وكاتبوا الأعاجم، وكاتبهم الأعاجم، فتوجه إليهم القائد الفارسي جابان، وكان خالد قد سمع بمن تجمع لحربه من نصارى العرب فتقدم لحربهم، وباغتهم وقد وضعوا طعامهم يأكلون، فلم ينشب

(١) تقع في منطقة ميسان، بينها وبين البصرة أربعة أيام (ياقوت: معجم البلدان)، وتعرف الموقعة أيضًا بموقعة الثني لجريانها قرب أحد تفرعات نهر الفرات، والعرب تسمي كل نهر: الثني (الطبري ٣/٣٥١)

(٢) الطبري: السابق ٣/٣٥١-٣٥٢، ابن الأثير: السابق ٢/٢٤٠

(٣) الطبري: السابق ٣/٣٥٣-٣٥٤، ابن الأثير: السابق ٢/٢٤٠-٢٤١

أن حطّ أثقاله ثم نهض لحربهم، ودعا زعماء النصارى العرب لمبارزته؛ فمن برز منهم قتله، وأجهض الأعاجم عن طعامهم قبل أن يأكلوه، فنصحهم جابان . وقد داخله الرعب والوحشة من المسلمين . أن يسمّوا طعامهم الذي أُعجلوا عنه؛ فإن كانت الدائرة لهم فالطعام أيسر هالك، وإن كانت عليهم كانوا قد انتقموا من أعدائهم، فأبوا عليه، واقتتلوا قتالاً شديداً، فاغتاظ المسلمون لصبرهم، ثم إن الله عز وجل هزمهم، ونفّل خالد طعام النصارى والفرس لجنده فجعلوا يأكلون منه ويعجبون لرقته وصنعه (١)!!

خبر أمغيشيا:

لما فرغ خالد من وقعة أُلّيس نهض فأتى أمغيشيا، وكانت مصرًا كالحيرة؛ وكانت أُلّيس من مسالحها، وقد أخذ الرعب من خالد نفوس أهلها، فترقوا عنها في أرض السواد بعدما تركوا ما فيها، فأمر خالد بهدمها وكل شيء كان في حيزها، وذلك فيما يبدو لتأمين تحركه فيما بعد لفتح الحيرة . أهم مدن العراق العربي آنذاك . وخشية عودة أهلها أو عسكر الفرس إليها مما يحتاج معه إلى توجيه جهده إليها من جديد، وأصاب المسلمون فيها ما لم يصيبوا مثله قط من الغنائم؛ حتى بلغ سهم الفارس ألفًا وخمسمائة سوى النفل الذي نُفّله أهل البلاء.. ولما بلغت أخبار انتصارت خالد بالعراق أبا بكر قال: عجزت النساء أن يلدن مثل خالد (٢)، وروى

(١) وزعم بعض الرواة أن خالدًا نذر: " اللهم إن لك عليّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستقي منهم أحدًا قدرنا عليه، حتى أجري نهرهم بدمائهم "، فأمر خالد أن يأسروهم ولا يقتلوا إلا من امتنع، وسكّر خالد النهر وصدّه عن الجريان، وأمر بضرب أعناقهم في لنهر ليبرّ نذره، فظل يضرب أعناقهم يومًا وليلة، فقال له بعض قاداته: لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم، إن الدماء لا تزيد على أن ترقرق منذ نُهيّت عن السيلان، ونُهيّت الأرض عن نشف الدماء، فأرسل عليها الماء تير يمينك، فأرسله فجرى دماءً طريًا، فسَمّي ذلك النهر: نهر الدم، وفي النفس شيء من تصديق هذه القصة وأنها إنما حُبّكت بمهارة لتعليل تسمية نهر الدم . أحد تعريعات الفرات . بهذا الاسم..(الطبري: السابق ٣/٣٥٥-٣٥٧)

(٢) ابن الأثير: السابق ٢/٢٤٢

الطبري في ذلك أنه قال: يا معشر قريش؛ عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله (١)، أُعجزت النساء أن يُسِلْنَ مثل خالد (٢) ..

فتح الحيرة:

علم الأزازبة مرزبان الحيرة (٣) أن خالدًا لن يتركه بعدما حقق من فتوح؛ وأن خطوته التالية سوف تكون الحيرة، فتهيأ لحربه، وأمر ابنه بسدّ نهر الفرات ليحول بين خالد والمسير إليه في النهر، وعسكر هو خارج الحيرة، إلا أن خالدًا أبطل كيده، وظفر بابنه وجنده فقتلهم، ثم أجرى الماء في الفرات، ففر الأزازبة بغير قتال تاركًا أهل الحيرة لمصيرهم في مواجهة جيش خالد..

وتحصن أهل الحيرة بحصونهم فحصرهم المسلمون، وأجلوهم يومًا ليقبلوا الإسلام أو الجزية أو القتال؛ فأبوا إلا القتال، وألح المسلمون على حربهم، فأجابوا إلى إرسال وفد منهم إلى خالد، فخلا بأهل كل حصن منهم دون الآخرين، وأراد أن يحرك فيهم أواصر الدم العربي، أو لوازم العقل الذكي، فقال: "ويلكم؛ ما أنتم! أعرب؟ فما تتقمون من العرب؟ أو عجم؟ فما تتقمون من الإنصاف والعدل؟! اختاروا واحدة من ثلاث ... فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة"، فرضوا بالجزية، فقال خالد: "تبًا لكم! ويحكم! إن الكفر فلاة مَصَلَّة، فأحمق العرب من سلكها فلقية دليلان؛ أحدهما عربي فتركه، واستدلّ الأعجمي"، وقبل منهم الجزية، وجعل بينه وبينهم كتابًا هو مثال للعدل والمرحمة، فيه أنه "عاهدكم على تسعين ومائة ألف درهم، تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا؛ رهبانهم وقسيسهم، إلا من كان منهم غير ذي يد، حبيسًا عن الدنيا تركًا

(١) جمع خردولة: قطعة اللحم.

(٢) الطبري: السابق ٣٥٨/٣-٣٥٩

(٣) أي أميرها.

لها، وعلى المنعة؛ فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة“، وكان ذلك في ربيع الأول سنة ١٢ هـ^(١)..

فتح ما حول الحيرة:

كان الدهاقين^(٢) "يتربصون بخالد؛ وينتظرون ما يصنع أهل الحيرة، فلما استقام ما بين أهل الحيرة وبين خالد أتته دهاقين هذه البلاد فصالحته^(٣)، وأرسل خالد أمراءه فمخروا المنطقة التي بين ما فتحه وشاطئ دجلة، غازين ملحين، وظل الأمر على ذلك أكثر من سنة، "والمسلمون يمحرون ما دون دجلة؛ وليس لأهل فارس فيما بين الحيرة ودجلة أمر، وليست لأحد منهم ذمة إلا الذين كاتبوه واكتتبوا منه، وسائر أهل السواد جلاءً ومتحصنون ومحاربون"^(٤)..

فتح الأنبار:

كان الخليفة أبو بكر قد أمر خالدًا . كما مر بنا . أن لا يقتحم على أهل فارس ويترك خلفه عسكريًا لهم، مخافة أن يطوّقوا جيوش المسلمين، وكانت عساكر الفرس قد تحصنت في بعض البلاد، وخالد ينتظر أن يقدم عليه عياض ابن غنم من شمالي العراق، كما أوصى الخليفة؛ ليواصل فتح العراق، إلا أن عياضًا كان لا يزال يحاصر دومة الجندل ولا يقدر على فتحها^(٥)، ثم ترك خالد المثنى بن حارثة على بعض الثغور التي تلي المدائن ليشغل عنه الفرس؛ واتجه لتحرير شمالي العراق الذي كان أمر به عياض، فسار إلى كربلاء فأقام بها أيامًا، ثم

(١) الطبري: السابق ٣/٣٥٩-٣٦٤

(٢) جمع دهقان، بكسر الدال وضمها: زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم.

(٣) الطبري: السابق ٣/٣٦٨

(٤) السابق ٣/٣٧٠

(٥) الطبري: السابق ٣/٣٧٢، ودومة الجندل: حصن على سبع مراحل من دمشق، يقع بين دمشق والمدينة

(راجع ياقوت: السابق)

انتهى إلى الأنبار^(١)، فتحصن منه أهلها وخذقوا عليهم، فأتى خالد أضيقي مكان في الخندق وأمر بمهازيل الإبل فنحرها ورمى بها الخندق فأفعمه، ثم اقتحمه وجنده معه، ففر المشركون إلى حصونهم، وأقر قائدهم شيرزاد بالصلح على ما أراد خالد، وهو أن يُخَلِّيَهُ ويلحقه بمأمنه في خيل ليس معهم من المتاع والأموال شيء !!^(٢)

خبر عين التمر:

واتجه خالد لفتح عين التمر^(٣) وبها جمع عظيم من الفرس ومن العرب قبائل من نصارى النمر وتغلب وإياد، فاتقى الفرس القتال بالعرب؛ فقدموهم، فلقبهم خالد مبادراً، فحمل عليهم، فانهمزوا من غير قتال، وأكثر المسلمون فيهم الأسر، وانتهى فُلُّهُم إلى الفرس المتحصنين في عين التمر، فحاصروهم خالد فنزلوا على حكمه، فأمر بهم فسُلسِلوا له فأمر بضرب رقابهم، وسبى من بالحصن من النساء والذراري، وكان منهم أربعون غلاماً - كانوا رهائن - في بيعة يتعلمون الإنجيل، منهم نصير أبو القائد الإسلامي الكبير موسى بن نصير، وسيرين والد الفقيه الشهير محمد بن سيرين^(٤)، فكيف بدل الإسلام حال هؤلاء المستضعفين وأبنائهم من بعدهم، ودفع بهم إلى سدة المجد والسؤدد؟؟

خبر دومة الجندل:

أرسل خالد الوليد بن عقبة إلى الخليفة بالأخماس فوجهه الخليفة إلى عياض بن غنم مدداً له، فقدم عليه الوليد وعياض محاصروهم، وهم محاصروه، وقد أخذوا عليه بالطريق فقال له: الرأي في بعض الحالات خير من جند كثيف، ابعث إلى خالد فاستمده، ففعل، وقدم رسول عياض على خالد عقب موقعة عين التمر مستغيثاً، فكتب خالد إلى عياض خطاباً موجزاً بليغاً قال فيه: "إياك أريد"، وتحرك

(١) مدينة على الفرات في غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ. ياقوت: السابق.

(٢) الطبري: السابق ٣/٣٧٣-٣٧٤

(٣) بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة (ياقوت: السابق)

(٤) الطبري: السابق ٣/٣٧٦-٣٧٧

خالد من فوره لنجدة عياض فلما بلغ أهل دومة الجندل خبر مسير خالد بعثوا يحشدون قبائلهم، وبدومة الجندل يومئذ رئيسان: أكيذر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة فاختلفا؛ فقال أكيذر: "أنا أعلم الناس بخالد (١)؛ لا أحد أيمن طائراً منه، ولا أحد في حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً . قَلُّوا أو كثروا إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم"، فأبوا عليه، فقال: "لن أمالكم على حرب خالد، فشانكم"، لكن حظه العاثر شاء أن يظفر به خالد فيقتله، ثم جعل خالد دومة الجندل بين عسكره وعسكر عياض، ونشب القتال فهزمهم المسلمون، وأسر خالد ملكهم الجودي وقتله، وضرب أعناق غالبية الأسرى من المقاتلة، ثم رجع إلى الحيرة بعد انتصاره الكبير (٢) ..

واستطاعت قوات المسلمين بالعراق أن تظفر ببعض تجمعات النصارى من عرب الجزيرة العراقية الذين ثاروا لمن قُتل من زعمائهم، وقد ساعدتهم الفرس، وذلك في مواقع من أشهرها الحُصَيْد والخنافس وغيرها (٣) ..

موقعة الفِراض:

اتجه خالد إثر ذلك إلى الفراض . وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة . فأفطر بها رمضان لاتصال غزواته فيها، فحميت الروم واغتازت، واستعانوا بمن يليهم من أهل فارس ونصارى العرب من تغلب وإياد والنمر فأمدوهم، ثم ساروا نحو خالد، فحال الفرات بينهم وبينه، فقالوا للمسلمين: إما أن تعبروا إلينا وإما نعبر إليكم، فقال خالد: بل اعبروا إلينا، فعبروا واقتتلوا قتالاً شديداً طويلاً، ثم حلت بهم

(١) كان خالد قد حاربه وأسره في وقعة تبوك أيام النبي ﷺ سنة ٩ هـ (الطبري: السابق ١٠٨/٣-١٠٩)

(٢) نجا أسارى قبيلة كلب من القتل، فقد أجارهم زعماء بني تميم لحلف كان بينهم في الجاهلية مما أثار حفيظة خالد فقال: مالي ولكم؟ أتخفظون أمرا الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام؟ فقال له بعض زعمائهم: لا تحسدهم العافية (راجع: الطبري: السابق ٣٧٧/٣-٣٧٩)

(٣) السابق ٣٧٩/٣-٣٨٣

الهزيمة، فقال خالد للمسلمين: "ألحوا عليهم، ولا تُرّفهوا عنهم"، فقتل منهم يومئذ في المعركة وفي الطلب بعدها مائة ألف على ما يزعم الرواة (١)..

ثم إنهم يزعمون أن خالدًا سيرَّ جنده إلى الحيرة وأظهر أنه في ساقتهم، وهو يظن أن يحج في سنته هذه، واكتتم بحجته ومعه عدة ممن أصحابه لخمس بقين من ذي القعدة، فاعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسَّمت (٢)، فتأتى له ما لم يتأتَّ لدليل، فكانت غيبته عن جنده يسيرة، فما توافى إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم خالد . وقد حجَّ . مع صاحب الساقية الذي وضعه، فقدمًا معًا، وخالد وأصحابه محلّقون، لم يعلم بحجه إلا من أفضى إليه بذلك من الساقية، ولم يعلم أبو بكر رحمه الله بذلك إلا بعد، فغضب عليه، وكانت عقوبته إياه أن صرفه إلى الشام (٣)..

وهذا زعم بعيد متكلّف، أملت أهواء الرواة وغرامهم ببطولات خالد؛ فنسبوا إليه ما يدخل في باب المغامرة غير المحسوبة، التي تستهين بأمر الخلافة وضرورة إعلامها بمثل ذلك التصرف الخطير، وأما ما فعله أبو بكر من صرف خالد إلى الشام لمناصرة الجند هناك فكان ضرورة حربية رآها الصديق كما سيأتي بيانه..

(١) السابق ٣/٣٨٣-٣٨٤

(٢) الظن

(٣) الطبري: السابق ٣/٣٨٤، ابن الأثير: السابق ٢/٢٥١

ثانياً: فتوح الشام:

تمهيد:

لم يتفق مؤرخونا المسلمون على ترتيب وقائع الفتح في الشام بشكل لا نجد له مثيلاً في فتوح العراق، ولن نجد له مثيلاً في فتح مصر فيما بعد.. فيقدم بعضهم بعض الوقائع على بعض مع اتفاقهم على حدوث تلك الوقائع ونتائجها، وقد كان ذلك الاختلاف مما أثار دهشة الطبري واستكراه قديماً فقال: "ومن الأمور التي تُستتكر وقوع مثل الاختلاف الذي ذكرته في وقته، لقرب بعض ذلك من بعض".. وإذا كان تعليل الطبري ذلك الاختلاف بسبب قرب تاريخ حدوث بعض هذه الوقائع من بعض مما سبب شيئاً من اللبس في ترتيبها؛ فإنه من الممكن رد بعض ذلك الاختلاف إلى تأخر تدوين التاريخ الإسلامي بشكل عام عن زمن حدوث تلك المعارك، التي لم يدونها أصحابها إذ شغلهم الجهاد وتوالي الحروب والتعرض للشهادة عن تدوينها.. فلما تلقف الرواة والمؤرخون فيما بعد هذه الأحداث لتدوينها كان اعتمادهم على الرواية الشفهية التي وصلتهم من أفواه من شارك في صنع ذلك التاريخ أو قارب حوادثه.. "فربما كان حصول واقعتين في وقت واحد، فيذكر الراوي إحدى الواقعتين ثم يثني بالأخرى، فيتلقف الكاتب ذلك، ويرتبها حسب ترتيبهما في الذكر، فيقدم إحداهما على الأخرى، فإذا جاء راوٍ آخر وعكس الترتيب في الذكر تبعه مؤرخ آخر وسار على طريقته، وربما فُتح البلد الواحد مرتين؛ وفُتح بلد آخر بينهما، فيذكر الراوي الفتح الأول ثم يذكر فتح البلد الآخر، ثم يأتي راوٍ آخر ويذكر فتح البلد الآخر ثم يذكر الفتح الثاني وهكذا..."^(١)

ولعل الاختلاف حول تعيين تاريخ بعض المعارك الكبرى مثل معركة اليرموك ومعركة أجنادين وفتح دمشق وفحل بالأردن ودخول حمص من أبرز

(١) عبد الوهاب النجار: الخلفاء الراشدون ص ٢٠٥

نماذج ذلك الاختلاف.. فرواية سيف بن عمر في تاريخ الطبري تجعل اليرموك هي المعركة الكبرى الأولى التي خاضها المسلمون بالشام سنة ١٣هـ، ثم تلاها فتح دمشق وموقعة مرج الصُّفر ثم موقعة فحل في السنة نفسها، ثم حدثت وقعة أجنادين في سنة ١٥هـ..

بينما يروي ابن إسحاق أن أجنادين هي الموقعة الكبرى الأولى بالشام سنة ١٣هـ بعد عدة معارك محدودة^(١)، ثم تلتها معركة فحل ثم فتح دمشق في السنة التالية ١٤هـ^(٢)، وواقفه الواقدي الذي زعم أن موقعة اليرموك كانت سنة ١٥هـ، وأن هرقل جلا بعدها من الشام إلى القسطنطينية آيساً من النصر، فكانت موقعة اليرموك آخر موقعة بالشام^(٣)، وسار البلاذري على ذات الترتيب^(٤) ومهما يكن من أمر فإن الاختلاف يقتصر كما بيّنا على تسلسل الأحداث والمواقع لا حدوثها بالفعل، وتبدو محاولة التوفيق بين تلك الروايات المختلفة أو تفضيل إحداها على الأخرى عسيرة ومتكلفة وغير جازمة، وعلى ذلك فلا ضير أن نعتمد إحداها في ترتيب الحوادث ونمضي في دراستها مستصحيين في تلك الدراسة جهود الآخرين من الرواة ورؤاهم، ولتكن تلك الرواية هي رواية سيف بن عمر شيخ مؤرخي الفتوح الإسلامية، فهي أشهرها وأغناها بالحركة والحيوية والتفاصيل، وقد عُنِيَ بها الطبري وآثرها على ما عداها وأفرد لها كثيرًا من صفحات تاريخه..

(١) الطبري: السابق ٣/١٧٤

(٢) السابق ٣/٤٤١

(٣) السابق والصفحة، الواقدي (ينسب إليه): فتوح الشام ١/٨٨، ٩٣، ٢٠٤، ٢٩٦

(٤) فتوح البلدان ١٢٠-١٤٢

حركة الفتوح بالشام:

كانت الشام موضع اهتمام المسلمين منذ عصر النبي ﷺ إذ وجه إليها جيوشه في أكثر من مرة فكانت تعود بالفتح والظفر (١)..

وقد سار أبو بكر ﷺ في فتح الشام على ذات النهج الذي خطّه لنفسه في فتوح العراق، فقد ارتاد الطريق أول الأمر بجيش خالد بن سعيد الذي خاض عدة معارك محدودة انتصر فيها، ثم لقي الهزيمة بمرج الصفر سنة ١٣هـ (٢)، ثم سِير إليها عدة جيوش في وقت واحد على رأسها جماعة من أكابر الصحابة وأبرع القادة، وأمر كلا منهم أن يسير إلى جهة من أرض العدو؛ ليضطره إلى تشتيت قواته وبعثرة جهوده، وتلك كانت خطته لما وجه خالد بن الوليد لفتح العراق من جهة الجنوب وعباض بن غنم لفتح شمالي العراق ليشنت جهود الفرس بهذه الأنحاء.. وكان أول جيش وجهه أبو بكر إلى الشام هو جيش خالد ابن سعيد (٣).. إذ وجهه إلى تيماء في أطراف الشام؛ وأمره ألا يبرحها؛ وأن يدعو من حوله

(١) من هذه الجيوش سرية زيد بن حارثة إلى قوم من جذام بمنطقة حسمى بفلسطين سنة ٦هـ وسرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاق سنة ٨هـ وغزوة مؤتة سنة ٨هـ وسرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل في السنة نفسها، ثم غزوة تبوك سنة ٩هـ ثم بعث أسامة بن زيد الذي توفي رسول الله ﷺ وهو يتأهب لغزو الشام.. فأنفذه أبو بكر أول خلافته (راجع ابن هشام السيرة النبوية ج٣، ج٤، محمد عزب دسوقي: القبائل العربية في بلاد الشام ص ٨١-١٠٤)

(٢) الطبري: السابق ٣/٣٨٨-٣٨٩، ابن الأثير: الكامل ٢/٢٥٢-٢٥٣، وكذا كانت غارات المثنى بن حارثة التي استكشف بها قوى الفرس في العراق..

(٣) يروي بعض الرواة أن خالد بن سعيد كان قد تربص ببيعته أبا بكر شهرين ثم بايع، فساء ظن عمر بن الخطاب به، إلا أن أبا بكر لم يحفل بذلك، ولما عقد الألوية لغزو الشام كان أول لواء عقده لخالد، ويزعمون أن عمر لم يزل بالخليفة حتى عزله بسبب موقفه من البيعة (الطبري: السابق ٣/٣٨٧-٣٨٨)، وذلك فيما نرى بعيد إذ مضى على أمر البيعة والخلافة في ذلك الوقت قرابة عامين؛ جرت فيهما في نهر الدولة الإسلامية مياه كثيرة، وقد عزل الخليفة خالدًا بالفعل عن قيادة ما معه من جند ولكن لسبب آخر هو ما حدث بعد ذلك، كما سنرى..

إلى الانضمام إليه، وألا يقبل إلا ممن لم يرتد، ولا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره، فاجتمعت إلى خالد جموع عظيمة، وقد حقق بعض الانتصارات الجزئية، وأرسل بذلك إلى أبي بكر واستمده (١)، وكان أبو بكر قد كتب إلى قبائل العرب يستنفرهم للجهاد بالشام، وأرسل إلى اليمن أنس بن مالك، فلم يمضِ طويل وقت حتى قدم أنس يبشره بقدوم أهل اليمن بذرايرهم ونسائهم وأموالهم (٢)، فأرسل أبو بكر أوائلهم في جماعات من المجاهدين مددًا لخالد بن سعيد، واهتاج أبو بكر للشام، وعناه أمره، فاستقدم عمرو بن العاص والوليد بن عقبة من عملهما للجهاد بالشام؛ وكان عمرو عاملاً على صدقات جُذام؛ فكتب إليه الصديق: " لقد أحببت . أبا عبد الله . أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه . أي من عملك هذا . إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك "، فكتب إليه عمرو: " إنني سهم من سهام الإسلام؛ وأنت . بعد الله . الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاشها وأفضلها فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي، وكتب إليه الوليد بن عقبة بمثل ذلك، وكان عاملاً على النصف من صدقات قضاة (٣) ..

فحشد أبو بكر جيوشه وجمعها في أربعة جيوش كبرى: على أحدها عمرو بن العاص ووجهه نحو فلسطين، وعلى الثاني يزيد بن أبي سفيان ووجهه نحو دمشق، وعلى الثالث أبو عبيدة بن الجراح وولاه ناحية حمص، وعلى الآخر شرحبيل بن حسنة ووجهه ناحية الأردن بدل الوليد بن عقبة، أما خالد بن سعيد فإنه لما بلغه خبر أولئك الأمراء وتوجههم إلى الشام . فيما يزعم الرواة . اقتحم على الروم يسابقهم إليهم، وأعرى ظهره، فاستطرد له القائد الروماني باهان، واتجه نحو دمشق، وسار خالد حتى نزل مرج الصُّفَر قريباً من دمشق، فانطوت مسالح باهان

(١) الطبري: السابق ٣/٣٨٨-٣٨٩

(٢) الأزدي: فتوح الشام ص ٨، ٩

(٣) الطبري: السابق ٣-٣٨٩-٣٩٠

عليه، وأخذوا عليه الطرق، وقتلوا ولده سعيد بن خالد، فهرب خالد ومن أفلت من أصحابه حتى بلغ ذا المروة قرب المدينة المنورة، وأقام عكرمة بن أبي جهل فيمن معه من جند رداءً للمسلمين، فرد عنهم باهان وجنوده، أما خالد بن سعيد ومن بقي من جنده فقد أمره الخليفة أن: " أقم مكانك، فلعمري إنك مقدم محجام، نجاء من الغمرات، لا تخوضها إلا إلى حق "، ثم أذن له بعد ذلك في دخول المدينة، وآل مصير جنده إلى القادة السابقين^(١)..

بلغت أخبار تحرك جيوش المسلمين هرقل فقدم حتى نزل حمص ليكون قريباً من مسرح الأحداث، وحشد جيوشه فجعل بإزاء كل قائد من قادة المسلمين قائداً من خير جنده في حشود هائلة، فهابهم المسلمون؛ وجميعهم لا يزيدون عن واحد وعشرين ألفاً، فأشار عمرو بن العاص بأن "الرأي الاجتماع، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يُغلب من قلة، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يُقرن فيه لأحد ممن استقبلنا"، فأتعدوا اليرموك ليجمعوا فيه، وكتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمرو بن العاص فأجابهم بمثل جوابه، وقال: " ولن يؤتى مثلكم من قلة، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب، فاحترسوا من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين، وليصل كل رجل منكم بأصحابه "، فلما بلغ ذلك هرقل أمر بطارقه أن يجتمعوا للمسلمين كما اجتمعوا لهم، فنزلوا الواقعة على ضفة اليرموك، فصار الوادي خندقاً لهم، ونزل المسلمون عند ذلك بحدائهم، وليس للروم طريق إلا عليهم، فقال عمرو: أيها الناس؛ أبشروا، حُصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير، فأقاموا بإزائهم، ومخرجهم صفر سنة ١٣هـ وشهري ربيع لا يقدر من الروم على شيء، واستمدوا أبا بكر وأعلموه بما كان، فقال: " خالد لها "، وقال: " والله لأنسين الروم وساوس

(١) الطبري: السابق ٣/٣٩٠-٣٩٢

الشیطان بخالد بن الولید" ^(١)، وكتب إلى خالد: "سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك؛ فإنهم قد شجوا وأشجوا" ^(٢)، ... فليهنئك أبا سليمان النية والخطوة، فأتيم ينم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل، فإن الله عز وجل له المنّ، وهو وليّ الجزاء " ^(٣)، وأمره أن يخلف على العراق المثنى بن حارثة، فوافاهم في ربيع ^(٤)...

خالد في الطريق إلى اليرموك:

سار خالد بنصف جيشه إلى الشام وترك النصف الآخر مع المثنى بن حارثة، وقد ترك لنا سيف بن عمر رواية عجيبة في وصف مسيرة خالد من العراق إلى الشام، فزعم أنه دعا بالأدلة، وارتحل من الحيرة إلى دومة الجندل، ثم طعن في البر إلى قراقر . ماء لبني كلب . ثم قال: كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم، فإني إن استقبلتها حسبتني من غياث المسلمين، فلم يجبه على ذلك إلا رافع بن عميرة . وهو يومئذ أرمذ العين . على تهيب شديد، فقام خالد في جنوده فوعظهم وشد من أزهم، وأمرهم أن يتزودوا من الماء لرحلة خمسة أيام في الصحراء، وأن يسقوا خيلهم ما استطاعوا، فظمًا كل قائد من الإبل ما يكتفي به، ثم سقوها عللاً بعد نهل ^(٥)، فلما امتلأت صرّوا آذانها، وشدّوا مشافرها لئلا تجترّ ^(٦)، ثم انطلق خالد بالجيش ينزلون كل يوم فيأكل الرجال ويشربون مما معهم من الماء، ثم يشقون بطون عشرة من الإبل ويخرجون الماء منها؛ فيمزجونه بما كان من الألبان فيسقونه الخيل، حتى أدركوا الري بعد خمسة أيام، فوصل خالد

(١) السابق ٤٠٨/٣

(٢) أشجاه: أي قهره.

(٣) السابق ٤٠٧/٣

(٤) السابق ٣٩٢/٣-٣٩٣

(٥) العلل: الشربة الثانية، والنهل: الشربة الأولى.

(٦) الطبري: السابق ٤٠٩/٣، ابن الأثير: السابق ٢٥٦/٢-٢٥٧

سوى . وهو ماء لبني بهراء على الجانب الآخر مما يلي الشام . فأغار على من بها وهم سكارى يشربون، وساقهم يعني: ألا صبحاني قبل جيش أبي بكر !!^(١).. وهي رواية تمضي في الطريق نفسه الذي تسير فيه روايات صاحبها سيف بن عمر عن فتوح خالد، وفيها من المبالغة والخيال ما أغرت بصنعه بطولات ابن الوليد، وأولى بنا أن نتشكك فيها، فبعيد أن يغامر خالد على ذلك النحو المريع بسلامة الجيش الإسلامي الذي غدا معقد الرجاء في تحقيق النصر على الروم، فيغيرر به في طريق مهلكة اعتمادًا على ذاكرة أعرابي أرمد لم يعبر تلك الطريق منذ كان صبيًا، وبعيد أن يصل ذلك . إن كان . إلى مسامع الخليفة ثم يغضي عنه، وهي تعارض بعد ذلك رواية أخرى تنحو نحو الموضوعية للواقدي والبلاذري، وذكرها أبو يوسف في كتابه "الخراج"، وترى أن خالدًا سلك إلى أرض الشام طريق الفرات الأعلى^(٢)، وهي الطريق التقليدية التي سلكها الفاتحون منذ أقدم العصور، وعلى ذلك فإنه ليس من الصواب ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن المؤرخين يكادون يجمعون على أن خالدًا سلك السبيل الأقصر إلى الشام، وهو أقصر سبيل آمن يوصل إلى الشام في أسرع وقت دون التعرض لقوات معادية تستنزف الوقت والجهد^(٣)..

ثم سار خالد فوصل إلى مرج راهط^(٤)، فأغار على من به، ثم سار حتى بلغ بصرى^(٥) فافتتحها، ثم طلع على جيش المسلمين في ربيع الآخر^(٦)..

معركة اليرموك:

(١) الطبري: السابق ٣/٤٠٩-٤١٠

(٢) راجع كتاب الخراج ص ١٤٦، وانظر أيضًا البلاذري: فتوح البلدان ص ١١٩

(٣) راجع محمود شيت خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة ص ١٤٣-١٤٤

(٤) موضع في الغوطة شرقي دمشق (راجع: ياقوت: معجم البلدان)

(٥) مدينة بالشام؛ وهي كورة حوران (راجع السابق)

(٦) الطبري: السابق ٣/٤١٠، ٤١٥-٤١٧، ابن الأثير: السابق ٢/٢٥٨

تكاملت أعداد المسلمين باليرموك في نحو أربعين ألفاً، فيهم ألف صحابي شهد منهم نحو مائة موقعة بدر، وكان الروم في مائتي ألف وأربعين ألفاً، وقيل: بل كانوا مائة ألف، وعلى ذلك تتفاوت أعداد الفريقين . عند الرواة . تفاوتاً كبيراً، ولا سبيل إلى الاطمئنان إلى أي من هذه الروايات على كل حال، ومضى القسيسون والرهبان يحرضون الروم شهراً، ثم خرجوا إلى القتال الذي لم يكن بعده قتال مثله في جمادى الآخرة، فأراد أمراء المسلمين الخروج إليهم، وكل منهم أميراً على جنده، فقال لهم خالد: "إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وارضوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قومًا على نظام وتعبية وأنتم متساندون، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإن من وراءكم . يعني الخليفة . لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبتة"، فقالوا: هات الرأي، فنصحهم أن يتبادلوا الإمارة العامة؛ فيكون أحدهم أميرًا اليوم والآخر غدًا، والثالث بعد غد، حتى يتأمرؤا كلهم، وطلب منهم أن: "دعوني أليكم اليوم"، فأمرؤه وهم يرون أنها خرجة كخرجاتهم وأن الأمر يطول^(١)..

ويروي البلاذري^(٢) أن أبا بكر إنما جعل خالدًا . لما استقدمه إلى الشام . أميرًا على الأمراء بها، وذلك هو الأرجح، فقد كانت خطة أبي بكر أن يوحد القيادة عندما يجتمع جيشان أو أكثر في منطقة واحدة . كما فعل في حروب الردة مثلاً . وهذا إجراء منطقي وضروري للغاية من الناحية العسكرية، حتى يسيطر قائد واحد على توجيه جيوشه إلى أهدافها دون معارضة أو تردد؛ مهما تكن أسباب المعارضة والتردد.. والحق أن العقل لا يكاد يستسيغ أن تجتمع جيوش المسلمين في صعيد واحد وتظل قياداتها موزعة بين عدد منهم؛ يتعاورونها فيما بينهم

(١) الطبري: السابق ٣٩٥-٣٩٦، ابن الأثير: السابق ٢٥٩/٢

(٢) فتوح البلدان ص ١١٧

فيقودها أحدهم اليوم والآخر غدًا، مما قد يؤدي إلى تغيير خطط القتال وأساليب
المواجهة بتغير القيادة كل يوم، "إن خالدًا نُقل من منصب القائد العام في العراق
إلى منصب القائد العام في الشام"^(١).. وشدد المسلمون للقتال؛ فخرج في تعبئة لم
تُعَبِّها العرب من قبل؛ إذ قسم جيشه إلى كراديس^(٢)، ما بين ستة وثلاثين إلى
أربعين، وقال: "إن عدوكم قد كثر وطغى، وليس من التعبية تعبئة أكثر في رأي
العين من الكراديس"، وعُني خالد بالتعبئة المعنوية لمقاتليه فجعل أبا سفيان بن
حرب زعيم مكة الأسبق في مهمة القاص الواعظ، وهي مهمة تناسب تكوين ذلك
الجيش الذي يضم كثيرًا من قادات مكة السابقين ورجالها، فكان يقف على
الكراديس ويقول: "الله الله، إنكم زادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم زادة الروم
وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك"^(٣)،
ولما نشب القتال خرج قائد مقدمة الروم واسمه في المراجع العربية جَرَجَة؛ حتى
كان بين العسكرين فنادى: ليخرج إليّ خالد، فخرج إليه، وحاوره بشأن الإسلام؛
فأسلم الرجل وصلى مع خالد ركعتين؛ وحارب مع المسلمين حتى قُتل.. وشدد
المسلمون الخناق على الروم، وكانت ساحة قتالهم واسعة المطرد ضيقة المهرب،
فأفسح المسلمون سبيلًا لفرار خيلهم، ففرت في الصحراء، وتركت رجالتهم في
مصافهم، وقصد خالد والمسلمون المشاة فحملوا عليهم حتى انهزموا، "فكأنما هُدم
بهم حائط"، وكان كثير من جندهم قد تسلسلوا كيلا يفروا، فكان في ذلك هلاكهم،
وأكثر المسلمون فيهم القتل حتى الليل، وأصبح خالد وهو في رواق "تَدَارِق" قائد
الروم وشقيق هرقل، وقد أبلى المسلمون بلاءً حسنًا واستشهد كثير من خيارهم مثل

(١) شيت خطاب: السابق ص ١٤١

(٢) جمع كردوس، وهو الكتلة من الجنود تتألف من ألف مقاتل، وينقسم الكردوس إلى أجزاء عشرية،
والعريف يقود عشرة رجال، وأمير الأعشار يقود مائة؛ ولكل كردوس قائد له راية. ولعل كلمة "كردوس"
معربة من كلمة "كورتيس" الرومانية (راجع خطاب: السابق ص ١٤٧، حاشية ٤)

(٣) الطبري: السابق ٣/٣٩٦-٣٩٧.

عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو والحارث بن هشام، وأصيبت يومئذ عين أبي سفيان بن حرب، وقاتلت ابنته جويرية مع جماعة ممن النساء يبتغين الأجر والشهادة.

وفي أثناء هذه المعركة جاء رسول من المدينة بخبر موت أبي بكر واستخلاف عمر رضي الله عنه وعزل خالد عن الإمارة العامة وتولية أبي عبيدة بن الجراح، فكتب خالد الخبر عن جنده كي لا يفتر في أعضادهم، حتى تم النصر..

وفاة أبي بكر رضي الله عنه:

توفي أبو بكر لسبع ليال . أو ثمان . بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، وصلى عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد روي في سبب وفاته أنه أكل طعاماً قد سُمِّ، وروي . وهو الأرجح . عن عائشة ابنته أنه اغتسل في يوم بارد فحُمَّ خمسة عشر يوماً، كان يصلي بالناس فيها عمر، وهو يتقل كل يوم حتى أدركه أجله عن ثلاث وستين سنة، بعد أن ظل خليفة سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال (١)، وتمثلت عائشة عنده وهو يحتضر بقول حاتم الطائي:

لعمرك مما يُغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
فقال: يا بنية قول الله أصدق: " وجاءت سكرة الموت بالحق، ذلك ما كنت منه تحيد "، إذا مت فاغسلي أخلاقي؛ واجعلها أكفاني، فقالت: يا أبتاه؛ قد رزق الله وأحسن، نكفك في جديد، فقال: إن الحي هو أحوج . يصون نفسه ويقنعها . من الميت، وإنما يصير إلى الصديد وإلى البلى (٢) ..

(١) وقيل: كانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلا أربع ليال (راجع ابن الأثير: أسد الغابة ٢٢٨/٣-٢٢٩)

(٢) ابن سعد: السابق ٩٤/٣، والآية من سورة ق رقم ١٩

الفصل الثاني

خلافة عمر بن الخطاب ؓ

المبحث الأول:

عمر بن الخطاب ؓ واستخلافه ومنهجه في الحكم والإدارة

أولاً: ٦ عمر بن الخطاب قبل الخلافة:

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح ^(١) بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب القرشي العدوي، كنيته أبو حفص، ولقبه الفاروق ؓ، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم ^(٢)..

ولد عمر بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة ^(٣)، وكان من أشرف قريش وإليه كان أمر السفارة في الجاهلية؛ وذلك أن قريشاً كانوا إذا وقعت بينهم حرب . أو بينهم وبين غيرهم . بعثوه سفيراً، وإن نافرهم منافراً أو فاخرهم مفاخر رضوا به؛ فبعثوه منافراً أو مفاخرًا ^(٤)..

^(١) كذا عند ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣ / ١٨٣، وعند ابن الأثير في أسد الغابة ٣ / ٦٤١ أنه رياح، وكذا الطبري في تاريخ الرسل والملوك ٤ / ١٩٥.

^(٢) وهي بذلك ابنة عم أبي جهل بن هشام المخزومي، وقيل: بل هي حنتمة بنت هشام بن المغيرة، وتكون بذلك أخت أبي جهل، والفول الأول هو الأرحج، وكان يقال لأبيها هاشم بن المغيرة: ذو الرمحين (راجع نسب عمر في ابن الأثير: أسد الغابة ٣ / ٦٤١-٦٤٢، ابن سعد السابق ٣ / ١٨٣ ومصعب الزبيري: نسب قريش ٣٤٧، وابن حجر: الإصابة ٣ / ٢٧٩، ابن الجوزي: سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ص ٢٢-٢٣)

^(٣) ابن الأثير: أسد الغابة ٣ / ٦٤٢

^(٤) ابن الأثير: السابق ٣ / ٦٤٢، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٠٩.١٠٨

ويبدو أن شدته وقوة شكيمته وما امتاز به من هيبة وفصاحة واعتزاز بما يراه حقًا؛ وصلابته فيما يعتقد صوابًا هي التي رشحته للسفارة في قومه، أو بينهم وبين مخالفيهم، وهي التي جعلته فظًا غليظ القلب على من أسلم من قومه منذ فشا فيهم الإسلام، وأضحى . فيما يراه عمر . خطرًا يهدد وحدة قبيلته وسلامة بنائها القبلي والعقدي، وقد أثر عته تعذيب كثير من المستضعفين، فكان يعذب جارية مسلمة لبني مؤمل . حي من بني كعب . ويشتد في عذابها، حتى إذا ملّ قال: " إني أعتذر إليك؛ إني لم أتركك إلا ملالة"، فترد عليه في استعلاء وأنفة بثتهما فيها الدعوة الناشئة رغم ما تعانيه من رق وضنى: " كذلك فعل الله بك "، ومضى الحال على ذلك حتى أعتقها أبو بكر الصديق^(١).

وتروي ليلي بنت أبي حثمة - زوجة عامر بن ربيعة حليف آل الخطاب - أن عمر رآها وهي تمضي في طريقها للهجرة إلى الحبشة، وقد ذهب زوجها لقضاء بعض حاجتهم، فلما علم أنها مهاجرة مع زوجها بدينهما من أذاه وأذى قريش قال: "صحبكم الله"، ورأت له رقة لم تكن تراها، ثم انصرف، وقد أحزنه خروجهما، فلما جاء زوجها بحاجته قالت: " يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفًا ورقته وحزنه علينا، قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: نعم، قال: "فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب"، يأسًا منه . لما كان يرى من غلظته وقسوته . عن الإسلام^(٢)، ورغم ذلك فإن خصاله ومواهبه التي يختفي كثير منها وراء ستار الغلظة والجفاء هي التي دعت رسول الله ﷺ . الباحث عن الممتازين من الرجال . إلى أن يدعو الله: " اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك؛ بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام "

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٣١٣/١

(٢) السابق ٣٣٣/١، وانظر ص ٣٢١

فكان أحبهما إليه عمر بن الخطاب^(١)، فأسلم عمر سنة ست من البعثة، وكان قد أسلم قبله نحو أربعين رجلاً، أو بضع وأربعين، وإحدى عشرة امرأة، وكان سبب إسلامه آيات سمعها أو قرأها من القرآن الكريم فلما ملك عليه لبه، وأمأطت عنه حجاباً سميّاً من العصبية والشطط^(٢)..

وما هو إلا أن أسلم عمر حتى ظهر الإسلام بمكة عزيزاً^(٣)، حيث سعى عمر إلى إعلان إسلامه بكل سبيل أمام سادات قريش وكبار طواغيتهم؛ ومجاہتہم به، واحتمال أذاهم، وردة عليهم إن استطاع.. وهو حريص على أن يصيبه مثل ما يصيب إخوانه من المستضعفين من المسلمين^(٤)، وخرج المسلمون إثر إسلامه ومعهم رسول الله ﷺ في صفتين يتقدمهما عمر وحزمة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ. وكان أسلم قبله بأيام قلائل . حتى دخلوا المسجد الحرام؛ وقريش تنظر إليهم تعلقوا الكأبة، وتستسلم للواقع الجديد؛ ويبدو أن النبي ﷺ لقبه يومها "الفاروق"^(٥)، وكأن ابن مسعود كان يتحدث بلسان السابقين إلى الإسلام لما قال: "ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر"^(٦)، وقال: " كان إسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت

(١) ابن سعد: السابق ٣/١٨٦-١٨٧، ابن الأثير: السابق ٣/٦٤٣، ابن الجوزي: صفة الصفة ١/١٣٩، ابن حجر: الإصابة ٣/٢٨٠، والحديث الشريف رواه ابن ماجة في السنن ١/٣٩، والحاكم في المستدرک ٣/٨٣

(٢) قيل إن هذه الآيات من سورة الحاقة أو من سورة الدخان أو صدر سورة طه (راجع ابن هشام: السابق ١/٣٣٣-٣٣٦، ابن الأثير: أسد الغابة ٣/٦٤٣-٦٤٥، ابن الجوزي: السابق ١/١٣٩-١٤١، ابن سعد: السابق ٣/١٨٦-١٨٨)

(٣) كما قال سعيد بن المسيب من كبار التابعين، (راجع ابن سعد: السابق ٣/١٨٩)

(٤) ابن هشام: السابق ١/٣٢٧-٣٢٨.

(٥) ابن الجوزي: السابق ١/١٤١، ابن الأثير: السابق ٣/٦٤٧.

(٦) البخاري: الصحيح، حديث رقم ٣٦٨٤، ابن سعد: السابق ٣/١٩٠

إمارته رحمة، وقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي في البيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا " (١) ..

وظل عمر قريبًا من النبي ﷺ أثيرًا عنده طوال مقامهما بمكة، قلما حانت هجرته إلى المدينة زعم الرواة أن عمر وحده هاجر علانية، وأبى أن يهاجر في سرية وتكتم، كشأن غيره من الصحابة، فتقلد سيفه، وتكّب قوسه، ومضى إلى الكعبة وبها ملأ قريش، فطاف بالبيت وصلى ركعتين، ثم قال: شأهت الوجوه! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تتكله أمه، أو ييتم ولده، أو ترمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي، فإني مهاجر، فما منعه أحد (٢).

وهذا لا يصح، فما كان لعمر أن يشذ عن السياسة العامة التي اختطها رسول الله ﷺ؛ والتي تقضي ألا تُستفز قريش، ولا تستثار، حتى تتم الهجرة بسلام، وليدخر قوى المؤمنين لمهام جليلة تنتظرهم مع قيام الدولة الإسلامية.. وثمة رواية أخرى تتسق مع التوجه العام للمرحلة؛ وسلوك بقية الصحابة الكرام، وخالصتها أن عمر اتّعد مع عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل ليتلاقوا في موضع عيتوه للهجرة، فجاء عياش في مواعده، وتخلف ثالثهما، فانطلقا مهاجرين، وفي طريقهما أدركهما أبو جهل وأخوه الحارث بن هشام، يريدان أن يعيدا عياشًا. وكان ابن عمهما وأخًا لهما لأمههما. فما زالوا به يستعطفانه على أمه التي أقسمت ألا تمس رأسها مشط حتى يرجع إليها ابنها، ومضيا يناشدانه أن يعود ليبر قسم أمه، وما زالوا به يخادعانه حتى انخدع؛ رغم تحذيرات عمر بن الخطاب له، فعادا به، حيث فتناه، ومضى عمر وحده إلى المدينة فتمت هجرته (٣) ..

(١) ابن سعد: السابق ٣ / ١٩٠، ابن الأثير: السابق ٣ / ٦٤٨

(٢) ابن الأثير: السابق ٣ / ٦٤٨-٦٤٩

(٣) ابن هشام: السيرة ٢ / ٦٤-٦٥ الهيثمي: مجموع الزوائد ١ / ٦١

وشهد مع النبي ﷺ الغزوات كلها، وتزوج النبي ﷺ ابنته حفصة فزاد قرباً منه، وتبدت في شخصيته مواهب عديدة فكرية وروحية أهلته لأن يكون . مع أبي بكر . وزير النبي ﷺ (١)، ومستشاره الذي يُجل رأيه؛ فكم من مرة نزل القرآن الكريم مؤيداً رأي عمر واجتهاده (٢)، حتى قال عنه النبي ﷺ: "قد كان في الأمم قبلك محدثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإنه عمر بن الخطاب " (٣)، وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ..

وكان لسرعة تحرك عمر الأثر الكبير في استخلاف أبي بكر في سقيفة بني ساعدة، وكان عمر طيلة خلافة أبي بكر وزيره ومستشاره الأول وإن خالفه في عدة مسائل، وإلى رأيه الراجح وبصيرته الملهمة يرجع الفضل في جمع القرآن الكريم في مصحف مكتوب بعد استشهاد كثير من حفظته في حروب الردة (٤)، فلما حضرت أبا بكر الوفاة لم يتردد في استخلاف عمر..

ثانياً: استخلاف عمر رضي الله عنه:

روى الواقدي أن أبا بكر لما حضرته الوفاة دعا عبد الرحمن بن عوف فسأله عن رأيه في عمر فقال: "هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة"، فقال أبي بكر: "ذلك لأنه يراني رقيقاً؛ ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه"، ثم دعا إليه عثمان بن عفان فسأله عن عمر فقال: "اللهم علمي به

(١) رواه الحاكم: المستدرک ٢/٢٦٤.

(٢) مثل رأيه في أسرى بدر (راجع: ابن القيم: زاد المعاد ٢/٩٧) وعدم الصلاة على زعيم المنافقين ابن أبي وحجاب نساء النبي ﷺ وغير ذلك..

(٣) البخاري: الصحيح حديث رقم ٣٦٨٩، ومسلم: الصحيح، رقم ٢٣٩٨، ومعنى محدثون: ملهون.

(٤) البخاري: الصحيح، باب جمع القرآن، كتاب ٦٦.

أن سريرته خير من علانيته، وأن ليس فينا مثله"، قال أبو بكر: " لو تركته ما عَدَوْتُكَ، وما أدري لعله تاركه، والخيرة له ألا يلي من أموركم شيئاً" (١) وفي رواية أخرى للواقدي أن أبا بكر دعا عثمان خالياً فقال له: " اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين، أما بعد"، ثم أخذته غشية، فظن عثمان أنه قبض، فكتب على لسانه: " فإنني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، ولم ألكم خيراً منه "، ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليّ، فقرأ عليه عثمان ما كتبه، فكبر أبو بكر وقال: " أراك خفت أن يختلف الناس إن افتتت نفسي في غشيتي "، قال: نعم، قال: "جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله"، وأقرأها أبو بكر (٢)، ثم أشرف أبو بكر على الناس من حجرته التي يُمرض فيها فقال: "أترضون بمن استخلفت عليكم ؟ فإنني والله ما ألوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، وإنني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا"، فقالوا: سمعنا وأطعنا (٣)، وخرج خادمه في رواية أخرى بكتاب أبي بكر فقرأه على الناس (٤) ..

ويتضح من مجمل هذه الروايات أن الصديق أبا بكر أحسّ . لما دنت وفاته . بخطر أن يترك المسلمين دون أن يستخلف عليهم؛ فيحدث لهم كما حدث يوم سقيفة بني ساعدة من انشعاب الرأي وتنافس الأمر، وليس فيهم من يجتمعون عليه في سابقة أبي بكر وحسن صحبته ومكانته من رسول الله ﷺ، بينما جيوش المسلمين في جبهات القتال بإزاء الفرس والروم مما يجعل اختلاف الأمر بشأن الخلافة خطيراً أيما خطر، وكان أمر الاختلاف وارداً على أية حال كما يبدو من

(١) الطبري: السابق ٣ / ٤٢٨

(٢) السابق ٣ / ٤٢٩، وانظر رواية أخرى عن الكتاب الذي كتبه أبو بكر يستخلف فيه عمر: ابن الأثير:

أسد الغابة ٣ / ٦٤٦

(٣) الطبري: السابق ٣ / ٤٢٨

(٤) السابق ٣ / ٤٢٩

مشاورات أبي بكر وكبار الصحابة بشأن من يستخلف عليهم، فرغم إقرارهم بتميز عمر وفضله وقدراته فقد كان بعضهم يخشى شدته، وكان عمر معروفًا بها زمن النبي ﷺ وصاحبه مع رقتهما وبالغ رحمتها، فكيف يكون إن صارت إليه مقاليد الأمور وليس ثم رسول الله ولا أبو بكر يكفكف من سؤرته وغضبه ويأمره فيستجيب ويرعوي، ولقد طمأن أبو بكر مخاوف ذلك الفريق إذ كان أدرى الناس بطباع عمر وشمائله، وخصال الرحمة المستكنة داخله، والتي تخفيها خشونته الظاهرة ورغبته في موازنة لين الصديق ورحمته، فقال أبو بكر لعبد الرحمن بن عوف لما تخوف من شدة عمر: " ذلك لأنه يراني رقيقًا، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرًا مما هو عليه" ..

وكانت وفاة أبي بكر لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ^(١)، فصعد عمر المنبر فقال: "إنما العرب مثل جمل أنف^(٢) اتبّع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده، أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق " ^(٣) ..

ثالثًا: منهج عمر بن الخطاب ﷺ في الحكم والإدارة

اختلف الرواة في أول خطبة خطبها عمر؛ فقال بعضهم إنه قال: "اللهم إني شديد فليتي، وإني ضعيف فقوني، وإني بخيل فسخني" ^(٤)، وروي إن أول خطبة كانت قوله: " إن الله ابتلاكم بي وابتلاني بكم بعد صاحبي، فوالله لا يحضرنى شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فألو فيه عن أهل الجزء - يعني

(١) الطبري: السابق ٣ / ٤١٩، ابن الأثير: الكامل ٢ / ٢٦٧.

(٢) الجمل الأنف هو الجمل الذلول المواتي الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطي ما عنده من السير عفواً سهلاً..

(٣) الطبري: السابق ٣ / ٤٣٣، ابن الأثير: السابق ٢ / ٢٦٧

(٤) ابن سعد: السابق ٣ / ١٩٦

الكفاية - والأمانة، والله لئن أحسنوا لأحسننَّ إليهم، ولئن أساءوا لأنكلنَّ بهم، فقال من شهد خطبته: " فوالله ما زاد على ذلك حتى فارق الدنيا" (١) ..
وروى أنه لما صعد المنبر همَّ أن يجلس مكان أبي بكر فأكبر ذلك، فنزل مرقاة، فحمد الله و أثنى عليه ثم قال: " اقرؤوا القرآن تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزینوا للعرض الأكبر يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية، إنه لم يبلغ حق ذي حق أن يُطاع في معصية الله، ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم؛ إن استغنيت عففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف " (٢) ..

ويمكن الجمع بين هذه الروايات إذا افترضنا أن عمر ألقى خطبته أمام جمع من الحاضرين فحفظ بعضهم منها جزءًا فرواه، وحفظ آخر جزءًا غيره فذكره..
وليس من الغريب أن يمزج الفاروق في أول خطبة له بين البيان السياسي والإداري والعظة الدينية، فذلك نهج هؤلاء الأئمة الأولين الذين لم يروا فارقًا بين تقوى الله والأمر بها وسياسة البشر تبعًا لمنهجه وشريعته، كما أنه ليس غريبًا على عمر أن يراعي حق سلفه العظيم أبي بكر فلا يجلس في موضع كان يجلس فيه فيساويه بذلك في أعين الناس، فراجع عمر نفسه، ونزل درجة عن مكان الصديق ﷺ، وفي رواية أخرى أنه بعد يومين من استخلافه تحدث الناس فيما كانوا يخافون من شدته وبطشه، وأدرك عمر أنه لا بد من تجلية الأمر بنفسه، فصعد المنبر وخطبهم فذكر بعض شأنه مع النبي ﷺ وخليفته، وكيف أنهما توفيا وهما عنه راضيان، ثم قال: " .. ثم إني قد وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي، ولست أدع أحدًا يظلم أحدًا أو يتعدى عليه

(١) السابق والصفحة

(٢) الهندي: كنز العمال رقم ٤٤٢١٤، المحب الطبري: الرياض النضرة في مناقب العشرة ٢ / ٨٩، الكاندهلوي: حياة الصحابة ٣ / ١٨٨٩.

حتى أضع خدّه على الأرض، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق،
وإنني بعد شدتي تلك أضع خدي لأهل العفاف وأهل الكفاف، ولكم على أيها الناس
خصال أذكركم لكم فخذوني بها: لكم على أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم، ولا مما
أفاء الله عليكم إلا في وجهه، ولكم على إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في
حقه، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى، وأسدّ ثغوركم، ولكم
على ألا ألقىكم في المهالك، ولا أجمركم في ثغوركم (أي لا أبقىكم على جبهات
القتال بعيداً عن أهليكم مدة طويلة لا تحتملونها)، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو
العيال حتى ترجعوا إليهم، فاتقوا الله عباد الله، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني،
وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحضاري النصيحة
فيما ولاني الله من أمركم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم " (١) ..

وفي هذه الروايات لخطبة عمر لما ولي الخلافة يتضح منهجه في الحكم
الذي لم يحد عنه، وأبرز ملامحه:

أولاً: إنه ينظر إلى الخلافة على أنها ابتلاء ابتلي به، سيحاسب عن أداء حقه..
فالحكم عند الراشدين تكليف وواجب وابتلاء؛ وليس جاهاً وشرفاً واستعلاء..
ثانياً: وهذا الاستخلاف يتطلب منه أن يباشر حمل أعباء الدولة فيما حضره من
أمرها، وأن يولي على الرعية التي غابت عنه أفضل الأمراء وأكفأهم، غير أن ذلك
- فيما يرى عمر - ليس كافياً لإبراء ذمته أمام الله تعالى؛ بل يرى أن مراقبة هؤلاء
العمال والولاة فرض لا فكاك منه، فمن أحسن منهم زاده إحساناً، ومن أساء عاقبه
ونكّل به..

ثالثاً: إن شدة عمر التي هابها الناس سيخلطها لهم لينا ورحمة، وسينصب لهم
ميزان العدل، فمن ظلم وتعدى لن يجد إلا التكيل والهوان، "ولست أدع أحداً يظلم

(١) هيكّل: الفاروق عمر: ٩٣-٩٤، فاروق المجدلاوى: الإدارة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب
ص ١٠٥ - ١٠٦.

أحدًا ويتعدى عليه حتى أضع خذه على الأرض..“ أما من أثر القصد والدين والعفاف سيجد من الرحمة ما لا مزيد عليه؛ “أضع خدي لأهل العفاف.. رابعًا: وتكفل الخليفة بالدفاع عن الأمة ودينها وسد الثغور ودفع الخطر، غير أن ذلك لن يتم بظلم المقاتلين، فلن يحبسهم في الثغور إلى حد لا يطيقونه، وإن غابوا في الجيوش فسيرعى الخليفة أبناءهم وأسرههم، ويلبي حاجاتهم..

خامسًا: وتعهد الخليفة بأداء الحقوق المالية للرعية الكاملة.. من خراج وفيء، لا يحتجن منه شيئًا، ولا يضعه في غير محله.. بل سيزيد عطاياهم وأرزاقهم باستمرار الجهاد والغزو والحض على العمل وضبط الأداء المالي للدولة..

سادسًا: وفي مقابل ذلك يطالب الرعية بأداء واجبها من النصح لخليفته وطاعته والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما يشيع الرقابة الإسلامية في المجتمع..

سابعًا: ونبه إلى أنه لا معين على ذلك إلا بتقوى الله ومحاسبة النفس واستشعار المسؤولية في الآخرة.. وسوف نتناول فيما يلي هذه الجوانب المختلفة لسياسته:

١- شدة عمر في محاسبة نفسه وأهله:

كان عمر قبل أن يلي الخلافة رجلاً تاجرًا يشغله الصفق بالأسواق عن بعض ما يحبه من طول صحبة النبي ﷺ والأخذ عنه، وكان لا يتحرج في التمتع بما يحل له من طعام ونساء^(١)، لكنه بعد أن أبتلى بالخلافة تفجرت في نفسه ينابيع الخوف من تقيل التبعة وعظيم المساءلة عن أمة محمد ﷺ، فأخذ نفسه بشدة وصرامة هي جزء من طبيعته، فلما ولي الخلافة مكث زمانًا لا يأكل من بيت مال المسلمين شيئًا حتى أصابته الحاجة واضطر إلى أن يسأل أصحاب النبي ﷺ عما يحل له من مال المسلمين، فقال بعضهم: غداء وعشاء، قال: صدقت^(٢)، فكان عمر يستنفق كل يوم درهمين له ولعِياله، ويكتسي حُلَّة في الصيف، فما يستبدل

(١) راجع ابن سعد: السابق ٢٦٢/٣، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/١٦١.

(٢) ابن سعد: السابق ٢٣٩/٣.

بها . وإن رقعها رقعاً عديدة . حتى يأتي أوان ذلك، فلما كلمته ابنته حفصة زوج النبي ﷺ في ذلك قال: إنما أكتسي من مال المسلمين، وهذا يبليغني (١)، وكان يقسو على نفسه في طعامه وهو العليم بأطايبه، ويقول: "نحن أعلم بلين الطعام من كثير من أكلته، ولكننا ندعه ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع فيه كل ذات حمل حملها (٢) .. وأراد أصحاب النبي ﷺ . وهم يرون شدته على نفسه - أن يكلموه في الرفق بها، ولكنهم ها قال: كلموا ابنته حفصة في ذلك، فأنت إليه وأخبرته ما قالوا، فقال عمر: "غششت أباك ونصحت لقومك (٣)، ولما كررت طلبها في وقت آخر إشفاقاً عليه قال لها: سأخاصمك إلى نفسك؛ أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقي من شدة العيش؟ فما زال يذكرها بذلك حتى أبكاها (٤)، ولما حدثه العباس بن عبد المطلب في الأمر نفسه قال: "إنه مضى صاحبان لي، عملاً عملاً وسلكا طريقاً، وإني إن عملت بغير عملهما سلك بي طريق غير طريقها" (٥) .. والروايات عن زهد عمر وصرامته مع نفسه كثيرة، تزخر لها كتب التاريخ والسير وتراجم الرجال (٦) ..

وكان عمر شديدًا مع أهله.. فقد كان يعلم أن الأبصار طامحة إليه، وأنه لا جدوى إن قسا على نفسه ورتع أهله فحوسب عنهم في الآخرة ولم ترحمه السنة الخلاق في الدنيا، فكان إذا أراد أن ينهى عن شئ تقدم إلى أهله فقال: لا أعلم أحدًا وقع في شيء مما نهيت عنه إلا أضعفت له العقوبة (٧) ..

(١) السابق ٣/٢٤٠.

(٢) ابن الجوزي: سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ص ١٧٥، ١٧٩.

(٣) ابن سعد: السابق ٣/٢٠٠.

(٤) السابق ٣/١٩٩ - ٢٠٠، ابن الجوزي السابق ص ١٧٥.

(٥) ابن سعد السابق ٣/٢١٦.

(٦) راجع ابن سعد: السابق ٣/٢٣٤: ٢٥٤-٢٥٥، ابن الجوزي: السابق ١٧٠ - ١٨٠.

(٧) ابن سعد: السابق ٣/٢١٦.

وقد شرب ابنه عبد الرحمن الخمر في مصر . وهو لا يحسبها خمراً . فسكر ، فذهب إلى عمرو بن العاص والي مصر ، فطالبه أن يقيم عليه الحد ، فحدّه عمرو في صحن بيته حيث يقيم الحدود للناس جميعاً ، فلما علم عمر كتب إلى عمرو يلومه ويعذله - إذ ظن أنه إنما أقام عليه الحد في بيته مراعاة لمكانة أبيه خليفة المسلمين - وطالبه أن يرسل به إليه في عباءة على قتب كي يعلم سوء ما صنع ، فأعاد عمر جلده تعزيراً ، "لمكانه منه ، فلبث شهراً صحيحاً ، ثم مات" (١) ..

ونهى عمر ابنه عبد الله من أن يرعى إبله في المنطقة التي حماها عمر لخيال المسلمين وإبلهم مخافة أن يكون في ذلك استغلال لنفوذ أبيه ومجاملة له فيحسن القائمون على الحمى رعاية إبله زيادة عما يفعلون مع سائر المسلمين (٢) . ولما أتاه طيب من المسك من البحرين قال عمر : وددت أني أجد امرأة حسنة الوزن تزن لي هذا الطيب حتى أفزقه بين المسلمين ، فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد : أنا جيدة الوزن : فهلّم أزن لك ، قال : لا ، قالت : ولم ؟ قال : إني أخشى أن تأخذه هكذا فتجعله هكذا . وأدخل أصابعه في صدغيه . وتمسحين عنقك ؛ فأصيب فضلاً من المسلمين" (٣) ..

ولما قدمت على المسلمين حلى الذهب والفضة من غنائم جلولاء أتى ابنه عبد الرحمن الأوسط فقال : يا أبتاه هب لي خاتماً ، فقال عمر : اذهب إلى أمك تسقيك سويقاً (٤) .. ورأى عمر جارية صغيرة تطيش هزالاً فسأل : من هي ؟ فقيل له

(١) ابن الجوزي : السابق ٢٨٢ - ٢٨٣ ، وهذه هي الرواية الأخرى بالقبول في موته ، وقد عقب ابن الجوزي على ذلك فقال : "فيحسب عامة الناس أنه مات من جلد عمر ، ولم يمت من جلده" ، ولكن القُصَّاص زادوا في ذلك الخبر ، فخرجوا به عن الجادّة (راجع تعليق ابن الجوزي : السابق ٢٨٣) ..

(٢) ابن سعد السابق ٢١٦/٣ .

(٣) ابن الجوزي : السابق ص ١٩١ .

(٤) السابق ص ١٣٧ - ١٣٨ ، والسويق هو قمح أو شعير يُقلى ثم يطحن لِيُسْفَ ، تارة بماء وتارة بعسل وسمن .

إنها ابنة عبد الله بن عمر، فسأل عمر أباهما: ما صيرها إلى ما أرى؟ قال: منعك ما عندك، قال عمر: "ومنعني ما عندي منعك أن تطلب لبناتك ما يكسب الأقوياء لبناتهم؟ إنه والله مالك عندي غير سهمك في المسلمين، وسعك أو عجز عنك، هذا كتاب الله بيني وبينك" (١) ..

٢- رعاية عمر الضعفاء من الرعية:

كان عمر يتعهد - وهو خليفة المسلمين - عجائز المدينة وضعيفاتها، يأتي لهن بما يصلحهن، ويخرج عنهن الأذى (٢) .. ويرقب ضيفان المدينة والوافدين عليها ليلبي لهم حاجاتهم، ويكفل لهم راحتهم.. فقالت:مت رفقة من التجار المدينة بادر عمر إلى حراستهم ومعه عبد الرحمن بن عوف ليلاً، ولما سمع بكاء صبي نهر أمه إذ لم تكفك دمه بعد أن أوصاها به ثلاثاً.. فقالت: يا عبد الله - وهي لا تعرف أنه عمر - قد أبرمتي منذ الليلة، إنني أريعه (أي أريده) عن الفطام فيأبى عليّ، فقال عمر: ولم؟ قالت لأن عمر لا يفرض (في العطاء) إلا للفظيم، فلما مضى عمر لصلاة الفجر كان الناس لا يستبينون قراءته من غلبة البكاء، فلما انقضت الصلاة قال عمر: بؤسا لعمر كم قتل من أولاد المسلمين، ثم أمر منادياً فنادى: أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإننا نفرض لكل مولود في الإسلام، وكتب بذلك إلى الآفاق (٣) ..

وشهيرة قصة المرأة التي قدمت إلى المدينة فضربها وأبناءها البرد بالليل، فمضى الصبيان يبكون جوعاً؛ وهي لا تملك ما تطعمهم إياه، فتسكتهم بماء يغلى في القدر الفارغ، فلما رآهم عمر وهو يسعى خارج المدينة حمل إليهم بنفسه الدقيق والشحم، ومضى يصنع لهم الطعام وينفخ في النار لينضجه، فلما أكلوا وشبعوا

(١) ابن الجوزي: السابق ص ١٣٦، وانظر: ابن سعد: السابق ١٩٩/٣.

(٢) ابن الجوزي: السابق ص ٩٩.

(٣) السابق ٩٤ - ٩٥.

مضى عمر يركض للصبية ركض السبع - يداعبهم بذلك - حتى أضحكهم، وقال لغلامه الذي يعجب لحاله: إن الجوع أسهرهم وأبكاهم؛ فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت (١) ..

ولما هجم على المسلمين عام الرمادة (٢) سنة ١٨ هـ وضربهم القحط - إذ أمسكت السماء المطر وصار الناس والدواب يموتون جوعاً - آلى عمر على نفسه أن لا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى تزول المحنة، وكان يقول: " كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسنني ما مسنهم (٣)؟ وقد آذى بطنه أكل الزيت فكان يأمر به فيطبخ له لينكسر عنه حره، فيقرقر بطنه منه، فينقر عليها بإصبعه وهو يقول: "تقرقر تقرقر، إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيا الناس"، ويقول: "لتمزّنن أيها البطن على الزيت مادام السمن يباع بالأواقي" (٤) ..

وألزم عمر أهل بيته هذه الحياة الصارمة، فلما رأى صبيّاً له بيد بطيخة في عام الرمادة قال: "بخ بخ، يا ابن أمير المؤمنين، تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى"، فخرج الصبي هارباً وهو يبكي (٥) .. ولما شم عمر رائحة اللحم في بيت ولده عبيد

(١) الطبري: السابق ٢٠٦/٤، ابن الجوزي: السابق ٩٦ - ٩٧، ابن كثير: السابق ١٨٠/٤.

(٢) سمي عام الرمادة بذلك لأن الأرض اسودت من الجذب فكثرت ترابها، فكانت الريح إذا تحركت سفّث الأرض رماداً.

(٣) هذا هو المشهور عند المؤرخين، ولا يستقيم ذلك التاريخ مع ما ورد من إرسال عمرو بن العاص من مصر الطعام والكساء لمبرة أهل المدينة، إذ بدأ فتح مصر سنة ١٨ هـ، ويجعل ابن سعد بداية عام الرمادة مع صدور الناس من الحج في ذي الحجة سنة ١٨ هـ ومعنى ذلك أن عام الرمادة اشتد سنة ١٩ هـ وكان جزء من مصر قد تم فتحه، فأرسل عمرو النجدات وأخر سنة ١٩ هـ (راجع ابن سعد السابق ٢٤٣/٣، محمد حسن شراب: المدينة المنورة ٢/ ٣٢ - ٣٣).

(٤) الطبري: السابق ٩٨/٤.

(٥) ابن سعد: السابق ٢٤٧/٣.

الله أرسل من يأتيه به؛ حتى قال عبيد الله فرعًا لرسول أبيه: أسترنى سترك الله!، وأعتذر إلى أبيه بأنه لم يكن يعلم أن في بيته لحمًا (١) ..

وقد ترك ذلك الهمّ بأمر المسلمين أثره على الخليفة الذي اسودّ لونه - بعد بياض - عام الرمادة؛ حتى قال أصحابه: "لو لم يرفع الله المحل - أي شدة القحط - عام الرمادة لظننا أن عمر يموت همًّا بأمر المسلمين" (٢).

٣- تقديمه أهل السابقة والفضل وشدته على أهل التجاوز والتعدي:

كان كبار الصحابة هم أعضاء مجلس شورى عمر، ومحل سرّه ونجواه، لا يعدل بهم غيرهم، استأثر بهم على أهل الأمصار لشدة حاجته إلى رأيهم وتدبيرهم، وقدمهم عمر على من سواهم في تنظيمه ديوان العطاء، بل كان يحفظ ذكرى السابقين إلى الإسلام بعد وفاتهم، فقد جاءته إحدى النساء تشكو الفقر وضئعة الأولاد بعد وفاة زوجها، وأخبرته أنها ابنة خفاف بن إيماء (٣) - من أهل بيعة الرضوان - فأعطاهما عمر بغيرًا مملوءًا طعامًا، وأعطاهما نفقة وثيابًا، ووعدّها خيرًا، فقال رجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها، فقال عمر: ثكلتك أمك، والله إنني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنًا زمانًا فافتتاحه، ثم أصبحنا نستقيء سهامنا فيه (٤) ...

ووقف بباب عمر أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام ونفر من رجالات قريش ممن تأخر إسلامهم، وكان معهم بلال وصهيب وبعض الموالى والمستضعفين، فإذن عمر لبلال وصحبه أن يدخلوا قبل أبي سفيان وصحبه، فتضجر أبو سفيان، فقال سهيل بن عمرو: "إن كنتم غضابًا فاغضبوا

(١) ابن الجوزي: السابق ص ٩١.

(٢) ابن سعد: السابق ٢٤٨/٣.

(٣) السابق ٢٥٠/٣، وانظر ص ٢٦٢.

(٤) ابن الجوزي: السابق ص ٩٣ - ٩٤.

على أنفسكم؛ دعي القوم - أي إلى الإسلام - ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دُعوا يوم القيامة وتُركتم ؟ (١) ..

وابتنى أبو سفيان رضي الله عنه دارًا بمكة، فشكاه أهلها إلى عمر، وقالوا: إنه "حبس مسيل الماء عنا ليهدم منازلنا"، وذلك بسبب اختياره موضع داره تلك، فأقبل عمر ومعه الدرّة، فوجد أبا سفيان قد نصب أحجارًا للبناء؛ فجعل عمر يقول له: "ارفع هذا الحجر"، فيرفعه، ثم يقول: "ارفع هذا الحجر"، فيرفعه، حتى رفع خمسة أو ستة أحجار، ورأى عمر أنه بذلك قد زال الضرر، فاستقبل الكعبة وقال: "الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه" (٢) ..

وعمر هو الذي أمر الرجل القبطي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص أن يقتص منه، فضربه حتى أثخنه، ثم قال عمر: "أجلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه"، فقال الرجل: "يا أمير المؤمنين، لقد ضربت من ضربني"، فقال: "أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه، أيا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا" ؟ ثم قال للمصري: "انصرف راشدًا، فإن رابك ريب فاكتب إلي" (٣) ..

٤- مباشرة أمومر الخلافة بنفسه:

كانت سياسة عمر تطبيقًا أمينًا لتعهدده في خطابه بعد توليه الخلافة وقوله فيه: "ولا يحضرني من أموركم شيء فيليه أحد دوني"، فكان يلخص ذلك في بقوله: "لو ماتت شاه على شط الفرات ضائعة لظننت أن الله سألني عنها يوم القيامة" (٤)،

(١) السابق ١٢٩.

(٢) ابن الجوزي: السابق ١٢٨

(٣) السابق ١٣٠

(٤) السابق ١٩٢

وقوله: "لو مات جمل ضياعاً على شط الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه" (١).. فكان عمر يعسّ بنفسه لينتقد أحوال رعيته ليلاً (٢)، بل كان يباشر إبل الصدقة - المملوكة للدولة - فإن نذّ منها بعير عدا عمر في طلبه، وقد رآه عليّ ابن أبي طالب مرة يفعل ذلك؛ فقال: "لقد أدلت الخلفاء بعدك"، فقال عمر: "لا تلمني يا أبا الحسن؛ فوالذي بعث محمداً بالنبوة لو أن عناقاً . وهي أنثى المعز . ذهبت بشط الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة" (٣).. وهكذا كانت الخشية من المحاسبة أمام الله تعالى عن أمة النبي ﷺ هي التي تورق على عمر عيشته ويذهب تذكراها راحته..

قدم عليه الأحنف بن قيس في وفد من العراق، فوجد عمر معتجراً بعباءته يلفُ بها رأسه في يوم صائف شديد الحر يهنأ بعيراً من إبل الصدقة (٤)، فقال: يا أحنف ضع ثيابك وهلمّ فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير، فإنه لمن إبل الصدقة فيه حق لليتيم والمسكين والأرملة، فقال رجل من القوم: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلاً تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك هذا؟ فقال عمر: "وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف، إنه من ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين، يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده" (٥)..

ودخل عمر حظيرة إبل الصدقة ومعه عثمان وعليّ؛ فجلس عثمان في الظل يكتب؛ وقام عليّ على رأس عمر يُلمي على عثمان ما يقوله، وعمر في الشمس قائم - في يوم شديد القَيْظ - عليه بُردان أسودان، قد انتزرت بأحدهما ولف الآخر على رأسه، يعدّ إبل الصدقة، ويكتب ألوانها وأعمارها، فقال عليّ لعثمان

(١) ابن سعد: السابق ٢٣٦/٣

(٢) الطبري: السابق ٢٠٥/٤

(٣) ابن الجوزي: السابق ص ١٩٣-١٩٤

(٤) أي يطلي قروحه بالقار ليشفى ..

(٥) ابن الجوزي: السابق ص ٩٩

متعجبًا من جلد الخليفة وقوته: " نَعَتَ ابنة شعيب في كتاب الله: (يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ
إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) (١) .. ثم أشار إلى عمر وقال: " هذا القوي
الأمين " (٢) ..

وقد مرت بنا صور من مراعاته ضعفاء المسلمين وعجائزهم وغريبهم، ومن
ذلك أنه خرج مع غلامه ليلة إلى ظاهر المدينة فلاح لهما بيت من الشَّعر فقصداه
فإذا فيه امرأة تعاني المخاض وتبكي، وإذا هي امرأة غريبة ليس عندها شيء،
فبكى أمير المؤمنين، وهرول إلى بيته، فقال لامرأته أم كلثوم بنت عليّ ابن أبي
طالب: " هل لك في أجر ساقه الله إليك " ؟ وأخبرها الخبر، فخرجت معه، وحمل
على ظهره الدقيق والشحم، وحملت امرأته ما يصلح للولادة، ودخلت أم كلثوم على
المرأة، وجلس عمر خارج البيت مع زوجها، فوضعت المرأة غلامًا، فنادت أم كلثوم
عليه: يا أمير المؤمنين بشّر صاحبك بغلام، فلما سمع الرجل قولها استعظم ذلك
من عمر . ولم يكن يعرفه . فأخذ يعتذر إليه، فقال عمر: لا بأس عليك، ثم أعطاهم
النفقة وما يصلحهم، وانصرف (٣) .

٥- سياسة عمر مع ولايته:-

(أ) أسس اختيار الولاة:

مر بنا حديث عن إجلال عمر كبار الصحابة واحتجازهم بالمدينة ليكونوا
مجلس شوراه، إلا أنه اختار بعضهم ليكونوا ولايته على الأمصار مثل عمرو بن
العاص وسعد بن أبي وقاص وأبي موسى الأشعري ومعاوية بن أبي سفيان
والمغيرة بن شعبة وعمار بن ياسر وغيرهم، وكان يستعمل هؤلاء ويترك غيرهم

(١) سورة القصص: آية ٢٦

(٢) الطبري: السابق ٢٠١/٤

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٧٩/٤-١٨٠

ممن يعلوهم في الفضل والدين مثل عثمان وعلي وطلحة والزبير، وكان ذلك بصيرة من عمر، "لقدوة أولئك على العمل والبصر به، ولإشراف عمر عليهم وهيبتهم له، وقيل له: مالك لا تولي الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: أكره أن أدنّسهم بالعمل" (١)، ولا ريب أن من ولاهم عمر كانوا أهيب له وأطوع، وأحرص على استشارته في كبير أمورهم ودقيقتها عما كان قد يحدث لو ولى أمثال عثمان وعلي والزبير؛ مع ما لهم من اعتداد بمكانتهم واستقلال في رؤيتهم، فوضعهم عمر في موضعهم كأهل للشورى والنصح؛ ليفيد كل من كل الطاقات والمواهب لهؤلاء النفر الممتازين..

وكان عمر يحذر من تحزّب المجتمع حول بعض الأكابر من أصحاب النبي ﷺ، مما يفتت القوى السياسية بالدولة في وقت تواجه فيه الأعداء والخطر؛ ولما تفرق هؤلاء الكبار فيما بعد في الأمصار تجمع حولهم من المسلمين الجدد والقدماء ما بدت مخاطره في خلافة عثمان كما سيأتي.. وقد قال عمر يوماً لجماعة من أصحابه: "بلغني أنكم تتخذون مجالس؛ لا يجلس اثنان معاً حتى يقال: من صحابة فلان؟ من جلساء فلان؟ حتى تُحوميت المجالس، وإيم الله إن هذا لسريع في دينكم، سريع في شرفكم، سريع في ذات بينكم، لكأني بمن يأتي بعدي يقول: هذا رأي فلان، قد قسّموا الإسلام أقساماً، أفيضوا مجالسكم بينكم، وتجالسوا معاً، فإنه أدوم لألفنتكم، وأهيب لكم في الناس" (٢)..

وكان عمر شديد الاعتزاز بهؤلاء النفر المتميزين من الصحابة، وقد تمنى وهو يجالس بعض أصحابه يوماً. وكلهم يتمنى أمنيته - رجالاً ملء هذا البيت مثل أبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة (٣).. فكان شديد الحرص على تخير ولاته من

(١) ابن سعد: السابق ٢٠٧/٣، وهي مقولة شبيهة بما ينسب إلى أبي بكر في ذات الموطن، وهي بعمر أليق إذ اتسعت الولايات في عهده وانضح أنها سياسة ثابتة..

(٢) الطبري: السابق ٢١٣/٤-٢١٤

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ١٥٠/٣

هؤلاء السابقين إلى الإسلام ليفيدوا أمصارهم علمًا ودينًا وعدلاً... وكان ذلك ملحوظًا إلى درجة قال فيها عتبة بن غزوان أمير البصرة: " .. لقد رأيتني وأنا سابع سبعة مع النبي ﷺ؛ مالنا طعام إلا ورق السَّمُر حتى تفرحت أشداقنا، والنقطة بُرْدَه فشققتها بيني وبين سعد (بن أبي وقاص)، فما منا من أولئك السبعة من أحد إلا وهو أمير مصر من الأمصار، وسيجربون الناس بعدنا " (١) ..

غير أن الخليفة مع اعتزازه بهؤلاء السابقين إلى الإسلام كان إذا رأى تقاعسًا منهم عن واجب آخرهم وقدم السابقين إلى أدائه، كما حدث لما ولي أبا عبيد بن مسعود الثقفي إمارة الجيش المتجه إلى العراق، ولم يؤمّر أحدًا من كبار المهاجرين والأنصار، لأنهم تأخروا وتقدم أبو عبيد، وكان عمر إذا رأى خللاً في إدارة أحدهم لعمله عزله؛ ولم يشفع له قدمه في الإسلام، ولا مكانته من رسول الله ﷺ إذا ما تواضعت كفاءته.. وكان ذلك منسجمًا مع تعهده في أول خطبة أن يولي "أهل الجزء والأمانة"، فقد ولي عمار بن ياسر الكوفة ثم عزله لما شكاه أهلها وقال: "لقد علمت ما أنت بصاحب عمل، ولكنني تأولت: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) (٢).

ولما تعددت شكاوي أهل الكوفة من عماله اهتم لذلك عمر فسأل أصحابه: ما تقولون في تولية رجل ضعيف مسلم أو رجل قوي مشدد؟ فقال المغيرة بن شعبة: "أما الضعيف المسلم فإن إسلامه لنفسه وضعفه عليك، وأما القوي المشدد فإن شداذه لنفسه وقوته للمسلمين"، فولاه عمر الكوفة.. (٣)

ويتصل بذلك أن عمر لم يكن يؤمّر أحدًا من أهل الردة السابقين الذين عادوا إلى الإسلام، وقد استعملهم في الجهاد؛ ولم يكن أبو بكر يستعملهم لحديث

(١) الطبري: السابق ٥٩٢/٣

(٢) راجع: السابق ١٣٩/٤، ١٦٣-١٦٤

(٣) السابق ١٦٤/٤-١٦٥

عهدهم بالردة^(١)، لكن عمر كان "لا يؤمّر منهم أحدًا إلا على النفر وما دون ذلك"^(٢)، وكان ذلك تطورًا طبيعيًا للأمور، وإشراكًا تدريجيًا لهم في نسيج المجتمع الإسلامي المجاهد، غير أن حذر عمر منهم لم يمنعه من إجلال رأي أهل الرأي منهم والكفاية، فقد أوصى أميره النعمان بن مقرن لما بعثه إلى نهاوند سنة ٢١ هـ أن يسمع رأي طليحة بن خويلد وعمر بن معديكرب وغيرهما ممن كانوا من زعماء الردة الذين حسن إسلامهم ولا يوليهم شيئًا^(٣)..

ويلخص الطبري اختيارات عمر لقادته وأمرائه فيقول: "وكان لا يعدل أن يؤمّر الصحابة إذا وجد من يُجزي عنه في حربه، فإن لم يجد ففي التابعين بإحسان، ولا يُطمع من انبعث في الردة بالرياسة، وكان رؤساء أهل الردة في تلك الحروب حشوة إلى أن ضرب الإسلام بجزانه"^(٤)

وامتد اشتراط عمر الكفاءة والقوة ليشمل جميع ولاته، فكان يقول: "إني لأتخرج إن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه"^(٥)، ويقول: "والله لأنزعن فلانًا عن القضاء، ولأستعملن على القضاء رجلاً إذا رآه الفاجر فَرَقَه"^(٦)..

وفضلاً عن الدين والكفاءة الإدارية كان عمر يتوخّى في ولاته الرحمة والشفقة على الرعية.. وكم من مرة أمر قادته في الجهاد ألا يغرروا بالمسلمين ولا ينزلوهم منزل هلكة.. وكتب عمر لرجل من بني أسلم كتابا يستعمله به، فدخل الرجل على عمر وبعض أولاده في حجره يُقبّلهم. فقال الرجل: تفعل هذا يا أمير

(١) السابق ٤٤٨/٣

(٢) السابق ٢٥/٤، وانظر ٥٥٧/٣

(٣) السابق ١٢٧/٤

(٤) السابق ٢٥/٤

(٥) ابن سعد: السابق ٢٣٦/٣

(٦) ابن الجوزي: السابق ص ١٥٣، وقرّقه، أي خاف منه.

المؤمنين؟ فوالله ما قبّلت ولدًا لي قط، فقال عمر: فأنت والله بالناس أقل رحمة، لا تعمل لي عملاً، وردّه عمر فلم يستعمله^(١)..

وغزت بعض جيوشه بلاد فارس حتى انتهت إلى نهر، فأمر أمير الجيش أحد جنوده أن ينزل - في يوم شديد البرد - لينظر للجيش مخاضة يعبر منها، فقال الرجل: إني أخاف إن دخلت الماء أن أموت، فأكرهه القائد على ذلك، فدخل الرجل الماء وهو يصرخ: يا عمراه يا عمراه! ولم يلبث أن هلك، فبلغ ذلك عمر وهو في سوق المدينة؛ فقال: يا لبيكاه يا لبيكاه! وبعث إلى أمير ذلك الجيش فنزعه، وقال: "لا تعمل لي على عمل أبدًا"^(٢).. وخطب ولاته فقال: اعلموا أنه لا حلم أحب إلى الله تعالى ولا أعمّ من حلم إمام ورفقه، وأنه ليس جهل أبغض إلى الله ولا أعمّ من جهل إمام وخرقه، واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهرانیه يُرزق العافية ممن هو دونه"^(٣).

وكان عمر حريصًا على أن لا يولي أحدًا من أقاربه؛ رغم كفاية بعضهم وسبقه إلى الإسلام مثل سعيد بن زيد - ابن عمه - وعبد الله بن عمر ابنه، وقد سمعه رجل من أصحابه يشكو إعضال أهل الكوفة به في أمر ولاتهم. وقول عمر: "لوددت أني وجدت رجلاً قويًا أمينًا مسلمًا استعمله عليهم". فقال الرجل: أنا والله أدلك عليه، عبد الله بن عمر، فقال عمر: "قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا"^(٤)، وقد استبعد عمر - لما طعن - ابن عمه سعيد بن زيد من مجلس الشورى الذي جعل إليه تعيين الخليفة بعده، ولم يجعل لابنه عبد الله من الأمر شيئًا إلا أن يرجح

(١) السابق والصفحة

(٢) السابق والصفحة، ومعنى أقدت منك: اقتصصت منك

(٣) السابق ص ١٥٠

(٤) السابق ص ١٥١

كفة أحد الفريقين إن تساوى عدد كل منهما.. وكان يقول: "من استعمل رجلاً لمودة أو لقرابة - لا يشغله إلا ذلك - فقد خان الله ورسوله" (١) ..

وامتدت عين عمر لتراقب صلات الولاة والعمال بأهله مخافة أن يقع أحدهم في شبهة مجاملة لهم أو استغلال لنفوذ الخليفة.. فقد أهدى أبو موسى الأشعري عامل عمر في العراق "طنفسة" (٢) قدر ذراع وشبر إلى زوجة عمر عاتكة بنت زيد، فراها عمر، وسألها: أنى لك هذا؟ فأخبرته، فأخذها عمر وظل يضرب بها رأسها حتى نغض رأسها (٣)، ثم أمر أن يؤتى بأبي موسى مُتَعَبًا، فأتاه فقال عمر: ما يحملك على أن تُهدي لنسائي؟ ثم أخذ الطنفسة فضرب بها رأس أبي موسى وقال: خذها فلا حاجة لنا فيها (٤) ..

ب) تحديد مهمة الولاة:-

كان عمر يوضح لعماله مهمتهم بدقة، ويعلم ذلك على الرعية ليكونوا شركاءه في رقابتهم؛ فمن خالف ذلك منهم اقتص منه.. فقد أمر عماله أن يوافوه في موسم الحج، وفي ذلك المؤتمر الكبير الذي يؤمُّ المسلمون أوقف عمر عماله ثم قال: "أيها الناس إنني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فيئكم بينكم" (٥)، وقال عمر لولاته: ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تمنعوهم حقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيّعوهم" (٦) ..

(١) السابق ص ١٠٤-١٠٥

(٢) الطنفسة: بساط له خمل رقيق..

(٣) أي تحرك من الألم

(٤) ابن سعد: السابق ٢٤١/٣

(٥) ابن سعد: السابق ٢٢٢/٣، وفي رواية ابن الجوزي (السابق ١٢٥) زيادة: "ليعلموكم دينكم وسننكم"

(٦) الطبري: السابق ٢٠٤/٤، ابن الجوزي: السابق ص ١٢٥

ومنع عمر عماله من التريح بأعمال خاصة بهم طوال مدة شغلهم ولاياتهم، فقد أرسل عامله الحارث بن كعب بن وهب على إحدى العِمالات: فظهر عليه الثراء، فسأله عمر عن ذلك فقال: خرجت بنفقة معي فتجرتُ بها، فقال عمر: أما والله ما بعثناكم لتتجروا، وأخذ منه ما ربحه في تجارته (١) ..

وجاء أبو هريرة عامل عمر على البحرين بعشرين ألفاً، فسأله عمر: من أين أصبتها؟ قال: كنت أتجر، فقال عمر: انظر إلى رأس مالك ورزقك فخذ، واجعل الآخر في بيت المال (٢)، وليس في ذلك حرجٌ على حربة الإنسان في التجارة والكسب، بل هو الحرص على ألا يستفيد من منصبه فيضغط على رعيته ليكسب من ورائهم؛ أو يجاملوه بالتجارة معه وتوفير الأرباح له ليفيدوا هم من ذلك بفعل موقعه كأمرير؛ مما يفتح باباً واسعاً للفساد..

وكان عمر إذا استعمل عاملاً كتب عليه كتاباً، وأشهد عليه رهطاً من الأنصار: أن لا يركب برونا (٣)، ولا يأكل نقياً (٤)، ولا يلبس رقيقاً ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين، ثم يقول: اللهم اشهد (٥)، وفي ذلك ما يحفظ للدولة الإسلامية وعمالها سمت الجهاد والزهادة والإقبال على الآخرة.. وقد كان عمر نفسه يقسو على نفسه أشد من ذلك كما مر بنا.. وقد رأينا أنه كان مما يشترط عمر على ولاته " ألا يغلقوا أبوابهم دون حاجات المسلمين "، وصل إلى سمعه أن عامله على الكوفة سعد بن أبي وقاص اتخذ داراً بها كانت الأسواق قريبة منها فتمنعه أصوات أهلها من الراحة والعمل، فاتخذاً لبيته باباً يحجز عنه أصوات الناس، فبلغ عمر أن الناس يسمون البيت قصر سعد؛ وأنه اتخذ له باباً فحجبه عن حاجات الناس،

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥٤/١

(٢) ابن سعد: السابق ٢٠٤/٤

(٣) البرذون هو غير العربي من الخيل والبغال، عظيم الخلقة، فيه فراهة ومنظر (المعجم الوجيز).

(٤) هو الدقيق المنخول

(٥) ابن الجوزي: السابق ص ١٤٦، الطبري: السابق ٢٠٧/٤-٢٠٨

فأرسل عمر محمد بن سلمة الأنصاري إلى الكوفة وأمره أن يعمد إلى قصر سعد فيحرق بابه، ثم يرجع إلى المدينة، ففعل^(١)..

وبلغ عمر أن أحد عماله واسمه عبد الله بن قرط اتخذ عَلِيَّ ِة احتجب فيها عن الناس، فأرسل إليه رجلاً أمره أن يحرق باب هذه العليّة، فقدم عبد الله بن قرط منزعاً لغضبة عمر، فأمر به أن يحبس عنه ثلاثة أيام في الشمس، ثم لقيه عمر فأمره أن يلحق به عند الحرّة خارج المدينة، وفيها إبل الصدقة وأغنامها، ثم أمره هناك أن ينزع ثيابه ويأترر، ثم ناوله دلوّاً وقال: اسق هذه الإبل، فلم يفرغ من ذلك حتى تعب، فقال عمر: يا ابن قرط متى كان عهدك بهذا؟ قال: ملياً يا أمير المؤمنين، قال: " فلماذا بنيت العليّة وأشرفت منها على المسلمين والأرملة واليتيم؟ ارجع إلى عملك ولا تُعد"^(٢).. وكان عمر يضرب الأسوة بنفسه، فكان لا يتخذ باباً ولا حجاباً، يصلي الصلاة ثم يقعد للناس يكلمه من شاء^(٣).. وكان يمنع عماله من قبول الهدايا، ويحكى في ذلك خبر طريف حدث مع عمر نفسه! فقد أهدى رجل إلى عمر فخذ جزور، وتكرر ذلك من الرجل، إلى أن جاءه ذات يوم برجل آخر يخاصمه، فقال الذي يُهدي إلى عمر: يا أمير المؤمنين اقض بيننا قضاءً فصلاً كما يُفصل الفخذ عن سائر الجزور، يقول عمر: "فما زال يكررها حتى خفتُ على نفسي"، فقاضى عمر لخصمه لما استبان له الحق عليه، وكتب إلى عماله: " أما بعد، فإياكم والهدايا فإنها من الرشا " ^(٤)..

ج) محاسبة الولاة وعزل من يقصّر منهم:

(١) الطبري: السابق ٤/٤٧، ابن حزم: المحلى ٩/٣٠٧

(٢) المحب الطبري: الرياض النضرة ٢/٥٥

(٣) الطبري: السابق ٤/٢٠٢

(٤) ابن الجوزي: السابق ١٦٤

كان عمر يفرض على عماله رقابة لصيقة ليضمن سيرهم على مقتضى الدين والعدل، ويحرض رعيته على مراقبة عمالهم ومحاسبتهم والمطالبة بحقوقهم، فإن نزلت بهم مظلمة فليخبروا أمير المؤمنين..

وكان موسم الحج فرصة لعمر ليستقصي أخبار رعيته وولاته، فجعله موسمًا "للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء في شتى الأنحاء؛ فيجتمع فيه أصحاب الشكايات والمظالم، ويفد فيه الرقباء الذين كان عمر ييئهم في أرجاء دولته لمراقبة العمال والولاة، ويأتي العمال أنفسهم لتقديم كشف الحساب عن أعمالهم.. فكان موسم الحج "جمعية عمومية كأرقى ما تكون الجمعيات العمومية في عصر من العصور" (١)..

وكان عمر يلخص في موسم الحج واجبات عماله أمام الرعية ثم يقول: "فمن فعل به غير ذلك فليسوط بدينارين" أهل الموسم -آنذاك- أحد إلا رجل واحد - مما يدل على عدالة هؤلاء العمال ورضا الرعية عنهم - فقال ذلك الرجل: إن عاملك فلانًا ضربني مائة سوط؛ فسأل عمر العامل فلم يجد عنده جوابًا، فقال للرجل: قم فاقتص منه، فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر، ويكون سنة يأخذ بها بعدك، فقال عمر: "أنا لا أقيد - أي اقتص - وقد رأيت رسول الله ﷺ يقيد من نفسه؟ فقال عمرو: فدعنا فلنرضه، فقال: دونكم فأرضوه، فافتدى العامل من الرجل بمائتي دينار، كل سوط بدينارين" (٢)..

وشكا رجل إلى عمر أن عمرو بن العاص أمير مصر اتهمه أمام الناس بالنفاق، فأمره عمر أن يقيم على ذلك شاهدين، فإن فعل فليضرب عمرًا أربعين أو سبعين سوطًا، وكتب إلى عمرو بذلك، فأقم الرجل الشهود في مجلس عمرو، فلم

(١) العقاد: عبقرية عمر ص ٨٢، وانظر د. سليمان الطماوي: عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة

ص ١٠٦-١٠٧

(٢) ابن سعد: السابق ٢٢٢/٣، ابن الجوزي: السابق ١٢٥

يجد بدءًا من أن يمكنه من السوط ليضربه، فلما جلس بين يديه قال الرجل: أتقدر أن تتمنع مني بسلطانك؟ قال: لا، قال الرجل: فأني أدعك لله^(١).. وشبيه بذلك قصة عمر مع القبطي الذي سبقت خيله خيل ابن عمرو بن العاص فضربه ابن عمرو، فأمر عمر الرجل أن يقتص منه، وقد مر بنا ذكرها قريبًا

ومع هذه المراقبة الشعبية كان عمر يمارس رقابة من نوع آخر على عماله - فيما يزعم بعض الرواة - فكانت له عيونته التي تأتيه بأخبارهم فلا يغيب عنه من أمورهم شيء، فكان "علم عمر بمن نأى عنه من عماله كعلمه بمن بات معه في مهادٍ واحد على وسادٍ واحد، فلم يكن في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي عامل أو أمير جيش إلا وعليه عين لا يفارقه، فكانت ألفاظ من بالمشرق والمغرب عنده في كل ممسى ومصبح، وأنت ترى ذلك في كتبه وعماله، حتى كان العامل منهم لينهم أقرب الناس إليه وأخصهم به " ^(٢)..

وربما كانت في هذه الأقوال التي تنسب إليه تعيين رقباء أو جهاز مخابرات داخلية على عماله مبالغة، فلو حدث لُنقلت إلينا أخبار عنه في مصادرنا التاريخية الباكورة^(٣)، ولكن أخبار العمال والولاء كانت تصل إلى عمر فعلاً بما مارسه من تأجيج المراقبة الشعبية لعماله، وتيسير سبل الاتصال ووسائله بينه وبين رعيته فلا تتوب نائبة إلا وصلت إلى مسامعه.. أما ما سوى علاقة الأمراء بالرعية من خصوصيات عماله فلم يكن عمر يتحسس أخبارها..

وهذه المتابعة لأمرائه - بما تعنيه من بذل مجهود وافر في شتى الاتجاهات وفي دولة متسعة الأنحاء بغير وسائل مواصلات سريعة ولا أجهزة اتصال كالتالي يعرفها عصرنا - إنما أتت من خشية عمر ربه أن يحاسبه على

(١) ابن الجوزي: السابق ١٢٦-١٢٧

(٢) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك ص ١٦٨

(٣) إلا في بعض الأحوال الحرجة والخاصة مثل المعارك والحروب فكانت لعمر "العيون في كل جيش" (الطبري: السابق ٤٧٦/٣)

ذنب اقترفه أحد عماله فلم يؤاخذه به، أو ظلم وقع على أحد الرعية فلم ينتصر له.. فكان عمر يخشى لو عثرت دابة بالعراق أن يسأله الله عنها، ويقول: "أيا عامل لي ظلم أحدًا فبلغتني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته"^(١)، وقال يوماً لجلسائه: "أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أكنتم قضيت ما عليّ؟ قالوا: نعم، قال: لا حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا؟"^(٢) وكان يقول: " اللهم إني لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ولا ليضربوا أبشارهم، من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دوني"^(٣)..

ورغم كل هذه الاحتياطات في مراقبة العمال، وأنه كان "لا يخفى عليه شيء في عمله"^(٤) فقد كان مشفقاً من الحساب عن خطأ أو مظلمة ارتكبها أحد عماله ولم يصله خبرها، فكان يقول: "لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً، فإني أعلم أن للناس حوائج تُقطع دوني؛ أما عمالهم فلا يرفعونها إليّ، وأما هم فلا يصلون إليّ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم فيها شهرين، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله لنعم الحول هذا"^(٥)..

(د) عزل الولاة بالشبهات والشكايات:-

لجأ عمر أحياناً متعددة إلى عزل بعض أكفأ عماله لما شكتهم بعض رعيتهم لشبهات طارئة، وهو يعلم براءة ساحتهم من كل ما يشين، فقد كان يؤمن

(١) ابن سعد: السابق ٢٣٦/٣

(٢) الهندي: كنز العمال ١٦٥/٣

(٣) الطبري: السابق ٢٠٣/٤

(٤) السابق ٦٧/٤

(٥) السابق ٢٠٢/٤، ابن الجوزي: السابق ١٥٣-١٥٤

بوجوب إبعاد المسؤولين عن كل شبهة حرصًا على رضا الرعية وسلامة الدولة ومصالحتها^(١)، إذ إن ظروف الدولة الإسلامية آنذاك كانت تقتضي توافر درجة عالية من الرضا بين الحاكمين ورعاياهم؛ نظرًا لما تشهده من توسع هائل في مساحتها الجغرافية، ودخول أعداد غفيرة من البشر تحت سلطانها وما تتطلبه أحوالها من تطوير للنظم الإدارية الحاكمة ومواصلة للجهاد.. فكان عمر يقول: "هان شيئًا أصلح به قومًا أن أبدلهم أميرًا مكان أمير" ^(٢)..

ومن ذلك أن عمر عزل المغيرة بن شعبة عامله على البصرة لما اتهمه بعض جيرانه - وكانت بينه وبينهم ملاحاة وخصومة - أنه زنى بامرأة، فأرسل عمر يعزله ويستقدمه، وولى بدله أبا موسى الأشعري سنة ١٧هـ.. ولما تضاربت أقوال الشهود في مجلس التحقيق الذي مثل أمامه المغيرة، ولم تكن على ما تقتضيه ضوابط الاتهام بالزنا في الإسلام، جلداهم عمر حد المفترى ثمانين جلدة، وأقرّ عزل المغيرة رغم عدم ثبوت التهمة عليه^(٣).. ولكنه عاد فولاه الكوفة - لا البصرة التي شكاه بعض أهلها - لما عزل عنها عمار بن ياسر، فلم يزل واليًا عليها حتى مات عمر^(٤)..

وبينما سعد بن أبي وقاص يواجه حروب الفرس وانتقاضاتهم إذا بنفر من أهل الكوفة يؤلبون أهلها ضد سعد، ويبلغون شكايتهم إلى عمر، فقال عمر: إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر وقد استعد لكم من استعداد، وإيم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم.. فأرسل محمد بن مسلمم الأهم؛ عراق للتحقيق في شكاياتهم والمسلمون يستعدون لموقعة نهاوند، فقدم

(١) راجع العقاد: عبقرية عمر ص ٩٠-٩١

(٢) ابن سعد: السابق ٢٠٩/٣، ابن الجوزي: السابق ١٥١

(٣) راجع الطبري: السابق ٦٩/٤-٧٢، البلاذري: فتوح البلدان ٣٣٩-٣٤٠، ابن كثير: السابق

١٠٩/٤-١١٠

(٤) البلاذري: السابق ص ٢٧٨

محمد على سعد فطّوف به في مساجد الكوفة فلا يسأل عنه أهل مسجد إلا قالوا: لا نعلم إلا خيرًا، ولا نشتهي به بدلًا، ولا نقول فيه، ولا نُعين عليه، إلا ما كان من هؤلاء النفر الذين شكوه ومن مالأهم؛ فكانوا يتركون الثناء عليه ولا ينطقون أمام الناس بسوء عنه، حتى قام رجل من بني عبس يدعى أسامة بن قتادة، فقال: إن سعدًا "لا يقسم بالسّويّة، ولا يعدل في الرعية ولا يغزو في السّرية"، فقال سعد: اللهم إن كان قالها كذبًا ورتاء وسمعة فاعمِ بصره وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن، فعمى الرجل واجتمع عنده عشر بنات، وافتضح مع النساء، فكان إذا عثر به في موضع فتنة قال: "دعوة سعد الرجل المبارك!!" وقال بعض بني أسد: إنه لا يحسن يصلي!! فلما بلغ ذلك عمر وسأل سعدًا واطمأن منه قال: لولا الاحتياط لكان سبيلهم بيئًا" (١)، ورغم ذلك فقد عزل سعدًا عن الكوفة مراعاة لأحوال المسلمين هناك وهم في حروب مع عدوهم تستلزم توفير الهدوء الداخلي فيها.. ولعله أراد أن يستأثر بسعد ليكون بجواره بالمدينة يستضيء برأيه مع إخوانه من كبار المهاجرين والأنصار، بدل أن يبدد طاقات الرجل في شغب أهل الكوفة الذي لا ينتهي..

ولو كان الأمر على غير ذلك لكان سبيل الوشاة بيئًا كما قال عمر، ولكان الخليفة قد فعل مثلما فعل مع أحد رجال البصرة الذي كذب على عاملها أبي موسى الأشعري وشنّع به عند عمر، فلما استدعى عمر أبا موسى وتحقق من الأمر وجده مظلومًا، ووجد الشكاية مكذوبة - ولم يكن الوضع في البصرة حرجًا كما كان في الكوفة - فلم يعزل عمر أبا موسى واستبقاه (٢)..

وكان عمر رغم حرصه على إلزام عماله بالمثل الإسلامي الأعلى في سمتهم وعيشتهم يراعي تغيّر الأحوال أحيانًا ومقتضياتها.. فلما ذهب إلى الشام

(١) راجع الطبري: السابق ١٢٠/٤-١٢٢، البلاذري: السابق ٢٧٧

(٢) راجع الطبري: السابق ١٨٤/٤-١٨٥

واستدعى أمراءه ليلاقوه بالجابية وهو في طريقة لفتح بيت المقدس أقبلوا عليه - يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة وخالد - عليهم ما ظنه عمر الديباج والحريز، فنزل واخذ الحجارة يرميهم بها، وقال: ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم، إياي تستقبلون في هذا الزيّ وإنما شعبتم منذ سنتين ... فقالوا: يا أمير المؤمنين إنها يلامقة - وهي القباء المحشو . وإن علينا السلاح، قال: فنعم إذن^(١) ..

ولما قدم الشام تلقاه معاوية في موكب عظيم، فلما دنا منه، قال عمر: أنت صاحب الموكب؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين، قال: هذا حالك مع ما يبلغني من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: هو ما بلغك يا أمير المؤمنين، قال: ولم تفعل هذا؟ لقد هممت أن أمرك بالمشي حافياً إلى بلاد الحجاز، قال: يا أمير المؤمنين إنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة، فيجب أن نُظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز الإسلام وأهله ونرهبهم به، فإن أمرتني فعلت، وإن نهيتني انتهيت، فقال عمر: لئن كان ما قلت حقاً إنه لرأي أديب، ولئن كان باطلاً إنه لخدعة أريب، قال: فمرني يا أمير المؤمنين بما شئت، قال: لا أمرك ولا أنهلك، فقال رجل: يا أمير المؤمنين ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه، فقال عمر: لحسن موارده ومصادره جشمناه ما جشمناه^(٢) ..

- عزل خالد بن الوليد وأسبابه:

كان من أوائل ما فعله عمر لما ولي الخلافة أن عزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة للجيش في الشام؛ وليس عن العمل العسكري تماماً - وهو ما لم يحدث إلا سنة ١٧هـ لما استبعده عمر عن ولاية قنسرين - وتخلط بعض مصادرها التاريخية بين الأمرين، فنسوق خبر عزله الأول سنة ١٣هـ وخبر عزله النهائي سنة

(١) الطبري: ٦٠٧/٣، ابن الأثير: السابق ٣٤٨/٢

(٢) ابن كثير: السابق ٦٣٤/٤

١٧هـ دون تفريق بينهما (١).. وقد جاء قرار عزله فور تولي عمر الخلافة سنة ١٣ هـ والمسلمون يقاثلون الروم في موقعة اليرموك، وقيل: بل كان ذلك والمسلمون يحاصرون دمشق، فاستحيا أبو عبيدة الذي جعله عمر أميراً عاماً للجيش بالشام بدل خالد أن يقرئ خالدًا قرار عزله حتى تم فتح المدينة، وجرى الصلح على يديه وكتب باسمه كما يزعم ابن إسحاق (٢)..

واختلاف المؤرخين في الواقعة التي عزل فيها خالد عائد إلى اختلافهم في ترتيب وقائع الفتح في الشام، فمن يرى أن اليرموك كانت سنة ١٣هـ رأى أن قرار العزل جاءه في أثنائها، فتريث حتى تم النصر فيها، ثم أسند الأمر إلى أبي عبيدة، ومن رأى أن فتح دمشق كان سنة ١٣هـ قبل اليرموك رأى أن قرار عزله جاء في أثنائه؛ فأخبره به أبو عبيدة..

وقد أسرف الرواة والمؤرخون في تبرير عزل خالد وتفسيره كما لم يفعلوا في عزل غيره من الولاة والقادة، وذلك بسبب ذبوع ذكر خالد ومواهبه العسكرية الفذة التي دوّخت العالم آنذاك، وأورثت الناس عجباً ودهشة.. وروى في سبب ذلك أن عمر كان سيئ الرأي في خالد منذ أمد بعيد، بسبب تسرعه في سفك الدماء في حروبه، والتصرف في الأموال في معاملاته، والمبادرة إلى بعض الأعمال بغير إذن خليفته.. وكان في خالد إقدام على التتكيل بمن يراهم خصوماً للإسلام، لا يلتبس لمحارب منهم عذراً، وقد بدا ذلك منه في حياة النبي ﷺ (٣)، وفي خلافة أبي بكر لما قتل مالك بن نويرة من زعماء الردة الذي اختلف في عودته إلى

(١) الطبري: السابق ٣/٤٣٤-٤٣٥-٤٣٧، ٤/٦٧-٦٨، شيت خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة ١٢١

(٢) السابق ٣/٤٣٤-٤٣٥

(٣) شن خالد القتال على المشركين في فتح مكة بمجرد أن تصدى له بعضهم، فقاتلهم ولا عتب عليه في ذلك (ابن هشام السيرة النبوية ٤/١٨-١٩) وأرسله النبي ﷺ إلى بني جذيمة بعد الفتح داعياً لا مقاتلاً فقاتلهم، واعتذر بأن بعض أصحابه أخبره أن النبي ﷺ أمره بقتالهم، فتبرأ النبي ﷺ من ذلك، وأرسل من دفع ديات القتلى، وأرضى أهلهم (السابق ٤/٣٦-٣٧)

الإسلام، ولو كان مالك قد أعلن إسلامه صريحاً واضحاً لما كان لخالد عليه سبيل، ولما اختلف أصحاب خالد في موقفهم منه لما قتلته، وتزوج امرأته ليلى، وقد أثار ذلك حفيظة عمر الذي طلب من الخليفة أبي بكر أن يعزل خالدًا لأن " في سيف خالد رهقًا "، فأبى أبو بكر وقال: " لا أشيم سيفاً سلّه الله على الكافرين"، ودفع دية مالك واعتذر عن خالد بأنه تأول فأخطأ^(١).. وأقر خالدًا ولم يعزله - وإن عتقه وعاتبه - لحاجة المسلمين آنذاك إليه وإلى قوة سيفه وصرامته وذكائه الحربي غير المسبوق.. وله في ذلك أسوة برسول الله ﷺ لما عاتب خالدًا في بعض ممارساته وودي من قتلهم ثم أبواه مع ذلك على قيادة جيوشه كلما رأى حاجة إلى قيادته..

وظل عمر على رأيه الذي يؤثر الاحتياط في أمر الدماء وسفكها.. وكان خالد ربما يرى المصلحة في تدبير القتال على نحو من الأنحاء؛ ويرى ضرورة اغتنام الفرصة . إن لاحت له فرصة . فيبادر إلى ذلك بغير انتظار أمر الخليفة أبي بكر، واثقًا من أنه لن يأمره بغير ذلك، وأنه إن تأخر في انتهاز الفرصة أفلتت، فيقول: " لو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر؛ ثم رأيت الفرصة فكننت إن أعلمته فانتني لم أعلمه حتى انتهزها، كذلك إذا ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه لن ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا، ثم نعمل به" ^(٢)، وكان أبو بكر يقدر مواهب خالد واضطراره لاتخاذ موقف ما في معاركه . قبل أن يأتيه أمره . فيغفر له ذلك، "والحق أن طبيعة التحركات العسكرية حينذاك، وبُعد المسافة بين العاصمة وساحات القتال وعدم تيسر وسائل مواصلات سريعة وتبدل مواقف المعركة بسرعة تجعل من الضروري أن يكون القائد مستقلاً في رأيه له الحرية الكاملة في البت في الأمور العسكرية دون مراجعة أحد؛ وإلا ضاعت عليه فرص كثيرة من دون مبرر" ^(٣)..

(١) الطبري: السابق ٢٧٨/٣-٢٨٠

(٢) السابق ٢٧٦/٣-٢٧٧

(٣) شيت خطاب: السابق ص ١٣٨

وكان خالد إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغنائم، ولم يرفع إلى أبي بكر حساباً^(١)، وكان الصديق يثق في حسن تصرفه بالأموال، وأنه أدرى الناس بأهل البلاء في جيشه الذين يجوز له أن يميزهم في العطاء بعد أخذ ذوي الحقوق حقوقهم.. أما عمر فلم يكن يجيز لأحد من ولاته التصرف في الأموال بغير علمه وإذنه غلقاً لباب قد يدخل منه الفساد إلى النفوس.

وكان في خالد زهو عززته ثقته بقدراته، وإنجازاته الضخمة في ساحات الحروب المختلفة وشهادات الأقران والخصوم والأصحاب له على السواء، وإقرارهم بعبقريته الحربية النادرة. ولم يكن عمر يطيق ذلك الزهو^(٢)، ويرى أنه قد يدخل في نفس المرء ما يحبط عمله.. وكان عمر نفسه عبقرياً نادر الوجود، فكان يضع من نفسه كلما شعر بها ترتفع وتزهو^(٣)..

لذلك كله قرر عمر فور توليه الخلافة أن يعزل خالدًا عن الإمارة العامة للجيش بالشام ولم يحرم عمر المسلمين من خبرات خالد وقدراته، فظل سيف الله المسلول قائداً محلياً، وارتضى أن يعمل تحت إمرة أبي عبيدة بن الجراح بما عرّف عنه من لين ورحمة واستعداد لتترك مزيد من الحرية في العمل لمن هم تحت قيادته.. وكان أبو عبيدة شبيهه أبي بكر في طباعه، وكان عمر يعد قراره ذلك صدقاً مع النفس، إذ كيف ينصح أبا بكر بعزل خالد مراراً ثم يحتفظ به لما يلي الخلافة.. ولم يمنعه ذلك من تتبع أعمال خالد العسكرية الفذة بابتسامة الرضا وعين الإعجاب، فما إن سمع بصنيع خالد في فتح قنسرين حتى قال: "أمر خالد

(١) راجع ابن حجر: الإصابة ٢/٢٥٥

(٢) راجع: الطبري: السابق ٣/٢٨٠

(٣) راجع عن تواضع عمر ابن الجوزي: السابق ص ١٨١-١٨٦

نفسه، رحم الله أبا بكر كان هو أعلم بالرجال مني" (١)، وأشهد عمر خالدًا على وثيقة صلح بيت المقدس مع نفر من كبار الصحابة (٢) ..

غير أن ذلك الإعجاب لم يمنع عمر من الغضب الشديد على خالد لما سمع أنه غزا بلاد الروم سنة ١٧هـ فأصاب أموالاً عظيمة، فارتحل إليه أهل الآفاق، ومنهم الأشعث بن قيس زعيم كندة، فأجازه خالد بعشرة آلاف، فكتب عمر إلى أبي عبيدة بأمره " أن يقيم خالدًا ويعقله بعمامته، وينزع عنه قلنسوته حتى يُعلمهم من أين إجازة الأشعث؛ أمن ماله أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيائته، وإن زعم إنها من ماله فقد أسرف، واعزله على كل حال، واضمم إليك عمله"، فاستقدم أبو عبيدة خالدًا إلى حمص وجمع الناس في المسجد، فقام البريد - أي رسول عمر - فقال: "يا خالد أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة؟" فلم يجبه حتى أكثر عليه، وأبو عبيدة صامت لا يتكلم إكبارًا لخالد، فقام بلال بن رباح إلى خالد فقال: إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا، ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته، وقال: ما تقول؟ أمن مالك أم من إصابة؟ قال: لا، بل من مالي، فأطلقه بلال وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده، ثم قال: فنسمع ونطيع لولائنا، ونفخّم ونخدم مواليها، وأقام خالد متحيرًا لا يدري أمعزول هو أم غير معزول؟ واستحيا أبو عبيدة أن يخبره، حتى طال الأمر على عمر فظن الذي كان؛ فكتب إلى خالد يستقدمه، فلما قدم عليه خالد شكاه، وقال: لقد شكوتك إلى المسلمين، والله إنك في أمري غير مُجمل يا عمر، فقال عمر: من أين هذا الثراء؟ قال: من الأنفال والسُّهُمان، ما زاد على الستين ألفًا فلك، فقوّم عمر عروضه فخرجت إليه عشرون ألفًا زيادة، فأدخلها بيت المال، ثم قال: "يا خالد؛ والله إنك

(١) الطبري: السابق ٦٠/٣

(٢) السابق ٦٠٩/٤

عليّ لكريم، وإنك إليّ لحبيب، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء" (١)، وكتب عمر إلى الأمصار: "إني لم أعزل خالدًا عن سُخْطَة ولا خيانة، ولكن الناس فُتِنُوا به، فحفت أن يُوَكَّلُوا إليه ويُبتَلُوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكونوا بعرضِ فتنة"، وقيل إن خالدًا لما قدم على عمر امتدحه عمر وقال متمثلًا:

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع وما يصنع الأقوام فالله يصنع

"فأغرمه شيئًا ثم عوّضه، وكتب فيه إلى الناس ليعذره عندهم وليبصّروهم" (٢) ..

ويمكن أن نجمل أسباب عزل خالد في ذلك الاختلاف بين طبيعة وسياسة الخليفين أبي بكر وعمر، فكانت سياسة عمر تجنح أحيانًا إلى المركزية الشديدة - التي لم يكن خالد في اعتزازه بنفسه وقدراته - مستعدًا أن يتعامل معها كما كان يتعامل مع تفويض أبي بكر له، ولينه معه، ولم يكن عزله نشازًا عن سياسة عمر مع غيره من الولاة، ومقاسمتهم أموالهم، تحرّرًا واحتياطًا من كل شبهة، وعزلهم على غير تهمة حرصًا على إرضاء الرعية المولوة، أو حفاظًا على النسق الإسلامي الأعلى، والكمال الديني المنشود، وقد قاسم عمر وعزل غير واحد من عماله الكبار مثل أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص؛ خال رسول الله ﷺ ومن العشرة المبشرين بالجنة وغيرهما (٣) ..

وقد تكيف بعض كبار الولاة مع سياسة الدولة آنذاك رغم علو شأنهم واستقلال شخصياتهم واعتزازهم بقدراتهم مثل عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة وأبي موسى الأشعري، وكانوا يمتلكون حسّ السياسي المحنك القادر على التكيف مع ظروف الدولة وسياسة الخليفة، بينما كانت نفس خالد . القائد العسكري المفطور على المبادرة والصرامة والاعتداد بالنفس . تأبى

(١) الطبري: السابق ٦٧/٤-٦٨، الحلبي: السيرة الحلبية ص ٢١٣

(٢) الطبري: السابق ٦٨/٤

(٣) ابن سعد: السابق ٢٠٧/٣-٢٣٩

عليه ذلك، فكان الأمر إذن أمر سياسة دولة وطبيعة ولاية، لا أمر نحول وثورات وأحقاد قديمة يتوهمها بعض الرواة فيزعمون أن خالدًا وعمر اضطرا - وهما غلامان - وكان خالد ابن خال عمر، فكسر خالد ساق عمر، فعولجت وجبرت^(١)، ولسنا نستطيع أن نغفل ما قاله عمر في تبرير عزل خالد من أنه خشي فتنة الناس به، وظنهم أن النصر يسير في ركاب خالد؛ فيضعف اليقين بأن النصر من عند الله سواء كان خالد على رأس الجيوش أم لا، وهذا الوازع يتفق مع حرص عمر على صبغ إدارته للدولة بالصبغة العقائدية الخالصة، وبخاصة وهي تحارب أعداءها حربًا ضروريًا متطاولًا باسم العقيدة..

إن افتتاح الرعية بقائد كبير قد يقوده هو نفسه إلى فتنة، فيرى نفسه يومًا في مركز قوة لا يرتقي إليها أحد، وبخاصة أنه عبقرى حرب ومنفق أموال، فيجر ذلك عليه وعلى الدولة أمر خُسْر، وهذا - إن كان احتمالاً بعيداً في ظل ارتباط الناس بخليفتهم عمر وإعجابهم به، وفي ظل انضباط خالد العسكري وتقواه - قد يحدث يومًا ما بعد عمر، ومع قائد غير خالد، مما يستدعي التأصيل له في ذلك العصر، ومع أمثال هؤلاء الرجال.. "والخوف في هذا الأمر من القائد الكفء أعظم من الخوف من قائد صغير لم يُبَلِّ أحسن البلاء، ولم تتساير بذكره الأبناء"^(٢)..

ومن الواجب أن نذكر هنا لخالد رائع صنيعة وهو يتلقى قرار عزله - وهو في القمة من مجده وتألقه - بالرضا والتسليم، ويؤثر العمل جنديًا بعد أن كان قائدًا ملء السمع والبصر، فيعمل تحت لواء قائد حيي كريم كان يعمل منذ قليل جنديًا تحت لوائه، وقد روى الإمام أحمد بسنده أنه لما استعمل عمر أبا عبيدة على الشام وعزل خالدًا قال خالد: بعث عليكم أمين هذه الأمة، سمعت رسول الله ﷺ

(١) الحلبي: السابق ص ٢١٣، ابن كثير: السابق ١٥٣/٤

(٢) العقاد: عبقرية عمر ١٥٨

يقوله، فقال أبو عبيدة سمعت رسول الله ﷺ يقول: خالد سيف من سيوف الله، نعم فتى العشيرة^(١).. ثم عزله عمر ثانية عن قنسرين التي فتحها فسطرّ فيها بطولة خالدة أثارت العجب والدهشة حتى عند عمر نفسه؛ فلم يقل رضًا ولا تسليمًا عما كان يوم عُزل أول مرة، وقد ظل كلا الرجلين الكبيرين عمر وخالد يحمل للآخر مودة عميقة وإعجابًا كاملاً.. فأوصى خالد لعمر حين حضرته الوفاة^(٢)، وبكى عمر لما مات خالد، وورثه بأروع بيان^(٣)..

ومن الواجب أيضا أن نشير بإعجاب إلى تلقي المجتمع الإسلامي - في ذلك العصر المبكر من عمر الدولة النظامية التي لم يألفها العرب - خبر عزل خالد وهو في عز مجده، فلم يخرج أحد عن مقتضى النظام والإقرار للخلافة بحقها في التولية والعزل، وفي مجتمعات أخرى أكثر عراقة في الحكم المركزي والحكومات المستقرة كان يمكن أن يؤدي عزل قائد ماجد ذي عصبية إلى فتنة لا ترقأ فيها الدماء.. وقد روى أن عمر خرج في جوف الليل فلقى علقمة بن عُلثة^(٤)، وكان عمر يشبه خالدًا إلى حد عجيب، فحسبه علقمة خالدًا، فقال: يا خالد عزلك هذا الرجل، لقد أباي إلا شحًا، حتى لقد جئت إليه وابن عم لي نسأله شيئًا، فأما إذا فعل فلن أسأله شيئًا، فقال له عمر يستدرجه ليعلم ما يخفيه: هيه ! فما عندك؟ قال: "هم قوم لهم علينا حق فنؤدي لهم حقهم، وأجرنا على الله"، فلما أصبخوا قال عمر لخالد . وعلقمة مشاهد لهما :. ماذا قال لك علقمة منذ الليلة؟ قال خالد: والله ما قال شيئًا، قال عمر: وتحلف أيضًا؟ فاستتار ذلك علقمة وهو يظن أنه ما كلم البارحة إلا خالدًا، فظل يقول: مه يا خالد ! فأجاز عمر علقمة وقضى

(١) أحمد: فضائل الصحابة ٧٣٩/٢

(٢) الطبري: السابق ١٤٤/٤، وانظر عن عذر خالد عمر بعدما صنعه به (العقاد: عبقرية عمر ١٣٠)

(٣) ابن كثير: السابق ١٥٤/٤

(٤) علقمة بن علاقة الكلابي صحابي من المؤلفة قلوبهم وكان من سادات قومه شهيرًا بالكرم والنبيل (راجع

ابن الأثير: أسد الغابة ٥٨١/٤-٥٨٢)

حاجته، وقال: " لأن يكون مَن ورائي على مثل رأيك . يعني حرصه على طاعة ولي الأمر وإن خالفه . أحب إليّ من كذا وكذا" (١) ..

– علاقات الود بين عمر وعمله:

رغم شدة عمر على ولاته ودقته في محاسبتهم وإقدامه على عزل من تحوم حوله شبهة أو تنثور في حقه شكاية ذات أثر، فإن رابطة قوية من الحب والولاء كانت تربط عمر وولاته الذين كانوا يثقون ثقة مطلقة في إخلاص خليفتهم، وسلامة مقاصده وسياسته وتجرده وعدله..

لقد كان عمر إذا غابت عنه أخبار بعض قادته وهم في ساحات الجهاد يكاد يقتله القلق، ويستبد به الخوف والشفقة عليهم، وكان في بعض الحروب الكبرى يخرج بنفسه يتنطس الأخبار، ويتحسس الأنباء علّه يطمئن عليهم، وفي حالات أخرى كان يلتقي بهم فنجد أمارات الحب العميق بينهم.

فلما سار عمر لفتح بيت المقدس وانتهى إلى الجابية لقيه قائده عمرو بن العاص وشرجيل بن حسنة؛ فوافقا عمر راكبًا، فقبلا ركبتيه، "وضم عمر كل واحد منهما محتضنهما" (٢)، وتلقاه أبو عبيدة فترجّل، وترجل عمر، فهمّ أبو عبيدة أن يقبل يد الخليفة، فهمّ عمر أن يقبل رجل أبي عبيدة، فكف كل منهما ليكف الآخر (٣) ..

ولما وقع طاعون عمّواس سنة ١٨ هـ خشي عمر أن يفقد فيه أبا عبيدة ابن الجراح، فكتب إليه يستقدمه إلى المدينة؛ فعرف أبو عبيدة أنه إنما أراد أن يستخرجه من الوباء فقال: يغفر الله لأمير المؤمنين، وكتب إليه: "يا أمير المؤمنين إني قد عرفت حاجتك إليّ؛ وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسني رغبة عنهم،

(١) ابن حجر: الإصابة ٥٥٧/٤

(٢) الطبري: السابق ٦١٠/٣، وانظر ابن كثير: السابق ٧٧/٤

(٣) ابن كثير: السابق ٧٥/٤

فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضائه، فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقال الناس: يا أمير المؤمنين أمت أبو عبيدة؟ قال: لا، وكأن قد " (١) ..
ولما التقى النعمان بن مقرن بالفرس سنة ٢١هـ في موقعة نهاوند تأخرت عن عمر الأخبار، فكان وهو بالمدينة يستنصر لقائه، "ويدعو له كالحبلى" (٢)، فلما علم باستشهاده استرجع عمر، وبكى ونشج حتى بدت عروق منكبيه من شدة البكاء (٣) ..

٦- عمر والتطوير الإداري للدولة:

أ) التطوير السياسي:

اتسعت الدولة الإسلامية في عهد عمر اتساعاً كبيراً عما كان عليه زمن النبي ﷺ وخليفته الأول، مما استلزم تطويراً في طرق إدارتها، واجتهاداً في تأصيل ذلك التطوير ليسير على مقتضى الشريعة ووفق أهدافها.. وكان عمر بعقليته التشريعية وقدرته الإدارية وشخصيته الجريئة قادراً على تأسيس كثير من المؤسسات وبداية أعمالها حتى نسبت إليه أوليات كثيرة كان أول من فعلها (٤) ..
فقد كوّن عمر حوله هيئة استشارية وجهازاً تنفيذياً معاوناً من كبار الصحابة الذين أبقاهم إلى جواره بالمدينة مثل عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأضرابهم، وكان دائم المشاورة لهم والأخذ برأيهم، وقد يوسع عمر مجلس شوره ليشمل جماعة من كبار الأنصار، وقد يوسعه ليشمل الرعية كلها في بعض المسائل.. فقد استشار العامة في خروجه إلى حرب فارس بعد

(١) السابق ١٠٦/٤

(٢) الطبري: السابق ١٢٠/٤

(٣) السابق ١١٦/٤

(٤) ابن الجوزي: السابق الباب الثلاثون ص ٨٥-٨٨

موقعة الجسر سنة ١٣ هـ واستشهاد قائدها أبي عبيد، فأشاروا عليه بالخروج للقائهم بنفسه، ثم استشار كبار صحابته فأشاروا عليه بتولية قائد على الجيش والبقاء في المدينة لرعايته ورعاية سائر الجبهات فنزل عن رأيهم، وتلطف في إبلاغ العامة بما وصلوا إليه.. واستشار كبار الصحابة في الخروج لفتح بيت المقدس فأشاروا عليه بالنهوض له، واستشارهم - كما سيأتي - في تنظيم الغنائم والفيء وغير ذلك من الأمور والقضايا..

وكانت السلطة السياسية والقضائية شيئاً واحداً زمن النبي ﷺ، ولم يكن يتوقع غير ذلك فهو الرسول والحاكم.. وكذا زمن صاحبه أبي بكر (١).. فلما ولي عمر واتسع نطاق الدولة وحركة الفتح وكثرت مسئوليات الخليفة ومشاغله فصل القضاء عن الخلافة، فولى القضاة وبعثهم إلى الأمصار - فيما يروي الرواة - وإن ظلت بعض الشكوك حول تعيين عمر قضاة مستقلين (٢)، إلا أنه يمكن الجمع بين الروايات المتعارضة بأن نفترض أن عمر كان يفوض بعض كبار فقهاء الصحابة في مواطن القضاء؛ كما كان يقضي بنفسه، ويقضي وولاته بأنفسهم، ومعنى ذلك أنه ربما ناب القضاة أحياناً عن الخليفة وولاته، فلا هم استقلوا تماماً بوظائفهم، ولا امتنع الخلفاء والولاة عن الإفتاء والقضاء..

ب) تنظيم عمر أمر الغنائم والفيء:

تنظم أمر الغنائم والفيء في الإسلام آيات محددة في كتاب الله وما دار حولها من اجتهادات فقهية.. ففي الغنيمة يقول تعالى: (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ..) الآية (٣)، وينظم الفيء قوله تعالى: (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى

(١) هناك خلاف حول تعيين أبي بكر قضاة له (راجع محمد حسن شراب: المدينة المنورة ٦٠/٢-٦١)

(٢) حول الخلاف في تعيين عمر القضاة ووصيته المشهورة في القضاء إلى أبي موسى الأشعري: راجع

السابق: ٦١/٢-٨٦

(٣) سورة الأنفال: آية ١٤١

رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ
كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ^(١)..

وحتى عصر عمر كان الاجتهاد السائد أن ثمة فارقاً بين ما يأخذه المسلمون من أعدائهم عنوة واقتهاراً وما يأخذونه بغير قتال نتيجة استسلام العدو وفق شروط صلح ثابتة، فكان ما يؤخذ عنوة يعد غنيمة . سواء كان أموالاً منقولة أو أسرى أو أرضين . فيقسم أربعة أخماسه على المجاهدين ويكون الخمس الباقي لله، فضلاً عن الصوافي وهي ما كان لملوك الفرس والروم وأمرائهم، وما فر عنه أهله، أي يتصرف فيه ولي الأمر تبعاً لما شرعه الله في آية سورة الأنفال في مصارف محددة .. أما ما افتتحه المسلمون صلحاً فإن أهله يدفعون الجزية التي يتم تحديدها في عقد الصلح، والتي تقول إلى الدولة تنفقها في المصالح العامة مقابل تأمين أصحابها والدفاع عنهم^(٢)..

فلما جاء عصر عمر وشهد الفتوحات الكبرى أقبل على المسلمين قدر هائل من الأرضين والأموال، فأراد المحاربون قسمتها فيما بينهم، وعزل الخمس للدولة، فأبى عمر ذلك وقال: "كيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها - أي عبيدها وأهلها من العجم - قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت، ما هذا برأيي"، واستشار كبار المهاجرين الأولين فاختلفوا عليه، فأرسل إلى عشرة من كبار الأنصار واستشارهم فقال: "رأيت أنه لم يبق شيء يُفتح بعد أرض كسرى، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم.. وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها، وأضع عليهم فيها الخراج، وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فينا للمسلمين: المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم، رأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها، رأيتم هذه المدن العظام: الشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن

(١) سورة الحشر: آية ٧

(٢) راجع يحيى بن آدم: الخراج ص ١٧، ١٩، ٢٢، وانظر الطبري: السابق ١٥٦/٤-١٥٧

تُشحن بالجيوش، وإدراار العطاء عليهم، فمن أين يُعطى هؤلاء إذا قُسمت الأرضون والعلوج" ؟ فقالوا جميعًا: "الرأي ما رأيت"..^(١) فكتب بذلك إلى سعد بن أبي وقاص بالعراق^(٢)، وإلى المسلمين بالشام^(٣)، وإلى عمرو بن العاص بمصر فقال: "أقرها حتى يغزو منها حَبَل الحَبَلَة"^(٤).. واحتج عمر في ذلك بآيات سورة الحشر؛ وأنه بعد بيان أصناف من يحق لهم الفياء قال تعالى: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ...) ثم قال: (والذين تبوءوا الدار والإيمان) يعني الأنصار، ثم قال: (والذين جاءوا من بعدهم..)، فقد صار هذا الفياء بين هؤلاء جميعًا^(٥).. وقد رأى جمهرة من فقهاء المسلمين بعد ذلك أن "الأرضين إلى الإمام إن رأى أن يُخمسها ويقسم أربعة أخماسها للذين ظهروا عليها فعل ذلك، وإن رأى أن يدعها فينًا للمسلمين على حالها أبدًا فعل؛ بعد أن يشاور في ذلك ويجتهد رأيه، لأن رسول الله ﷺ قد وقف بعض ما ظهر عليه من الأرضين فلم يقسمها وقد قسم بعض ما ظهر عليه"^(٦).. وبذا استقر رأي عمر بأن تُقرض على الأرض المفتوحة ضريبة مالية يدفعها فلاحوها تعرف بالخراج، وعلى رؤوسهم ضريبة تعرف بالجزية، فإن أسلم أحدهم تُطرح من رأسه الجزية وله الخيار في أرضه، إن شاء أقام فيها يؤدي عنها خراجها، وإن شاء تركها فيجعلها الخليفة للمسلمين، فإن شاء خليفتهم أقام فيها من

(١) أبو يوسف: الخراج ص ٢٤-٢٦

(٢) السابق ص ٢٤

(٣) السابق ٢٦

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٨٨

(٥) أبو يوسف: السابق ص ٢٦-٢٧

(٦) يحيى بن آدم: الخراج ص ١٨، وهذا قول أكثر العلماء منهم أبو حنيفة والثوري وابن المبارك ويحيى بن آدم والإمام أحمد في المشهور عنه، وأبو عقيل وإسحاق.. بينما ينص الشافعي على وجوب قسمتها بين الفاتحين بعد إخراج الخمس منها، رغم أن اختلاف الصحابة في قسمتها كما رأينا يثبت أن الأمر جائز وليس بمنكر، والقول الثالث: أنها فيء لا يجوز قسمتها على الفاتحين وهو قول مالك وأصحابه ورواية عن أحمد (راجع: ابن رجب: الاستخراج في أحكام الخراج ص ١٥-١٦)

يعمّرها ويؤدي إلى بيت المال عنها شيئاً، وإن شاء أنفق عليها من بيت المال واستأجر من يقوم عليها ويكون فضلها للمسلمين، وإن شاء أقطعها ممن له غناء من المسلمين^(١)..

فضل اجتهاد عمر في تنظيم الغنائم والفيء:

لقد حقق عمر باجتهاده ذلك عدة نتائج مهمة؛ فلم تعد ثروات الأرض المفتوحة حقاً للفاتحين من المحاربين فحسب، بل لجميع المسلمين في أجيالهم المتتابة، وقد أتاح ذلك التنظيم المالي توفير موارد مالية ثابتة للدولة الإسلامية مما أتاح السبيل لتنظيم العطاء وتدوين الدواوين كما سيأتي..

كما أن ذلك الاجتهاد أبقى للمسلمين إمكانية أن يظلوا عسكريين مجاهدين متماسكين في معسكراتهم، وكان توزيع الأراضي الزراعية فيما بينهم سيحوّلهم إلى فلاحين للأرض ورعاة للماشية، وربما فشت بينهم الحزازات والخلافات إثر تنازعهم على اقتسام الأرض التي ستختلف حسب جودتها وموقعها.. كما أنه أبقى المزارعين بأرضهم؛ مما أتاح لهم حياة كريمة^(٢)، وأبقى للزراعة ازدهارها، "ولم يكن من الناحية العملية يمكن للعرب أن يقتسموا بينهم نصف العالم" إلا إذا كان يراد له أن يتحول إلى أرض خربة، ولا كانوا أيضاً يستطيعون أن ينتشروا في تلك الأرض الواسعة لكي يزرعوها، بل كان لابد لهم أن يتجمعوا في معسكرات إن أرادوا المحافظة على سلطانهم"^(٣)..

ج) تدوين الدواوين وتنظيم العطاء:

(١) يحيى بن آدم: الخراج ص ٢٢

(٢) كان أهل العراق قد اعتادوا أداء الخراج إلى الفرس قبل وصول المسلمين إليهم (راجع ابن رجب:

الاستخراج ص ٨-٩، يحيى بن آدم: الخراج ص ٢١-٢٢)

(٣) فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ص ٢٨

ويروى في سبب تدوين الديوان في عصر عمر أن أبا هريرة قدم من عند أبي موسى الأشعري عامل عمر بالعراق بثمانمائة ألف درهم، فلما أخبر عمر بما جاء به لم يصدقه استكثاراً لها، بل قال له: فكم ثمانمائة ألف درهم؟! قال أبو هريرة: فعددت له مائة ألف ومائة ألف؛ حتى عددت ثمان مائة ألف، فقال: أطيب، ويملك؟ قال: نعم، فبات عمر ليلته أرقاً حتى نودي لصلاة الصبح فقالت له امرأته: يا أمير المؤمنين ما نمت الليلة، قال: فكيف ينام عمر وقد جاء الناس ما لم يكن يأتيهم مثله منذ كان الإسلام؟ فما يؤمن عمر لو هلك وذلك المال عنده ولم يضعه في حقه؟ فلما صلى الصبح اجتمع إليه نفر من أصحاب النبي ﷺ فأخبرهم بما أمّهم، قال: قد رأيت رأياً فأثيروا عليّ، رأيت أن أكيل للناس بالمكيال، فقالوا: لا تفعل يا أمير المؤمنين، إن الناس يدخلون في الإسلام ويكثر المال، ولكن اعط على كتاب، وكلما كثر الإسلام - يعنون: المسلمين - وكثر المال أعطيتهم^(١)..

وفي رواية ابن سعد أن عليّ بن أبي طالب قال: " تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيئاً "، أما عثمان بن عفان فقال بحسّ صاحب المال والتجارة: "أرى مالاً كثيراً يسع الناس، وإن لم يُحصوا حتى نعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر"، فقال الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين قد جئت من الشام فرأيت ملوكها قد دَوّنوا ديواناً، وجنّدوا جنوداً"، فأخذ عمر بقوله، ودعا عقيل بن أبي طالب، ومخرمه بن نوفل وجبير بن مطعم، وكانوا من نساب قريش فقال: اكتبوا الناس على منازلهم، فكتبوا وبدأت كتابتهم ببني هاشم ثم بني تيم رهط أبي بكر ثم بني عدي رهط عمر، فرتبوا الناس حسب ترتيب الخلافة والنبوة، فقال عمر: وددت والله أنه هكذا، ولكن ابدؤوا بقرابة النبي ﷺ الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله^(٢)، فجاءه بنو عدي

(١) ابن الجوزي: السابق ص ١٣٢-١٣٣

(٢) ابن سعد: السابق ٢٢٤/٣